دار المقتبس

قواعد الفكر التربوي الإسلامي



د. عيسى بن محمد الحلوفي

قَوَاعِدُ
الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ الإِسْلَامِيِّ

دار المقتبس

مؤسسة ثقافية
تُعنى بالنشر والطباعة والتوزيع للكتاب العربي
أسسها نور الدين طالب سنة ١٤٣٤هـ-٢٠١٤م.

- سوريا - دمشق - الحلبوني
(ص. ب:34306)
00963933093781
00963933093782

- لبنان - بيروت - كورنيش المزرعة:
(ص. ب: 14/6759)
00961 70 81 33 77
00961 70 81 44 77

moqtabas
t.almoqtabas.com
f.almoqtabas.com
y.almoqtabas.com
i.almoqtabas.com
l.moqtabas.com

E_mail: info@almoqtabas.com
Website:/http://almoqtabas.com

جميع الحقوق محفوظة

يُمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بكافة طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي أو المسموع أو استخدامه حاسوبياً بكافة أنواع الاستخدام وغير ذلك من الحقوق الفكرية والمادية إلا بإذن خطي من الدار.

الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ-٢٠١٧م

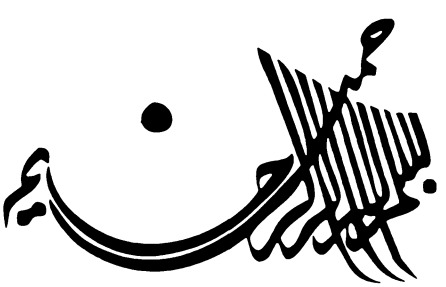
ISBN 978-9933-565-40-4

9 789933 565404 90000

قواعد
الفكر التربوي الإسلامي

تأليف
د. عيسى بن محمد الخلوفي

دار المقتبس



الإهداء

إلى

* حسن الفلالي و سعيد آل كشم ...

لذكرى أيام جميلة

❐ ❐ ❐

المقدّمة

إن الحمدلله، أحمده وأستعينه وأستهديه، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين؛ القائل: (إن للإسلام صوى ومناراً كمنارات الطريق)[1]، والصوى أعلام من أحجار كانت توضع في الفيافي والصحارى تدل المسافرين على الطريق، وهذا كتاب اجتهدت أن أجمع فيه قواعد الفكر التربوي الإسلامي ، لعلها تكون مناراً ودليلا للمربين والواعظين والآباء والمعلمين، ولكل راغب في تزكية نفسه وتربيتها.

يهدف هذا الكتاب إلى تقريب التربية الإسلامية بواسطة جمع مفرداتها المتناثرة تحت قواعد كلية، تندرج تحتها تلك الفروع، **فإن التربية الإسلامية** في أمس الحاجة اليوم إلى جهود نوعية لتقريبها للمهتمين بها، وللعاملين في هذا المجال بالخصوص، فكثير من كتب التراث ليست سهلة التناول للجميع، حيث تميل تلك الكتب إلى التفصيل والإسهاب، أو الاختصار والترميز بالمصطلحات الغامضة، لذا قد لا يحصل القارئ على إجابة الأسئلة التي ينشدها.

---

(١) صححه الألباني رحمه الله، السلسلة الصحيحة، حديث ٣٣٣.

وهناك حاجة أهم للوصول بالتربية الاسلامية إلى مرتبة التوافق مع مقاصد الشريعة الاسلامية في التزكية والتربية وفي الحياة استعماراً واستخلافاً، لئلا تكون تلك التربية قاصرة أو مخالفة للمنهج الرباني الذي أراده الله لهذه الأمة.

إن التربية مزيج من المعرفة والمهارة، لذا فيلزمنا تعلم أصولها أولاً ، ثم تدريب النفس على التخلق بآدابها، مع سلوك أفضل وأنسب وسائلها[1]. ويمكننا أن نتصور حال المشهد التربوي عندما يتصدى للتربية والوعظ من لم يتعلم أصولها ولم يحط بمهاراتها ؟!

إن هذا الكتاب مساهمة في شأن تقعيد الفكر التربوي الإسلامي، وتيسير وصوله للمهتمين به ،والله الموفق ،وهو الهادي إلى سواء السبيل.

عيسى بن محمد عبد الغني الخلوفي

isamgk@twitter

isamgkk@gmail.com

❐ ❐ ❐

---

(١) انظر: خلف يوسف الطراونة، مبادئ التربية وأسسها، مكتبة ابن خلدون، ص: ١٨؛ نقلاً عن د. الحليبي، ود. المعايطه، مقدمة في التربية، ص: ٣٧ .

تمهيد

أولاً

مفاهيم أساسية في الموضوع

مفهوم التزكية:

التزكية: هي التطهير، لذا كانت الزكاة طهرة للمال.

والتزكية في القرآن يقصد بها التطهير من دنس الكفر والذنوب[1].

فالتزكية في الأصل تعني التنمية، يقال زكا الزرع إذا نما، ثم استعملت في معني الطهارة النفسية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[الشمس: ٩][2]. قال ابن عباس: يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان[3].

والتزكية معنى مغاير لمعنى التعليم، لذا جمعت الآيات الكريمة بين لفظي التعليم والتزكية، ومن الآيات التي أتت فيها هذه المعاني مترادفة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

---

(١) انظر الشوكاني، فتح القدير، نسخة الكترونية، تفسير سورة الجمعة، آية ٢.

(٢) الصابوني، صفوة التفاسير، نسخة الكترونية، تفسير سورة البقرة، آية ١٢٨.

(٣) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، نسخة الكترونية، تفسير سورة الجمعة، آية ٢.

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[البقرة: ١٢٩].

وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[الجمعة: ٢].

والكتاب هو القرآن. والحكمة هي السنة، وقيل الكتاب أي: الخط باليد، لأنه فشا بالعرب بعد كتابة القرآن الكريم في الصحف، والحكمة هي الفقه في الدين. وقال ابن زيد: هي العقل في الدين[١].

والمراد مما سبق أن في التزكية معنى أعمق و أدق من معنى التعليم!

مفهوم التربية:

قال الإمام البيضاوي: الربُّ في الأصل بمعنى التربية، هي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً[٢].

وقال الأصفهاني: الرب في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً

---

(١) انظر: الطبري، تفسير الطبري، سورة البقرة، آية ١٢٩؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة البقرة، آية ١٢٩، الشوكاني فتح القدير، تفسير سورة البقرة، آية ١٢٨.

(٢) الإمام البيضاوي عبدالله بن عمر (٦٨٥)، أنوار التنزيل وأسرار التاويل، نقلاً عن د. عبدالرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية، دار الفكر، دمشق ، ط ٢٨، ص: ١٦.

فحال إلى حد التمام[1].

وعرفت التربية بأنها: أن تضفي على الجسم والنفس كل جمال وكمال ممكن لها[2].

وعرفت أيضا بأنها: مساعدة الفرد على تحقيق ذاته حتى يبلغ أقصى كمالاته المادية والروحية، في إطار المجتمع الذي يعيشه .[3]

مفهوم التعليم:

التعليم، مصدر علّم، وعلّمه القراءة : جعله يعرفها، وفهمه إياها.

وعرف التعليم بأنه فرع من التربية يتعلق بطرق تدريس الطلاب أنواع المعارف والعلوم والفنون، لذا يقال علمه الكتابة وعلمه الرماية[4].

ويعرف التعليم أيضا بأنه: العملية المنظمة التي تمارس من قبل المعلم بهدف نقل المعارف المهاراتية الى الطلبة[5].

---

(١) الراغب الأصفهاني (٥٠٢) ، المفردات في غريب القرآن ، نقلاً عن المرجع السابق، ص: ١٦.

(٢) هذا التعريف العام ينسب لأفلاطون، انظر: د. عبدالعزيز المعايطه، ود. عبداللطيف الحليبي، مقدمة في أصول التربية، مكتبة الفلاح، الكويت، ط ١، ٢٠٠٥ م، ص: ٢٤.

(٣) هذا تعريف الأستاذ إسماعيل القباني. المرجع السابق.

(٤) انظر: قاموس المعاني، مادة: علم.

(٥) طارق محمد، تعريف التعليم، مقال منشور الكترونياً في mawdoo3. Com.

الانفصال بين التربية والتعليم:

إن التعليم في عرف الناس اليـوم أشـد التصاقاً بتعليم فن من الفنون منه بالتربية والإرشاد العام، فيقال معلم الرياضيات أو معلم اللغة العربية أو التاريخ، وهذا التخصيص من الناس سببه ما آل إليه الحال من الانفصال بين التربية والتعليم في أكثر الأحوال.

تعريف التربية الإسلامية:

أما التربيـة الإسلاميـة فهي مزيج من المفاهيم الثلاثة السابقة، ومن أفضل ماعرفت بـه بأنهـا: تنشئة الإنسان شيئاً فشيئاً في جميع جوانبه ابتغاء سعادة الدارين، وفق المنهج الإسلامي[1]، وهـذا التعـريف للتربية هو مدار هذا الكتاب.

❐❐❐

(١) د. عبدالعزيز المعايطه، ود. عبداللطيف الحليبي، مقدمة في أصول التربية، ٢٦.

ثانيًا

لمحة عن التقعيد

المراد بالقاعدة:

القاعدة في اللغة هي أساس الشيء وأصله، وقواعد البيت أساسه[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾[البقرة: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾[النحل: ٢٦].

وفي الاصطلاح تطلق القاعدة بمعنى الأصل والقانون. لذا فإن تعريف القاعدة يدور على هذه المعاني، ومن ذلك عرفوا القاعدة بأنها: القضية الكلية التي تنطبق على جزئياتها.

وعرفوها كذلك بأنها: الكلية التي يسهل تعرف أحوال الجزئيات منها.

والكلية مأخوذة من كلمة «كل»، وهي تفيد الشمول والعموم، وضد الكلي الجزئي[2].

---

(١) انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة: قعد.

(٢) انظر: محمد صدقي البورنو، موسوعة القواعد الفقهية، مؤسسة الرسالة، بيروت، =

إذاً فالقاعدة:

١ ـ أمر كلي يحوي فروعاً، ويمكن أن تستنبط منه فروعاً أخرى كذلك.

٢ ـ أصل يبنى عليه؛ لذا تجد لدى بعض المصنفين يقول: وهذا مبني على القاعدة الفلانية.

٣ ـ الشيء المطرد حدوثه، أي قد تطلق لفظة القاعدة ويراد بها الشيء الدائم الحدوث، ومن ذلك قولهم؛ وهذا جرياً على قاعدة كذا.

وكل هذه المعاني الثلاث معتمدة ورائجة لدى المؤلفين، فليس كل ماذكر من قواعد في هذا الكتاب قواعد كلية تندرج تحته فروع وجزئيات، بل قد تكون القاعدة أصلاً أو حكماً مطرداً.

المقصود بالتقعيد:

التقعيد في اللغة مصدر قعد يقعد، وهو مشتق من القاعدة، ومعناه: إنشاء القاعدة وصياغة عناصرها.

والمراد بالتقعيد جمع شتات فروع وجزئيات علم ما تحت قواعد كلية، وجعل كل مجموعة متجانسة متناظرة من هذه الفروع في إطار واحد يضبطه حكم واحد[1]. أي أن الفروع المتشابهة الموضوع تُجمع تحت القاعدة

= ط١، ٢٠٠٣ م، ص: ١ / ٩٨؛ علي الندوي، القواعد الفقهية، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م، ص: ٤٠ ـ ٥٣.

(١) انظر: د. محمد الروكي، نظرية التقعيد الفقهي، ٨٨.

التي تناسبها، فيتكون لدينا مجموعة من القواعد الكلية تحتوى على معظم مفردات وفروع ذلك العلم، ومن هذه القواعد يتشكل المكون الرئيس لذلك الفن، وكذلك يمكن القول أنها تشكل النظرية العامة لعلم ما، وعلى هذا فإن التقعيد يتصور وقوعه في كل فن وعلم.

القواعد قد تتجاوز العلم المحدد إلى غيره:

وقد ذكر العلماء أن من القواعد الفقهية ما هو قواعد شرعية في الحقيقة وليست مختصة بالفقه، مثل: قاعدة الأمور بمقاصدها، فإنها تدخل في كل العلوم الشرعية، وليست مختصة بالفقه وحده،[1]. وكذلك الحال في هذه القواعد التربوية فإن من هذه القواعد التربوية ما يعم الجانب التربوي وغيره، فهي قواعد شرعية كلية .

فائدة التقعيد:

يروى أن أصل فكرة التقعيد في العلوم الإسلامية بدأت من أحد فقهاء الأحناف، وكان قد وضع له قواعدَ في الفقه الحنفي جمع فيها شتات المسائل الفقهية المتناثرة، وكان يراجعها في المسجد كل يوم، لأنها الأصل الذي يجمع له شتات المسائل، ويبني عليها في قياسه لفروع مسائل الفقه.

إن فائدة التقعيد تظهر في تسهيله لتناول فروع وجزئيات أي علم، وذلك بجمع الفروع المتشابهة تحت قاعدة كلية تضمها، أو ذكر قواعده

---

(١) انظر: د. محمد الروقي، نظرية التقعيد الفقهي، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠ م، ص: ٥٧.

وأصوله التي تبنى عليها الفروع أوتستنبط منها، أو ذكر القواعد المشتملة على المعاني المطردة فيه، وهذا بلاشك يورث الفهم والفقه لذلك العلم أياً كان، فكل من يطلع على القواعد الكلية في علـم مـا سيفهم الأفكـار والمبادئ الأساسية التي قام عليها والأحكام المطردة فيه. ومن تلك القواعد يمكن أن تنشأ النظرية الخاصة بذلك العلم. ومن فوائد التقعيد للعلوم الشرعية أنه يفهم منه المقاصد الشرعية في تلك العلوم، فإن التقعيد ماهو إلا حصر للكليات الشرعيات في تلك العلوم[1].

وكذلـك الحال هنا في ذكر قواعد التربية والتزكية التي تجمع قواعد أصول هذا الفن التي قام عليها، و التي تطرد أحكامها على كثير من فروعها.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن القواعد في معظم العلوم، وإن أطلق عليها وصف كليـة ؛ إلا أن حقيقتها قواعـد أغلبيـة أوأكثريـة، تنطبق على أكثر أو أغلب الفروع والجزئيـات التي تندرج تحتها، وليست مطلقـة الاطـراد، أي أنه يدخل عليها الاستثناء، لذا قالوا: من القواعد عدم اطراد القواعد[2]. وهذا الوصف الصادق على القواعد الفقهية متحقق هنا في القواعد التربوية.

❐ ❐ ❐

---

(١) انظر: د. أحمد بن حميد، تحقيق قواعد المقري، منشورات جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١/ ١١٣.

(٢) انظر: د. محمد الروكي، نظرية التقعيد الفقهي، ٤٤، ٤٦.

ثالثاً

لمحة عن هذا الكتاب

هذا الكتاب محاولة لجمع شتات فروع وجزئيات الفكر التربوي المتناثر في ثنايا كتابات التربويين الإسلاميين عبر القرون ، وجمعه في قواعد كلية كبرى ، وأصول مطردة ، ممّا يسهل على المربي والمعلم والواعظ الإلمام بكليات التربية وفروعها. فهذه القواعد تتناول في مجموعها أركان التربية، بحيث يمكن القول أنها تضم أصول مواضيع التربية الإسلامية.

تشكيل النظرية المتكاملة في التربية والتزكية الإسلامية:

يمكن القول إن هـذه القواعد الكلية هي أساس يعين عـلى تشـكيل نظرية عامة في موضوع التزكية والتربيـة الإسلامية، فإن القواعد العامـة في كل موضوع هي المكون الأساسي للنظريات .[1]

---

(١) وتعرف النظريـة بأنهـا: فرض علمي يربط عدة قوانين بعضها ببعض، ويردها إلى مبدأ واحد يمكن أن تستنبط منه أحكاماً وقواعد .

وقد يعبر عن النظرية بأنها: مفهوم شامل أو دستور عام في موضوع ما .

انظر: الندوي، القواعد الفقهية، حاشية ص: ٦٢ ؛ البورنو، موسوعة القواعد=

أهمية هذه القواعد:

إن هناك شبه اتفاق بين المربين والمعلمين على عناوين القواعد الكلية المذكورة، فلا أحـد ينازع في مكانة العبودية في التربية، ولا في أهمية التدرج، لكن تطبيق القاعدة قد يختلف من شخص إلى آخر ، حتى قد يصل الاختلاف الى أن يخطـئ كـل طرف الطرف الآخر، والسبب في ذلك اختلاف المربين في تفسير المـراد بالعبوديـة أو التدرج، أو فـي كيفية تحقيقها وتنزيلها في العملية التربوية.

وإن مما حُرص عليه في هذه القواعد أن يُحرر المراد بكل قاعدة كمدخل، ثم بيان شيء من فقهها وهو مما يزيد في توضيح المراد بالقاعدة، ثم تناول تحقيق القاعدة، وهو التنزيل العملي لها، وهو ثمرة لفقه القاعدة.

لمن هذا الكتاب؟

إن المتصدي لتعليم الناس أو تـربيتهم أو وعظهـم يلزمـه الإحاطـة بالقواعد الكلية في هذا الفن، حاله كحال من يتصدى للفتـوى، لأنـه إذا لم يدركها ويعيها؛ فإنه قد يَضل ويُضـل، قال الإمام الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ) : «فلا يصح للعالم في التربية العلمية إلا المحافظة على هذه المعاني، وإلا لم يكن مربياً، واحتاج هو إلى عالم يربيه»[1].

= الفقهية، ١ / ٩٨.

(١) الشـاطبي، الموافقـات، ١/ ٦١؛ نقـلاً عن د. أحمد زايد، تأصيل فقه الدعوة عند الإمام الشاطبي، ١٦٣.

تقسيم هذه الكتاب:

تم تقسيم هـذه القواعد على حسب موضـوعها إلى ثلاثـة فصـول؛ الفصل الأول يتضمـن القواعـد الأساسـية في التربيـة والتزكيـة؛ وتتنـاول توضيح وتأكيد الغاية من التربية والتزكيـة، أما الفصل الثاني؛ فهي القواعد التي تتضمن تحقيق مقصـد الاصـطباغ بالصـبغة الربانيـة، والفصـل الثالـث يتناول القواعد التربوية المحققة لمقصد الاستدامـة والاستمرارية، أو يمكـن القول إنها القواعد الخادمة لتحقيق وتنزيل الأهداف التربوية.

هذه القواعد لاتغني عن كتب التربية الأخرى:

لم يُقصد بهذا الكتـاب أن يحوي جميع أبواب وفروع التربية والتزكية؛ لأن ذلك يطول؛ لذا فإن هنـاك الكـثير مـن المواضـيع التربويـة والإيمانيـة والسلوكية لم يتطرق هذا الكتاب لهـا، أو اكتفـي بالإشارة لها فقط، لذا فإن قراءة كتب التزكية المطولة منها أو المختصرة لاغنى عنها؛ وإن الاطلاع على فهرس المواضيع لكتاب مثل مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة يرحمه الله يجعل القارئ يُلمّ بالكثير من المواضيع التي يحتاج لها المرء في تربية نفسه.

منهجية الكتابة:

مما اجتهدت أن التزمه حال تدوين هذه القواعد:

١ ـ الإيجاز بقدر الممكن، مع إحالة القارئ الى أمهات كتب التربية والتزكية التي يجد بها التفصيل [١].

---

(١) تم ترتيب مراجع الكتاب في علم التربية بناء على تاريخ وفاة المؤلف ، والقصد أن=

٢ ـ الالتزام بموضوع الكتاب، وهو التربية والتزكية، لذا اجتهدت في عدم الخروج عن موضوع الكتاب الأصلي، وأي مسائل متعلقة بعلوم أخرى؛ كالاعتقاد أو الفقه أو أصول الفقه، فإني أتجنب التفصيل بها، ويمكن للمربي إذا رغب في التفصيل في مسألة أن يرجع إلى كتب ذلك الفن.

٣ ـ محاولة بناء العقلية التقعيدية، أو الفكر التقعيدي لدى المربين؛ خاصة فيما يتعلق بأمر التربية والتزكية، وأن يكون هذا مما يورّث للمتربين[١].

مفاتيح العناوين الرئيسة في كل قاعدة:

أتناول في كل قاعدة تربوية خمسة عناصر رئيسة، وهي كمايأتي: بيان المراد منها، وأصلها الشرعي، وفقهها، وكيفية تنزيلها، وآثار غياب القاعدة، ثم قد يكون هناك قواعد تابعة للقاعدة الكلية الرئيسة.

١ ـ أما بيان المراد منها؛ فإني أحدد فيه المراد بالقاعدة على وجه التحديد، وبشيء من الاختصار، وأذكر الفرق بينها وبين قاعدة أخرى إن اقتضى الأمر.

٢ ـ الأصل الشرعي للقاعدة؛ وأذكر فيه بعض الأدلة الشرعية على هذه القاعدة، مع عدم التوسع في ذلك.

= يدرك القارئ الترتيب الزمني لتطور الفكر التربوي الإسلامي .

(١) من أفضل الكتب التي تناولت فكر التقعيد في شقه الفقهي كتاب الدكتور يعقوب الباحسين ؛ المعايير الجلية في التمييز بين الأحكام والضوابط والقواعد الفقهية، منشورات مكتبة الرشد، الرياض. وكذلك كتاب: د. محمد الروقي، نظرية التقعيد الفقهي.

٣ ـ فقه القاعدة؛ أورد فيه مفاهيم وضوابط تعين على فهم متزن ومنضبط للقاعدة التربوية، مع ذكر أهميتها ومكانتها، وقد أتناول بعض الأفكار التربوية المتناقضة معها أو التي تشتبه بها، وأذكر مايستثنى من القاعدة إن وجد.

٤ ـ تحقيق القاعدة وتنزيلها؛ وهو يتناول الشق العملي من القاعدة، ويعني بآليات وكيفيات تحقيق القاعدة في واقع التربية، فإذا كان (فقه القاعدة) قد بين مفاهيم وضوابط القاعدة النظرية، فإن (تحقيق القاعدة) يتناول الجانب العملي منها، فإن تعثر التربية قد يكون مرده ليس إلى مبادئ التربية بل إلى كيفية تنزيلها وتحقيقها.

وقد أذكر في تحقيق القاعدة مفاهيم مغلوطة في تنزيل القاعدة وتطبيقها حال التربية، أو استثناءات من العموم الذي قد يفهم من عنوان القاعدة، فأبين حالة أو مسألة تربوية مستثناة من القاعدة الكلية.

٥ ـ آثار غياب القاعدة؛ وهو تأكيد لأهميتها التربوية، ويعطي للمربي العلامات التي يمكن رؤيتها حين تغيب القاعدة التربوية عن فكر المربي أو الواعظ، أو النتائج المتوقعة لغيابها، فهو يظهر ويكشف له ماقد وقع، وينبهه على ماقد يقع إن أهملت تلك القاعدة.

وقد يلاحظ القارئ أن هناك مواضع يتنازع فيها فقه القاعدة مع تطبيقها على موضوع ما، كل منهما يناسبه في جزء منه، فأجتهد في إلحاقه الموضوع بالعنوان الذي أرى أنه أقرب له، وهذا لا يضر بصواب الفكرة الأصلية .

❐ ❐ ❐

شكر وتقدير

أشكـر أخـي الشيخ الفاضل: سليم الشنقيطي على تفضله بمراجعة هذا العمل تكراراً ومراراً، وعلى نصحه وإرشاده، أسأل الله أن يجزل له الأجر والمثوبة [1].

❐❐❐

(١) توفي الشيخ سليم أثناء إعداد الكتاب للطباعة ؛أسال الله أن يرحمه ويعلي درجته ويجعل هذا الكتاب من الباقيات الصالحات لي وله .

الفصل الأول

القواعد الأساسية في التربية والتزكية

ويشتمل على القواعد التالية:

* غاية التربية نيل محبة الله ورضوانه.

* العبودية .

* الإخلاص .

* اتباع الشرع .

الفصل الأول

القواعد الأساسية في التربية والتزكية

* تمهيد:

يشتمل الفصل الأول من هذا الكتاب على القواعد الأساسية في التربية، وهي القواعد الأهم والأسمى، وعليها مدار رحى تربية النفس وتزكيتها، وكل القواعد الأخرى هي من قواعد الوسائل أو القواعد الإجرائية الخادمة لها.

ويبدأ هذا الفصل بتناول أهم القواعد التربوية على الاطلاق، وهي قاعدة غاية التربية والتزكية، لذا استحقت أن تكون في صدارة القواعد، وتتضمن توضيح الغاية من التربية، وجوانب متعلقة بطلب محبة الله ورضوانه.

ثم قاعدة العبودية، وهي سبيل تحقيق القاعدة الأولى، وتتضمن بيان المراد بالعبودية، والحقائق المتعلقة بها، وبيان أفضل العبادات، ومعايير معرفتها وتحديدها.

وتلتها قاعدة الإخلاص، وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقاعدة التي

قبلها لأنها السبيل لقبول العبودية، وتتضمن توضيح بعض المفاهيم المتعلقة بالإخلاص.

ثم قاعدة الاتباع للشرع في التربية، وهي مثل قاعدة الإخلاص، شرط لقبول العبودية، وتتناول مواضيع في فقه الاتباع للشرع، وأهمية هذه القاعدة في كونها معياراً للأخذ والرد في التربية الإسلامية ووسائلها.

وهذه القواعد الثلاث، العبودية والإخلاص والاتباع، هي صلب التربية وأساسها المتين، فإن مجمل حديث من تكلم في التزكية والتربية الإسلامية يدور على أنها تكون: «**ببذل العبودية الخالصة لله وفق ما أحب وشرع**». ومن ذلك مانقله الإمام الهروي رحمه الله (ت ٤٨١ هـ)[١]، قال: «اتفقوا على أن النهايات لاتصح إلّا بتصحيح البدايات، كما إن الأبنية لا تقوم إلا على الأساس، وتصحيح البدايات هو إقامة الأمر على مشاهدة الإخلاص ومتابعة السنة»[٢].

---

(١) الإمام الهروي، عبدالله بن محمد بن علي الهروي الحنبلي (٤٨١ هـ)، له كتاب ذم الكلام، قال عنه ابن تيمية في التحفة العراقية: من أجل المشايخ .

انظر: ابن تيمية، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم (٧٢٨ هـ)، التحفة العراقية في أعمال القلوب، تحقيق سليمان الحرش، دار الهدى للنشر، الرياض، ط الاولى، ١٩٨٧م، ص: ٤٣.

وانظر ترجمته في: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٨ / ٥٠٣، محمد عقيل موسى، نزهة الفضلاء، ٣/ ١٣١٣.

(٢) الهروي، الإمام عبدالله الأنصاري (٤٨١هـ)، منازل السائرين، دار الكتب =

والأدلة على اقتران هـذه القواعد معـاً لتحقيق التربية كثيرة، ومنها: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف: ١١٠]. وقال رسول الله ﷺ: (يا معاذ: أتدري ما حق الله على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم؟ قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)(١).

* * *

= العلميـة، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٦.

وهذا الكتاب هو الأصل الذي شرحه ابن القيم في كتابه: مدارج السالكين.

(١) متفق عليه.

القاعدة الأولى
غاية التربية نيل محبة الله ورضوانه

أولاً ـ المراد بالقاعدة

إن المراد بقاعدة: غاية التربية نيل محبة الله ورضوانه، أن يكون نيل محبته ورضوانه عز وجل هو القصد الأول للمسلم من تربيته لنفسه وتزكيته لها، وأن تكون جميع المقاصد والغايات تابعة لهذا القصد وخاضعة له.

وهذا المعنى العظيم الجليل متى استقر في القلب أضاء، وبان له الطريق، وانعكس ذلك على حال صاحبه، وسهل عليه تربيتها وتزكيتها.

أما تعريف المحبة: فإن المحبة غنية عن التعريف، ولو أردنا أن نعرف المحبة فلن نزيدها إلا غموضاً، فإن المحبة «لاتوصف بوصف أظهر من المحبة، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء»[1]. ومثل ذلك يقال عن الرضى.

---

(١) انظر: ابن القيم، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ٣ / ١٠.

وهـذه القاعدة هـي غايـة التربيـة الأسـمى، وبقيـة القواعـد كلهـا وسائل لتحقيقها.

* * *

ثانياً ـ الأصل الشرعي للقاعدة

قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران: ٣١]. وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[المائدة: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾[البينة: ٨]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[النمل: ١٩]. وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[البقرة: ٢٠٧]. وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[التوبة: ٧٢].

وقـولـه تعالـى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٢]. وقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾[الحشر: ٨].

ومن الأحاديث العظيمة التي بينت مكانـة ومنزلة نيل رضوان الله تعالى، قول رسول الله ﷺ: (إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة؟ فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لانرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: يارب وأي شيء أفضـل من ذلـك؟ فيقـول: أحلّ عليكم

رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً)[1].

* * *

ثالثاً ـ فقه القاعدة

١ ـ مركزية هذه الغاية في التربية الاسلامية:

إن طلب محبة الله منزلة تربوية رفيعة، وهي بوابة لكل المراتب والمنازل التربوية، «**فإن المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها**»[2]. فمنزلة المحبة «هي روح الإيمان والأعمال،والمقامات والأحوال»[3].

ولو تأملنا فإننا سنجد أن بقية القواعد في التربية والتزكية كلها خادمة لهذا القصد، أي بلوغ محبة الله ورضوانه[4]. **وما** نيل رضوان الله عز وجل

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) الغزالي، حجة الإسلام الإمام أبي حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ)، إحياء علوم الدين، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٥م، ٤ / ٣٨٩.

(٣) ابن القيم، مدارج السالكين، ٣ / ٨.

(٤) انظر في موضوع نيل محبة الله: عبدالهادي حسن وهبي، في ظلال المحبة، دار ابن القيم، السعودية، ص: ٤١ ـ٨٥.

إلا نتيجة نيل محبة الله تعالى، قال الإمام الهروي مبيناً شروط نيل رضى الله تعالى: «ويصح بثلاث شرائط ؛ أن يكون الله عز وجل أحب الأشياء إلى العبد، وأولى الأشياء بالتعظيم، وأحق الأشياء بالطاعة»[1].

وموضوع محبة الله ونيل رضوانه أعم من موضوعي الإخلاص والعبودية، فهما تبع لها ووسيلة لتحقيقه.

٢ ـ وضوح الغاية من التربية أساس نجاحها:

إن وضوح الغاية مطلب مهم في تحقيق أي هدف،وهكذا الحال في التربية، فإن وضوح الغاية منها مطلب رئيس في نجاحها، بل لايتصور نجاح وفلاح إذا لم تستقر هذه الغاية في النفوس ، ولوضوح هذه الغاية أثر في سمو نفس المسلم وعلو همته، حتى يصدق فيها وصفها بأنها : تجول حول العرش، لتعلقها بمن فوق العرش سبحانه وتعالى [2].

التربية تكون بهذا الأصل:

إن واجب المربي أو الواعظ أن يضع محبة الله ورضوانه هدفاً أسمى لدى من يربيهم، وحين ينجح في غرس هذا الأمر في نفوس الناس، عندها فقط سيسهل القيام بأمر العبادات وتحقيق الإخلاص .

ومن كلام ابن القيم رحمه الله (٧٥١ هـ): «العامة تقول قيمة كل امرئ

---

(١) الهروي، منازل السائرين ، ٥٣.

(٢) انظر : ابن القيم ، مدارج السالكين ، ٣ / ١١٩.

ما يحسنه ، والخاصة تقول قيمة المرء ما يطلبه»[1] .

وإن هذا النهج التربوي أنجع من منهج التربية على منافسة الأقران أو زرع الرغبة في التفوق والتميز أو تطوير النفس، التي قد ينحرف المرء بسببها عن الغاية العظمى ، وقد لايشعر .

نماذج لوضوح الغاية على الانسان:

إن لوضوح الغاية أثراً كبيراً على نفس الإنسان، وهـذا شيء معلـوم مشاهد، ومن الأمثلة على أثر وضوح الغاية في نفس الإنسان ماوصفه لنا ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) رحمه الله عن حال أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد بلغ وضوح الغاية ـ أي طلب حب الله ورضوانه ـ في نفس الصديق أبي بكر رضي الله عنه أعلى الدرجات، فتجاوز مرحلة المسابقة والمنافسة مع الصحابة إلى مقام أعلى وأرقى، فصار لا يقصد إلا رضى الله، قال ابن تيمية: «وعمر بن الخطاب نافس أبابكر رضي الله عنه في الإنفاق كما ثبت في الصحيح عـن عمـر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: (أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافـق ذلـك مالاً عندي، فقلت اليـوم أسبق أبابكر إن سبقته يوماً، قال: فجئـت بنصـف مالي، قال: فقـال لي رسول الله ﷺ ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: مـا أبقيـت لأهلـك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلتُ [أي عمر]: لا أسابقك إلى شيء أبـداً). فكان مافعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة، لكن حال الصـديق أفضـل

---

(١) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ٣/ ١١٩ .

منه، وهو أنه خال من المنافسة مطلقاً، لاينظر إلى حال غيره»[1].

وهناك مثال آخر لعثمان بن عفان رضي الله عنه، فحين دعا النبي ﷺ لتجهيز جيش العُسرة، قام عثمان وتصدق بمئة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم دعا النبي مرة أخرى، فقام عثمان وقال مثل ذلك، وهكذا في المرة الثالثة، فقال النبي: ماضرّ عثمان ماعمل بعد اليوم![2] فعثمان لم يكن يسابق أحداً، فلو كان كذلك لتوقف عند أول مائة بعير بذلها، حيث لم يعط أحد حينها مثل هذا العطاء، لكن عثمان كان يطلب رضوان تعالى ، لذا لم يتوقف عن العطاء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

٣ ـ الصدق في محبة الله وأهميته في الفكر التربوي الاسلامي:

إن «لفظ الصدق يستعمل في ستة معان، صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها»[3]. ومحبة الله تعالى تورث ذلك كله. وبالصدق ينال العبد رضى الله تعالى، قال عز وجل مبيناً ما أورثه الصدق لأهله: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[المائدة: ١١٩].

---

(١) ابن تيمية، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم (٧٢٨ هـ)، مجموع الفتاوى، جمع عبدالرحمن بن قاسم، لايوجد معلومات للطبعة، ١٠ / ١١٦.

(٢) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٣) الغزالي، الإحياء، ٤ / ٥١١.

وقال الإمـام الثوري (١٦١ هـ) رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾[الزمر: ٦٠]. قال: «هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين»[١].

حال طالب محبة الله:

إن الطالب لحب الله تعالى ورضوانه يظهر أثر ذلـك عـلى حالـه، فـإن حب الله متى ملأ قلب العبد أشغله عما دون ذلك، بل ويخرج ما في القلب مـن أمراض، وبيّن يوسف بن أسباط حال العارفين بالله، فقال: «العارف لا يـرى له على أحد حقاً، ولايشهد على غيره فضلاً، ولذلك لايعاتب، ولايطالب، ولايضارب»[٢].

إن المعاني التي ذكرها ابن أسباط تُنبئ عن بواعث النزاع والخصام في واقعنا اليوم، فمـن يرى كثرة ما بين الناس من المعاتبات والمطالبات يدرك هذه الحقيقة، ويمكنه بذلك تقييم مستوى التربية بين جموع المسلمين اليوم.

وقد وصف الإمام الغزالي رحمه الله (ت ٥٠٥ هـ) حال السـائرين إلى الله بوصف بليغ ؛ وهو أنهم لا يتخاصمون ولايتنـازعون، بـل يتعـاونون لأن قصدهم واحد في سيرهم، أي طلب رضـوان الله، كحـال رفقـة السـفر في التعاون على مشقته لتقطع الطريق[٣].

---

(١) الغزالي، الإحياء، ٤ / ٥١٠.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، ١/ ٥٢٣.

(٣) الغزالي، إحياء علوم الدين، ١/ ٧٨.

وان مثل هذه المعاني تفضح حالنا اليوم، وأخص بذلك من ينتهج الاسلام منهجاً في الحياة، ثم حياته مليئة بالخصام والنزاع مع أمثاله من المربين والواعظين .

٤ ـ ثمار محبة الله ورضوانه وآثارها على تربية النفس:

إن جميع الأعمال الصالحة هي ثمرة حب الله تعالى، فجميع الأعمال الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى[١]، وإن من أهم ثمار أو آثار المحبة على الإنسان بلوغه مقامات ومراتب الأنس بالله والشوق إليه، والخوف منه[٢]، ويضاف كذلك الإحسان لعباده ، وتفصيل ذلك فيما يأتي:

أ ـ الأُنس بالله تعالى:

الأُنس بالله من ثمرات محبة الله تعالى، قال ابن القيم عن الأُنس بالله: «هو روح القُرب، لذا صدر منزلته بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: ١٨٦]... فاستحضار القلب هذا البر والإحسان واللطف يوجب قربه من الرب سبحانه وتعالى، وقربه منه يوجب له الأُنس، والأُنس ثمرة الطاعة والمحبة، فكل مطيع مستأنس وكل عاص مستوحش»[٣].

---

(١) ابن تيمية، التحفة العراقية، ٥٧.

(٢) انظر: الغزالي، الإحياء، ٤ / ٤٤٦.

(٣) ابن القيم، مدارج السالكين، ٢ / ٣٢٧.

وهذا الأنس يثمر أمرين مهمين:

الأول: تحمل الغربة التي قد يجدها حال سيره في طريق التربية والتزكية، وقد قال رسول الله ﷺ:

(بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء)[1]، والمقصود بيان حال المتمسك بتعاليم الإسلام، وفي الحديث الآخر: (يأتي على الناس زمان، القابض على دينه كالقابض على الجمر)[2].

والأمر الثاني: تحمل وحشة الإنفراد في الخلوات، فالأنس بالله هو سرّ حب العبد للخلوة، فسرّ قيام الليل هو أنس العبد بربه عز وجل، وهذه الخلوة كما سيأتي معنا هي من أشد مايعين المرء على تربية نفسه وتزكية روحه، لأنها سبيل للعبادة، والتأمل، ومحاسبة النفس [3].

والحقيقة أن في الأنس معنى تربوياً مهماً يضاف إلى ما سبق، فهو رافد مهم للإنسان في صبره على ماينالاه في سبيل تربية نفسه، أو فلنقل في

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) يقول في ذلك ابن تيمية رحمه الله: «فإن القلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه». انظر: ابن تيمية، العبودية، ١٠٨.

سبيل طلبه لرضاء الله، فالإنسان لايخلو من حديث مع نفسه، وقد تميل به هذه النفس يمنة ويسرة، ولايعصمه منها ولايصبره على مايلاقيه إلا ذلك الأنس بقرب الله منه، وبمعية الله له في كل حالاته ، لذا فقد قالوا: «من أنس بغير الله فهو في وحشة أبداً»(١). وبلا شك فإن الأنس بالله يعظم الرجاء فيه وفيما عنده عز وجل.

ب ـ الشوق إلى لقاء الله:

إن الشوق إلى لقاء الله هو من أهم ثمار محبة الله تعالى، فإن الحبيب يشتاق للقيا حبيبه، وكان من دعاء النبي ﷺ: (وأسألك الرضاء بالقضاء وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك)(٢)، لذا تحدى القرآن من ادّعى كذباً حب الله وموالاته: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[الجمعة: ٦].

وقد تكلم أهل التربية عن الشوق في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾[العنكبوت: ٥]. قالوا إن «هذا تعزية للمشتاقين وتسلية لهم، أي أنا أعلم أن من كان يرجو لقائي فهو مشتاق إلي، فقد أجلت له أجلاً يكون عن قريب»(٣).

---

(١) من كلام أحمد بن الحواري رحمه الله، انظر: ابن الملقن: أبي حفص سراج الدين عمر بن علي (٨٠٤ هـ)، طبقات الأولياء، تحقيق عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٩٩٨، ص: ٥٨.

(٢) رواه النسائي.

(٣) ابن القيم، المدارج، ٣ / ٤٤.

وثمرة الشوق إلى لقاء الله أنها تُزهِّد في الدنيا، وتهوّن كدرها ومصائبها، وتعظم أمر الآخرة في مقابل هذه الدنيا. وهذه القيم التربوية الأساسية لايتصور تربية إسلامية دون تحصيلها.

ج ـ الخوف من الله تعالى:

لا يوجد تناقض بين حب الله والخوف منه، بل إن الخوف من مقتضيات المحبة، واجتماعهما هو الكمال، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[السجدة: ٦].

ولأهمية ارتباط المحبة بالخوف من الله، «كره من كره من أهل المعرفة والعلم مجالسة أقوام يكثرون الكلام في المحبة بلا خشية»[1]. وهذا يؤكد لنا أن في الفكر التربوي الإسلامي معاني دقيقة ، وقد يظن من لم يدركها أن هناك تناقضاً بينها ، ولكنها شأن أي تربية تعالج النفس البشرية المعقدة ، لايمكن افتراض أنها ستكون على وتيرة واحدة، أو أن هناك علاجاً واحداً لتهذيبها والسمو بها ، وهذا أحد مزالق الفكر التربوي التي ضل بسببها بعض الطوائف.

وكلما زاد علم المرء بربه زادت خشيته وخوفه منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر: ٢٨] والمقصود بهم: العلماء بالله وبأيامه

---

(١) انظر: ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبدالحليم (٧٢٨هـ)، العبودية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط الخامسة، ١٣٩٩هـ، ١٢٧.

وأفعاله![1] والخشية أخص من الخوف، وهي خاصة بالعلماء، لأن الخشية خوف مقرون بمعرفة![2] وقيل إن خوف العلماء هو ماذكر في قوله تعالى[3]: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[آل عمران: ٣٠]، لأن خوف العلماء من الله تعالى سببه ماعرفوه من صفاته وأسمائه عز وجل، والعلم بها يثمر الهيبة والخوف منه.

ومن أهم ثمار الخوف نيل العبد رضوان الله تعالى[4]، قال عز وجل: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[البينة: ٨].

د ـ حب عباد الله وحب نفعهم:

وهذا ثمرة لحب الله، لأن المسلم اذا أحب الله بصدق أحب كل شيء يحبه الله، أو أمر بحبه، وهذا من الآثار العملية الهامة لحب الله، والتي ينتج عنها الإحسان إلى الخلق، وإعمار الأرض، ولايمكن تصور أن يحب انسان ربه تعالى، ثم لايبالي بدين الله وعباده الذين يحبهم، لذا فهذه الثمرة

---

(١) الغزالي، الإحياء، ٤ / ٢٠٧.

(٢) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ١ / ٤١١.

(٣) انظر: ابن قدامة المقدسي ، أحمد بن محمد بن عبدالرحمن (٧٤٢ هـ)، مختصر منهاج القاصدين، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٥، ص: ٣٣٦.

(٤) ومن ثمار الخوف منع صاحبه من الوقوع في ما نهى عنه الله تعالى، وهذا مقتضى الحب لله. لذا قيل: ليس الخائف من يبكي و يمسح عينيه، بل الخائف من يترك مايخاف أن يعاقب عليه. الغزالي، الإحياء، ٤ / ٢٠٦.

هي الثمرة العملية المحركة للانسان إيجاباً على وجـه الأرض .

أهمية المواضيع السابقة في التربية:

إن المواضيع السابقة لها أهمية بالغة في نجاح التربية، بل هي أسـاس كـل خير، فلو اجتمع لدى المرء الشوق والأنس مع الخوف من الله تعالى، وحب مايحبه الله فإنه قد جمع أصول الخير كلها، ولايتصور أن يسـعى لتربيـة نفـس وطلب رضاء الله من لم يتحقق بتلك المبادئ. وإن هذه المبادئ هي مفتـاح لمـا بعدها، وعلى هذا فينبغي أن يطلـع المربي على هذه المواضيع بتوسع وتمعـن، ويوصل ماينـاسب من حقائقها ومعانيها لمن يربيهم أو يعظهم كل بحسـب مرتبته وفهمه [1].

* * *

رابعاً ـ تحقيق القاعدة وتنزيلها

١ ـ إيقاظ القلوب من الغفلة:

إن السعي لنيل محبة الله تعالى لا يتصور حدوثه من قلب غافل ، فهذا

---

(١) من النافع أن يتوسع المربي في المواضيع الأربعة مماكتبه، الغـزالي في إحيائـه، وابـن القيم في مدارجه،أو ابن قدامة في مختصر منهـاج القاصـدين ، فكـلام أهـل التربيـة والتزكية لايخرج عما ذكروه ، وقد ذكر العلماء علامـات لمن يحب الله تعالى، أوردها الغزالي تحت عنوان: القول في علامات محبة العبد لله تعالى، انظـر: الإحيـاء، ٤ / ٤٣٤.

الطلب ثمرة لحياة القلب ويقظته، وكلما زادت يقظة القلب زاد طلبه لمحبة الله ورضاه، والعكس بالعكس أيضاً، قال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[التوبة: ٦٧].

إن هذا الإيقاظ هو أهم مايقوم به المربي والواعظ والوالد، فإن إيقاظ النفس من رقدتها هو بداية السير في طريق التزكية والتربية، وقد بدأ بهذه المنزلة الإمام الهروي رحمه الله في كتابه منازل السائرين[1]، لأن أول السير إلى الله تعالى اليقظة من الغفلة، كحال المسافر يبدأ سيره بعد يقظته من الرقاد.

وسائل إيقاظ القلوب من الغفلة:

إن إيقاظ القلوب له وسائل عديدة، ومن أهمها:

١ ـ تعريف الناس بربهم، ويتحقق ذلك بشرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، فإن المعاني التي تتضمنها أسماء الله الحسنى تحيي القلب الغافل وتدعوه لطلب محبة الله ورضوانه، فإن النفس لا تحب إلا بعد معرفة وإدراك، فمتى أدرك القلب والعقل كمال صفاته وحسن أسمائه عز وجل أحبه[2].

٢ ـ التذكير بنعم الله وبفضله وكرمه، ثم بفرحه تعالى بالتائبين، وحبه تعالى لمن يُحبه ولمن يسعى إليه، مع شكره تعالى ومجازاته الحسنة بعشرة أضعافها إلى سبعمئة ضعف، وإبداله تعالى لسيئات التائبين إلى حسنات، كرماً منه تعالى وترغيباً في أن يرجع إليه العبد.

---

(١) انظر: الهروي، منازل السائرين، ١١.

(٢) انظر الغزالي، الإحياء، ٤ / ٣٩٢.

٣ ـ التذكير بقوته وقدرته وجبروته عز وجل، والتحذير من شديد عقابه وأخذه لمن عصاه، وعظيم عذابه الأخروي.

٤ ـ الدعوة للنظر والتفكر في خلق النفس والسموات والأرض، وكذلك الحسن والإبداع في المخلوقات، من طائر في الهواء وحوت في الماء، فيرى فيها عجيب الخلق وإبداع الله في هذا الوجود، فيورث ذلك تعظيم الله وتوقيره، والخوف منه والرجاء فيه.

٥ ـ الدعوة لمحاسبة النفس، والنظر في تقصيرها في جانب صاحب النعم والفضل، وذي الجبروت والقوة عز وجل، فإن مشاهدة التفريط في جانب الله، وإدراك المرء لحقيقة التقصير في حقه عز وجل من الموقظات الكبرى.

٢ ـ طرق نيل محبة الله ورضوانه:

إن طرق نيل محبة الله عديدة، والقواعد التربوية الثلاث التالية، وهي: العبودية والإخلاص والاتباع، في حقيقتها وسائل لنيل محبة الله ورضوانه، وهذه بعض الأسباب التي ورد في الشرع أنها سبب في نيل محبة الله:

١ ـ حُب العبد لله تعالى، فإن العبد إذا صدق في حبه لله، فإن الله تعالى يحبه ، وهذا من فضل الله تعالى وكرمه، لذا قال بعض السلف: «ليس العجب من قوله ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، إنما العجب من قوله ﴿يُحِبُّهُمْ﴾[1]. فحب العبد لله

---

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (٧٥١ هـ)، الفوائد، تحقيق عبدالسلام =

يجلب حب الله للعبد، وفي الحديث: (أن الرسول ﷺ بعث رجلاً على سرية، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا، ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ: أخبروه أن الله يحبه)[1]. وجاء في الحديث الآخر: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه)[2].

٢ ـ اتباع النبي ﷺ، قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله آية المحنة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١][3].

٣ ـ التقرب بالطاعات الواجبة، وبالنوافل بعد الفرائض، قال الله عز وجل في الحديث القدسي: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ومايزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه)[4]، ومن ذلك الذكر الدائم لله تعالى، وعلى كل حال، فإن «نصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر»[5].

= شاهين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط ٤، ١٩٨٧م، ص: ٨٠.

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) ابن القيم، المدارج، ٣ / ٢١.

(٤) رواه البخاري.

(٥) ابن القيم، المدارج، ٣ / ١٦.

٤ـ التوبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢].

٥ ـ دعاء الله تعالى، وهو من أفضل السبل لنيل المحبة، ففي الحديث: (وأسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك)[١].

تفاوت درجات الناس في المحبة:

والناس متفاوتون في درجات المحبة قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

وهذه الآية دليل على إثبات التفاوت في حب الله بين الناس كل منهم حسب علمه ومعرفته[٢].

وقد وضح الإمام الجنيد [٣] (ت ٢٩٧ هـ) رحمه الله سبب التفاوت وأن مرده إلى الباعث، قال: «الناس في محبة الله عام وخاص، فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه، وكثرة نعمه، فلم يتمالكوا أن أرضوه، إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان، فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك، ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه

---

(١) رواه الترمذي عن معاذبن جبل رضي الله عنه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) انظر كلام الغزالي رحمه الله، الإحياء، ٤ / ٣٩٠ .

(٣) الامام الجنيد بن محمد البغدادي، من أئمة التربية والسلوك ، وتلميذ الإمام الحارث المحاسبي، وخاله السري السقطي ، وهو من العباد المشهورين . وشيخ الاسلام ابن تيمية يكثر من الثناء عليه ، انظر ترجمته لدى: الذهبي، السير ، ١٤ / ٦٧ .

الحسنى لم يمتنعوا أن أحبوه إذ استحق عندهم المحبة بذلك، لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم»[1].

نيل رضوان الله تعالى:

إن محبة الله هي الطريق لنيل رضوان الله، بأن تكون محاب العبد تابعة لمحبة الله تعالى[2]. ومما ينال به رضوان الله أن يلهج الإنسان بهذا الدعاء النبوي، قال رسول الله ﷺ: (من قال كل يوم: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة)[3]، ومعنى رضى العبد بالله رباً: «ألَّايتخذ رباً غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه»[4].

أهمية العلاقة الروحية الخاصة بين العبد وربه:

إن محور نيل رضوان الله ومحبته لايتصور تحقيقه ممن ليس له علاقة خاصة مع ربه، أي لايوجد بينه وبين ربه صلة . فبعض المسلمين علاقته بالله منحصرة في العبادات الجماعية التي يقوم بها، وقد تجده فيها غافلاً عن مقاصد تلك العبادات، فتصير فاقدة لحكمتها الكبرى، وتبعاً لذلك لن يكون لها أثر في حياة الإنسان وسلوكه .

---

(١) الغزالي، الإحياء، ٤ / ٤٤٦.

(٢) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ٢/ ١٥١.

(٣) رواه أحمد وابن ماجه.

(٤) ابن القيم، مدارج السالكين، ٢ / ١٥٠.

ومن لايجد في وحشة الليل وظلام الفتن أنساً في مناجاة الله، وفي الشكوى إليه، وبث الهموم له، وفي طلب معونته وتسديده، ومن لايجد حال سيره وتقلبه في شؤون الحياة مايدعوه لذكر الله، وسؤاله العون والسداد؛ أيضاً لايمكن أن يقال: أن بينه وبين ربه صلة وثيقة .

إن أكثر ما يميز الناس في الحقيقة هو تلك الصلة والعلاقة الخاصة مع الله تعالى، التي لايراها أو يشعر بها أحد .

وحين نهى النبي ﷺ الصحابة عن سب ذلك الرجل السكّير؛ قال لهم: (إنه يحب الله ورسوله !)[1] ، مع أن ظاهر حاله لا يشهد له بذلك، وهذا يخبرنا عن قيمة ومنزلة تلك العلاقة الخاصة بين العبد وربه .

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية على قصة البغيِّ التي سقت كلباً، قال : «فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغُفر لها ، وإلا فليس كل بغيٍّ سقت كلباً يغفر لها ، فالأعمال تتفاضل بتفاضل مافي القلوب من الإيمان والإجلال»[2].

لذا لا ينبغي أن يغفل المربي عن النصح والوعظ للناس في شأن هذه العلاقة والصلة بالله تعالى، فهي أعظم ما يربي عليه المربي ويعظ به الواعظ،

---

(١) رواه البخاري.

(٢) ابن تيمية؛ أحمد بن عبدالسلام، منهاج السنة النبوية، تحقيق محمد رشاد، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود ، ط١ ، ١٩٨٦ ، ٦ / ٢٢١ .

وهي أساس لكل الأعمال الصالحة .

٣ ـ السعي لتحقيق الاستقامة، وليس لنيل الكرامة:

الموضوع الثالث في تحقيق القاعدة يدور حول التنبيه إلى مدخل للنفس على القلب، يفسد صدق طلبه لحب الله ورضوانه، فإن الأصل في سعي المؤمن أنه يسعى للاستقامة ويطلبها، أما ما ينتج عنها من كرامات فإنها تابعة لها، وليست غاية الطلب والسعي، وقد صاغ شيخ الإسلام ابن تيمية هذا المعنى في قاعدة تربوية موجزة، قال: «كن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة، فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة!»[1]. فإن طالب الكرامة والشرف الدنيوي إنما أراد المثوبة الدنيوية في الحقيقة، حتى لو زيّنت له نفسه أنه لايطلب إلا رضاء الله، وأن تلك الكرامات هي ثمرة لها. وهذا الباب مما قد يُلبس به الشيطان على الصالحين، ويتصور طلب الكرامة الدنيوية العاجلة في جوانب كثيرة، مثل: الكرامات الحسية المشاهدة، أو الرزق الواسع، أو الحكمة والمعارف الربانية، أو المكانة الاجتماعية.

قال ابن تيمية: «من سمع مدح أهل المعرفة فاشتاق إلى كونه منهم لما في ذلك من الشرف، فإن هذا في الحقيقة إنما مراده تعظيم نفسه! وجعل المعرفة طريقاً إليها، وكذلك كل من أراد الله لأمر من الأمور، كما حُكي: أن أباحامد بلغه أن من أخلص لله أربعين يوماً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، قال: فأخلصتُ أربعين يوماً فلم يتفجر شيء؟! فذكرتُ ذلك

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١١/ ٣٢٠.

لبعض العارفين فقال لي: إنك إنما أخلصت للحكمة لم تخلص لله!. فإذا قصد أن يُخلص لله ليصير عالماً أو عارفاً أو حكيماً أو صاحب مكاشفات ونحو ذلك فهو هنا لم يرد الله، بل جعل الله وسيلة له إلى ذلك المطلوب الأدنى»[1].

الحياة الطيبة التي وعدها الله عباده في الدنيا:

إن عاجل الأجـر الذي وعد الله به المؤمن في الدنيا هو الحياة الطيبة، وهي ثمرة نـور الإيمان في قلب العبد، من انشراح في الصدر، ورضى بأقدار الله. وهذا لا علاقة لـه بالشرف الدنيوي والمكانة الاجتماعية أو كثرة المال والعيال، فالوعد براحة القلب، لا يستلـزم راحة الجسد، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧]. وفسرت بأنهـا السعـادة، والقناعـة، أو أنها: الرزق الحلال الطيب، واختار ابن كثير رحمه الله أنها تشمل ذلك كله [2].

وقد وجه المربي الأول ﷺ أبا بكـر وعمر رضي الله عنهما إلى هذا المعنى، عندما أشفقا عليه من خشونة فراشـه وذكرا له طيب فراش كسرى وقيصر، فقال ﷺ: (لا تقـولا هـذا، فإن فراش كسرى وقيصـر في النار، وإن فراشي وسريري هذا عاقبته إلى الجنة)[3] فنبههما إلى النظر في العاقبة .

* * *

---

(١) انظر: ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ٦ / ٦٦.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، نسخة الكترونية، سورة النحل: ٩٧.

(٣) رواه ابن حبان، وحسنـه المحقق. انظر: الهيثمي، نـور الديـن عـلي بن أبـي بكر =

خامساً ـ أثر غياب القاعدة

من أهم الآثار الناتجة عن غياب هذه القاعدة التربوية، هشاشة وضعف تربية من غابت عنه هذه الحقيقة ، وكثيراً مايتوقف مثل هذا عن مواصلة السير في طريق التربية والتزكية ، وينقل عن سفيان الثوري رحمه الله قوله: «إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول»[1]. وليس هناك أصل أعظم من هذا الأصل ، أي طلب رضاء الله تعالى .

وقد حذرنا الله تعالى من تعامله مع من ينساه ؛ قال عز وجل : ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[التوبة: ٦٧]. وقال الله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، وذكر المفسرون أن هذا النسيان من الله يقتضي أن يُترك العبد فلا يُهدى للصواب والحق، ونسيان النفس يقتضي ألَّاتعرف أين مصلحتها، وهذا لا علاقة له بالمظاهر الخارجية للتدين التي قد تتحلى بها هذه النفس، إذ الاعتبار بحال القلب وبهدايته وتوفيقه لا بظاهر الحال، مع عدم اغفالنا لأهمية مراعاة المظهر والهيئة الشرعية.

= (٨٠٧ هـ)، موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط وزميله، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م ، كتاب الزهد ، باب ماجاء في عيش السلف، ٢/ ١١٣٧.

(١) أبوطالب المكي؛ محمد بن علي بن عطية (٣٨٦ هـ) ، قوت القلوب في معاملة المحبوب ، ت د.محمد الرضواني ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠١م ، ٣ / ١٣٧١.

٢ـ التربية لأجل أغراض دنيوية ، وإن غلفت بأمور الآخرة:

إن من مثارات التربية الخفية لدى البعض؛ الرغبة في الاستكثار من الأنصار والتابعين ، أو الطمع في نصرتهم لمذهبه أو حزبه أو جماعته ، وهذا مما سجل ونقل لنا في غايات التربية الخفية لدى المذاهب والفرق عبر التاريخ . وإن المربي شعر أم لم يشعر قد يغرس في المتربين التحزب لمذهبه أو لأفكاره ، وقد يكون هناك نوع من الولاء والبراء بناء على هذه الأفكار ، مما يصرف المتربين بعيداً عن الغاية الكبرى للتربية ، وقد تزاحمها وتتغلب عليها أحياناً! إن التعصب للشيخ أو للمذهب أو للطائفة أو للجماعة هي من المؤثرات الخفية على التربية، ويمكن إدراكها من آثارها على المتربين، وإن لم يصرح بها المربي.

* * *

القاعدة الثانية

العبودية

أولاً ـ المراد بالقاعدة

العبودية من التعبد، وأصل التعبد في اللغة من التذلل، يقال: طريق معبدة أي مذللة، فالعبودية لله تعني التذلل لله تعالى، وتعريف العبادة اصطلاحاً هي: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة»[1].

فالعبودية مزيج من معنيين متلازمين ؛ هما : الذل والحب، فالعبادة المأمور بها تتضمن غاية الذل لله تعالى، مع غاية المحبة له، فإن العبد إذا خاف من أحد وخضع له وهو يكرهه، لا يعتبر عابداً له، وكذلك إذا أحبه دون أن يخضع له لا يعتبر عابداً له، فلا بد من اجتماعهما في الشخص لتكون عبادة، وهذا المعنى هو الذي يجتمع في علاقة المؤمن بربه تعالى، حيث يحب المؤمن ربه ويخضع له بالعبادة![2]

لذا فإن من أسرار العبودية تذلل العبد لله تعالى، وعبودية بدون ذل

---

(١) ابن تيمية، العبودية، ص: ٣٨ .

(٢) انظر، ابن تيمية، العبودية، ٤٤ .

وانكسار لله فاقدة لمعناها وروحها.

والمراد بالقاعدة أن العبادة بمفهومها الشامل والواسع هي الطريق لتزكية النفس، فإن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها[1]، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ويشمل ذلك عبادات الجوارح كالصلاة والذكر، وعبادات القلب، كحب الله والاعتصام به والتوكل عليه، وكذلك عبادات أعمال النفع المتعدي للغير، كإغاثة المكروب وإماطة الأذى عن الطريق، بل إن المباحات تتحول إلى عبادات إن نوى بها المسلم الخير، فعلى ذلك نجد أن حياة المسلم لا تنفك من عبادة، وإن اختلفت صورة تلك العبادة من حال لآخر، لذا فإن مجال العبودية في الإسلام يشمل الحياة كلها، وكيان المرء كله.[2]

وقد يتبادر للذهن هنا سؤال؛ لماذا لم تكن العبودية هي المقصد الشرعي الأسمى للتربية بدلاً من طلب محبة الله ورضاه الرضى، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وهذا الاستشكال متصور، ويجاب عنه بأن العبودية إذا لم تكن بقصد رضى الله فإنه لامكانة لها في التربية ولا أثر، ولهذا كانت العبادة مذمومة بقدر ما ينقص منها من الاحتساب أو

---

(١) ابن تيمية، العبودية، ٣٩.

(٢) انظر: د. يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١١، ١٩٨٣، ص: ٤٩ ومابعدها.

الإخلاص أو الاتباع، فبقي الأصل الذي لاينازع عليه ؛ طلب رضى الله تعالى .

الترابط بين هذه القواعد الثلاث:

وهذه القواعد الثلاث بينها ترابط وتكامل وثيق ، فإن من أهم شروط قبول العبادة ؛ الاتباع للشرع، والإخلاص لله تعالى، قال الفضيل بن عياض (١٨٧ هـ) رحمه الله [١]: «العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً». والخالص: ما كان لله تعالى، والصواب: ما كان على السنة[٢].

* * *

ثانياً ـ الأصل الشرعي للقاعدة

قال تعالى آمراً عباده بالعبادة، والاستدامة عليها وملء الحياة بها، مؤكداً أنها سبب خلقه لهم،: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال عز وجل: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[الحجر: ٩٩].

والعبودية اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه ، ونحن مأمورون

---

(١) الفضيل بن عياض التميمي الخراساني ، أبوعلي ، من الأئمة ، روى عنه ابن المبارك والشافعي ويحيى القطان وعبدالرحمن بن مهدي ، وهو من رجال الصحيحين ، توفي سنة (١٨٧ هـ) . انظر الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ٨ / ٤٢٢ .

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، ١/ ٧٣.

بالتعبد الدائم، وهذا المعنى لايمكن تحقيقه بالعبادات المحضة كالصلاة ، بل لابد من القيام بالعبودية بمفهومها الشامل ، فكل كلمة طيبة أو إماطة للأذى عبادة، والتبسم عبادة،لنحقق قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام: ١٦٢].

ومن الأدلة على أن من أعظم أبواب تزكية النفس باب العبادات المفروضة، ذكر الشارع لأثرها على النفس ، ومن ذلك قوله تعالى في شأن الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[التوبة: ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾[الليل: ١٧ - ١٨].

وفي شأن الصيام ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٨٣].

وفي شأن الصلاة: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾[المعارج: ١٩ - ٢٢].

وقد ذكرت الآية الكريمة استثناء المصلين مما يصيب البشر من آفات مثل؛ الشح والبخل، وهذا متى استداموا على الصلاة وأقاموها بالصفة الظاهرة والباطنة التي أمروا بها.

وقوله تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾[العنكبوت: ٤٥].

فالعبادات هي الوسائل الأهم في تزكية النفس، وما سوى ذلك تبع

لها، «والمراد بوسائل التزكـية هي الأعمال التي تؤثر تأثيراً مباشراً على النفس بأن تشفيها من مرض أو تخرجها من أسر أو تحققها بخلق، وقد يجتمع هذا كله في عمل، فأداء الصلاة مثلا يخرج الإنسان من التكبر على الله رب العـالمين، وفي الوقت نفسه تُنور الصلاة القلب فينعكس ذلك على النفس أن تترك الفحشاء والمنكر»[1].

* * *

ثالثاً ـ فقه القاعدة

١ ـ مفهوم العبودية وحقائقها:

مركزية موضوع العبودية في الفكر التربوي الإسلامي :

إن مفهوم العبوديـة هو الذي يبني التصور الصحيح للحياة في التصـور الإسلامي ، وهناك حقائـق هامـة متعلقـة بالعبودية لابد من فهمها ومن ثم تربية النفس عليها ، ومن أهمها:

الحقيقة الاولى ـ للعبودية مقاصد شرعت لأجلها:

إن العبادات قد شرعها الله لمقاصد عظيمة، ينبغي استحضارها حال أدائهـا ، فهـي سـر التشريع، وقـد أتى التصريح بهذه المقاصد في النصوص الشرعية، ومن أهم تلك المقاصد التقوى وذكر الله ، والتذلل والخضوع له ،

---

(١) سعيد حوى، المستخلص في تزكية الأنفس، دار السلام، مصر، ط الرابعة، ١٩٨٨م، ص٢٧.

قال عز وجل : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ٢١]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقال عز وجل : ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[طه: ١٤]، وهذه المقاصد لا تتحقق إلا بمراعاة حقيقة العبودية وآدابها ، قال الشاطبي: «مقصود العبادات الخضوع لله، والتوجه إليه والتذلل بين يديه والانقياد تحت حكمه وعمارة القلب بذكره»[١]. وهذا الموضوع من الأولويات لأن به تتحقق الثمرة المرجوة من العبادات[٢].

الحقيقة الثانية ـ العبادات رافد مهم للتزكية والتربية :

إن جميع العبادات في الفكر التربوي الإسلامي روافد للتربية والتزكية ، فالصلاة عبادة محضة لكنها رافد سلوكي وأخلاقي: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، بينما الزكاة عبادة من صنف الاحسان بالمال، أي أنها عبادة أخلاقية بالدرجة الاولى ، تزكي النفس وتربيها على العطاء للآخرين .

وإن سر الاستفادة من العبادات في تزكية النفس هو التحقق بالأمر الشرعي في كيفية القيام بها، فإن لكل عبادة هيئة ظاهرة وحالة قلبية أثناء

---

(١) الشاطبي، الموافقات، ٢/ ٢٢٩.

(٢) انظر في ذلك: أسرار العبادات التي يذكرها الغزالي في الإحياء، عند تناوله لكل عبادة، كالصلاة والصيام والحج.

القيام بها، والتباين بينهما هو ما حرم الناس الانتفاع من العبادات، فإن الصلاة بغير خشوع وإخبات لا تحقق مقصدها في الكف عن الفحشاء والمنكر، وهذا مشاهد في حال المسلمين، وكذلك الصوم بدون تقوى لا يتحقق معه حفظ اللسان من الغيبة ، ومثل ذلك في الحج، فكيف ينتفع المسلم في تربية نفسه بحج فيه كلام بالباطل وسباب وفجور أواستهزاء وسخرية بالناس، قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾[البقرة: ١٩٧].

إن التساؤل الدائم عن سر الانفصال بين الأخلاق ـ أو بين التقوى ـ وممارسة الشعائر الظاهرة تكمن إجابته في غياب معانيها الباطنة حال أدائها، يقول سعيد حوى رحمه الله: «العبادات الرئيسة في الإسلام منوّرة ومطهَّرة بقدر ما تلاحظ معانيها الباطنة، فهي تؤثر التأثير الكامل إذا كانت كاملة بحيث يرافق عمل الظاهر فيها عمل الباطن، كأن يرافق الصلاة الخشوع، والزكاة حسن النية، وتلاوة القرن حسن التدبر، والذكر الحضور»[1].

الحقيقة الثالثة ـ النية تحوّل المباحات والعادات إلى عبادات:

إن هذه الحقيقة محفزة للمسلم على استحضار النية والاحتساب في جميع أحواله ، وهذا هو تحقيق قوله تعالى : ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ ﴾. وقد قال رسول الله ﷺ في الحديث المشهور : (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)، وأرشدنا رسول الله ﷺ إلى الاحتساب في النفقة العادية:

---

(١) سعيد حوى، المستخلص، ٣١.

(إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة، وهو يحتسبها، كانت له صدقة)[1].

وقال معاذ بن جبل لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما ، شارحاً فقهه في الاحتساب : «أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»[2].

وقال النووي في شرحه لحديث: (وفي بضع أحدكم صدقة)[3]: «وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات»[4]. وهذا الفهم لأمر النية وتحويلها العادات واليوميات إلى طاعات وعبادات باب كبير من أبواب الأجر يوفق الله إليه من شاء من عباده .

٢ ـ تنوع وتعدد أوجه العبادة في الاسلام:

تتنوع العبادات في الإسلام مراعاة لتحقيق المقاصد الشرعية المتنوعة، فإن للشريعة مقاصد عديدة تتحقق بها مصلحة الفرد والمجتمع المسلم في الدارين، وتنوعت هذه العبادات لتحقيق تلك المصالح، ومن أسباب التنوع أيضاً مراعاة اختلاف معادن البشر وميولهم ، وسيتضح هذا عند حديثنا عن قاعدة الشمولية لاحقاً.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

(٤) الإمام النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (٦٧٦ هـ)، شرح صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١، ٧/ ٩٢.

ومن أهم وأظهر أنواع العبودية العبادات التي أمرنا الله بها، مثل الصلاة المفروضة والصيام والحج، وهذه هي العبادات التي يطلق عليها أعمال التعبد المحض، ولأجل ظهورها وشهرتها لن نفصل فيها، ولكن سنفصل في مواضيع متعلقة بها، مثل موضوع الإحسان وغيره مما سيأتي في ثنايا هذه القاعدة، أما بقية أنواع العبادات فمن أهمها:

أولاً ـ من أنواع العبودية: عبادات القلب

كما أن لكل جارحة من الجوارح الظاهرة نصيباً من العبادة، فإن للقلب نصيباً منها، بل إن عبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح، قال ﷺ في الحديث المشهور: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد)، والمقصود أن يكون القلب ، وهو ملك الأعضاء، قائماً بعبوديته لله سبحانه هو ورعيته، أي الجوارح، فمن أهمل وغفل عن هذه العبودية فقد عطل عبودية الملك، وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح[1].

والقلب في عبادة مولاه عز وجل ما دام مشغولاً بأمره تعالى، فمن شُغل قلبه بالذكر أو التسبيح والتهليل، أو اهتم بالتوبة والندم على مافات، أو امتلأ قلبه بالرجاء وألح بالدعاء، أو ساح قلبه متفكراً ومعظماً لقدر خالقه عز وجل، أو ارتجف قلبه خوفاً وإجلالاً وتوقيرا لله تعالى، أو طار حباً وشوقاً إلى الله، أو اهتم لأمر المسلمين، أو انشغل فكره في تفريج كربة مكروب، أو في نصرة دين الله ورفعته، فكل ما سبق وأمثالها من

---

(١) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ١/ ٩٦.

الفضائل هي من عبادات القلب .

أعمال القلب التعبدية على قسمين:

أ ـ أعمال قلبية أمرنا بها:

مثل: توحيد الله تعالى وحبه، وتعظيمه وتوقيره وإجلاله، والثقة والاعتصام به والتوكل عليه، والتسليم والرضا بقضائه، والخوف والرجاء منه، والتفكر في عظيم خلقه، والزهد بالدنيا، وحب المسلمين جميعاً، وحب الخير لهم، وحسن الظن بهم، والفرح لفرحهم والحزن لمصائبهم وآلامهم، وهذه الأعمال القلبية قد يبلغ بها المرء مكاناً لا يبلغه بعمله البدني!

ب ـ أعمال قلبية نهينا عنها، وأمرنا بتطهير القلب منها:

وهذه مثل : الرياء والشرك والنفاق، والقنوط واليأس من رحمة الله، والأمن من مكر الله، والحسد والحقد والغل والشماتة، والعجب والغرور والخيلاء، والكبر والبطر، والشماتة بالآخرين، وسوء الظن بهم [1].

ثانياً ـ من أنواع العبودية: التعبد بالأخلاق الحميدة:

إن للسلوك الاجتماعي الحسن منزلة عالية في الفكر التربوي الإسلامي، وهو مشتمل على فروع عديدة تدور حول حسن التعامل مع الآخرين وعلى مد يد العون لهم ، فالتشريع الإسلامي لم يحث على حسن الخلق، بل جعله

---

(١) تناولت كتب التربية والتزكية كل هذه المواضيع، مثل إحياء علوم الدين للغزالي، ومختصراته مثل؛ منهاج القاصدين لابن قدامة، وكذلك مدارج السالكين لابن القيم، ولابن تيمية كتابي: التحفة العراقية في أعمال القلوب، والعبودية.

من فروع العبادة ومن صورها الهامة التي يقاس بها إيمان الإنسان ، قال ﷺ : (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)[1]، وجعل الشرع حسن الخلق عبادة ينافس صاحبها أهل الصيام والقيام، قال ﷺ: (إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)[2]. وقال ﷺ: (ما من شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء)[3]. وقد سئل النبي عن أكثر مايدخل الجنة؟ فقال: (تقوى الله وحسن الخلق)[4]. وبين النبي مكانة صاحب الخلق الحسن منه يوم القيامة: (إن من أحبكم إليّ، و أقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً)[5]. والجزاء من جنس العمل، فحَسَنُ الخلقِ يجالس من مدحه ربه بأنه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾. وفي الحديث الذي يبين مكانة الأخلاق في الإسلام، قال رسول الله ﷺ: (السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة)[6].

---

(١) رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

(٢) رواه أبوداود، وصححه ابن حبان.

(٣) رواه الترمذي، وقال حسن صحيح، وصححه شعيب الأناؤوط، انظر: الإمام النووي، أبوزكريا يحيى بن شرف النووي (٦٧٦ هـ)، رياض الصالحين، تحقيق شعيب الأرناؤوط، نشر عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، ص: ٣٠٠.

(٤) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٥) رواه أحمد والترمذي، وقال حديث حسن، وصححه ابن حبان والألباني.

(٦) رواه أبوداود.

إن كل ما سبق يؤكد منزلة التعبد بالأخلاق الحسنة بين أنواع التعبد المختلفة ، وكيف أنها تقدم صاحبها على غيره في المنزلة والدرجة .

ثالثاً ـ من أنواع العبودية: التعبد بالذوقيات والجماليات:

ومن العبودية في الفكر التربوي الإسلامي؛ التعبد لله بالجماليات والذوقيات العامة في الهيئة الخارجية ومظهر الإنسان، فإن الله جميل يحب الجمال، وليس الجمال حكراً على اللباس، ففي كل شيء جمال، لذا تجد النصوص الشرعية الحاثة على مسلكيات متنوعة تتفق كلها بأن مقصدها الوحيد ؛ الرقي الانساني، والتخلق بصفة الجمال، قال تعالى: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، وقال رسول الله: (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)[1]، وحين رأى النبي رجلاً ثائر الرأس أمر بتغيير مظهره وقال: (أما يجد هذا مايسكِّن به شعره)[2]، وفي رواية أنه ﷺ كان بالمسجد فدخل عليه رجل ثائر الرأس واللحية ، فأمره بالخروج من المسجد، فلما أصلح من حاله رجع، فقال رسول الله ﷺ: (أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان!)[3]. وجاء في الحديث الآخر أمر عام بالاهتمام بالمظهر الخارجي ، قال ﷺ : (من كان له شعر فليكرمه)![4].

---

(١) رواه الترمذي، وحسنه .

(٢) رواه أبوداود والنسائي وصححه الألباني.

(٣) رواه مالك في الموطأ.

(٤) رواه أبوداود.

وهذا الباب واسع، ولو شئنا لقلنا إن الإسلام أكثر الديانات حثاً على العناية بالجماليات والذوقيات، في المأكل والملبس والكلام، بل وحتى في الحركات والسكنات .

وقد انتقد العلماء من يلغي كل النصوص السابقة لأجل نص واحد، ويرى أن الأصل مجافاة الجمال ، تمسكاً بحديث : (البذاذة من الايمان) أو بحديث : (اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم) ، فإن من يفعل ذلك لم يفقه روح هذا الدين، ولم يطلع على عشرات النصوص الحاثة على الجمال والذوق ، فالنبي ﷺ يوصي أمته بلبس البياض ، ومعلوم كم يلزم البياض من عناية للمحافظة على جماله وطهارة لونه من الأوساخ ، وكذلك يوصيهم ﷺ بالطيب ، ويخبرهم أنه حبب إليه من دنياهم الطيب ، ويوصيهم ﷺ كذلك ان يعطروا أفواههم بالسواك، ويوصيهم ألَّا يتجشؤوا في المجالس، ويحذرهم من أكل البصل والثوم عند الذهاب للمسجد، ويوصيهم بأن يتخذوا ثوباً خاصاً للصلاة وللمسجد،ولنتأمل أن هذا الرقي الذي جاء به الإسلام كان في عصر جاهلي، يقتل الناس بعضهم بعضاً لأتفه سبب، وتوأد البنات فيه وهن أحياء[٢].

---

(١) انظر تعليقات المباركفوري على حديث (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته) ، تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي ، كتاب الأدب .

(٢) من أفضل ما ألف في الموضوع كتاب الشيخ: صالح الشامي، التربية الجمالية في الإسلام، نشر المكتب الاسلامي. يستحق القراءة والتأمل فيما ذكره من جوانب جمالية في الشريعة، لا يليق بالمربي أن يغفل عنها حال تربيته للناس، ومثله كتابه =

وحين قدم عليه وفد ،وتأخر أحدهم ،وهو أشج عبدالقيس، حتى أصلح من حاله؛ ولبس ثوبين أبيضين كان قد أحضرهما معه من أحسن ثيابه، تجملاً لملاقاة رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: (إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة)[1].

رابعاً ـ من أنواع العبودية: التعبد بأعمال النفع المتعدي للغير:

يسلك منظرو المذاهب التربوية كل مسلك لحث الناس وترغيبهم على مبدأ الإحسان للآخرين، ولكن التشريع الإسلامي تجاوز ذلك إلى جعل الإحسان للآخرين فرعاً هاماً من العبادة .

إن التقرب إلى الله بأعمال النفع المتعدي للغير من فروع التعبد بالأخلاق الحسنة ، لإنه إما خير يدفعه إليهم أو شر يكفه عنهم، وهذا جوهر الخلق الحسن، والأصل فيه قول النبي ﷺ: (كل معروف صدقة)[2]، وقد جاءت أحاديث في الترغيب على نفع الناس منها، قول النبي ﷺ: (من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة، فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله)[3]، وقال ﷺ: (أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل

= الآخر: الظاهرة الجمالية في الإسلام، نشر المكتب الإسلامي أيضاً.

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

سرور يدخله على مسلم، أو يكشف عنه كربة، أو يقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحبّ إلي من أن أعتكف في هذا المسجد، يعني مسجد المدينة، شهراً)[1]. ومفهوم النفع المتعدي يشمل جميع أنواع الخير الذي يسببه المسلم للآخرين، من الإعانة بالنفس والمال، وحتى إماطة الأذى عن الطريق[2]. قال رسول الله ﷺ: (مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق، فقال: والله لأنحيَنَّ هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة)[3].

بل وإن النفع المتعدي في الشريعة يتجاوز الإنسان ليشمل البهائم، قال رسول الله ﷺ: (ما من مسلم غرس غرساً فأكل منه إنسان أو دابة، إلا كان له به صدقة)[4]. وفي الحديث الصحيح أن الله قد غفر لامرأة بغيٍّ من بني إسرائيل سقت كلباً![5].

خامساً ـ من أهم أنواع العبودية ؛ التعبد لله بإعمار الأرض:

إن من أنواع العبودية ؛ التعبد لله بإعمار الأرض وحسن الاستخلاف

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة، حديث: ٩٠٦.

(٢) للحافظ ابن أبي الدنيا رسالة اسمها، قضاء الحوائج، تحقيق مجدي إبراهيم، نشر مكتبة القرآن، القاهرة.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري.

(٥) أصل الحديث في البخاري ومسلم.

فيها، وإذا كانت عبادات النفع المتعدي في غالبها موجهة لشخص أو فئة محدودة، فإن إعمار الأرض وحسن الاستخلاف فيها نفعه أعم وأشمل في الغالب .

إن من فقه الفكر التربوي الإسلامي أن ندرك أهمية إعمار الأرض، وأثرها على جميع ماسبق من أعمال العبودية، لأنها العبادة التي تمكن المؤمنين في الأرض، وهذا يعود بالنفع على سائر عباداتهم .

ولعل عبادة إعمار الأرض من أهم الأفكار التي نُحّيت عن الفكر التربوي الإسلامي في أزمنة كثيرة، وعادة ما تكون هي أول مايهمش أو يتغافل عنه، ثم تليها في التهميش مباشرة العبادات المتعدية التي فيها نفع للآخرين ، ثم العبادات الجمالية والذوقية، هكذا بهذا الترتيب التقريبي، حتى لا يبقى إلا دائرة العبادات الفردية أو وسائل التزكية الروحية، مع تقشف وجفاف لاعلاقة له بروح الإسلام ولا بتعاليمه!

إن قوله ﷺ : (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألَّا تقوم حتى يغرسها فليغرسها)[1] قاعدة كبرى في عبودية إعمار الارض.

قال ﷺ: (ما من مسلم يغرس غرساً او يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)[2]، وفي رواية مسلم (ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة)، أي لايأخذ منه أحد إلا كان له صدقة .

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه البخاري.

وقال رسول الله: (رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق، كانت تؤذي المسلمين)[1].

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: ٦١]، قال ابن كثير: أي جعلكم عماراً، تعمرونها وتستغلونها[2]. ونقل القرطبي في تفسيره أن الاستعمار: طلب العمارة، والطلب المطلق من الله على الوجوب[3].

إن موضوع إعمار الأرض من المواضيع الأساسية في الفكر التربوي الإسلامي التي إذا لم يدرك أهميتها المربي أو الواعظ فإنه ولا شك سينحو في تربيته للناس منحى سلبياً وقاصراً[4].

ويدخل في عبودية إعمار الأرض؛ التعبد لله تعالى بحسن الاستخلاف في الأرض، فإن الله تعالى قد تعبدنا بذلك، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: ٣٠]، وقال تعالى مبيناً موجبات هذه العبودية: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾[ص: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد: ٧]،

---

(١) رواه مسلم.

(٢) ابن كثير، تفسير القران العظيم، هود، ٦١.

(٣) انظر: القرطبي، تفسير أحكام القرآن، هود، ٦١.

(٤) ينظر بحث الدكتور زياد خليل الدغامنة، إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي، مجلة إسلامية المعرفة، العدد ٥٤، السنة ٢٠٠٨، ص: ٢٣ ـ ٦٣.
نقلا من موقع جامعة أم القرى uqu. edu. sa.

والقيام بحق الاستخلاف بالأرض من العبوديات الهامة التي يطال خيرها عموم الأمة.[1]

* * *

رابعاً ـ تحقيق القاعدة وتنزيلها

١ ـ أفضل العبادات:

إن قدراً كبيراً من تحقيق قاعدة العبودية مرتبط بفهم موضوع: أفضل العبادات، لأننا إن علمنا ما هو أحب الأعمال إلى الله فإننا سنتمكن من تحقيق العبودية .

أصناف الناس في اختيار أفضل العبادات:

إن اختلاف الناس في أي الأعمال أفضل سببه الزاوية التي نظروا إلى العبادة منها، ولهم في ذلك أربعة أقوال:

١ ـ أفضل العبادات أشقها على النفوس.

٢ ـ أفضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا والتقلل منها.

٣ ـ أفضل العبادات: ما كان فيه نفع متعد، لأنه أفضل من العبادة التي نفعها مقصور على صاحبها، ففضلوا: خدمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم.

---

(١) انظر: الفصل الثالث من كتاب الوعي الحضاري، د. مسفر القحطاني ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط الاولى، ٢٠١٢.

٤ ـ أفضل العبادات: العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام أركان الصلاة كما في حالة الأمن ، والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل، والأفضل في أوقات السحر الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار، والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل الإقبال على تعليمه والاشتغال به .

وهذا الصنف هم الذين يطلبون رضى الله تعالى لا غير، فليس لهم غرض في تعبد مقيد، بل تعبدهم لله مطلق، أينما كانت مرضاة الله اتبعوها[1].

اختيار الفقهاء في أفضل العبادات:

إن القول الرابع هو الأصوب، فإن العبد لا يمكن أن يختار لنفسه من بين العبادات، مادام أن الله يحب عملاً أكثر من غيره في ذلك الوقت. وقد التقى جمع من السلف فيهم وهيب بن الورد وسفيان الثوري، وتحاوروا في أحب الأعمال إلى الله، فقال وهيب بن الورد ـ وكان آخرهم حديثاً ـ: «أنا لا أختار شيئاً، أحب ذلك إليَّ أحبه إلى الله». فقام سفيان الثوري وقبل بين عينيه وقال: «روحانية ورب الكعبة»[2].

---

(١) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ١ / ٨٥ ـ ٩٠ .

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، ٢/ ٢١٥.

وهذا من كمال طلب محبة الله ورضوانه تعالى، ألَّا يختار المؤمن من العبادات ما تسكن نفسه إليه، بل يختار ما يرى أنه أحب إلى الله، مهما كان هذا الأمر ثقيلاً على نفسه.

حال الصحابة مع التكاليف:

إن النظر لحال الصحابة مع التكاليف والأوامر الشرعية يُسهّل فهم موضوع أحب الأعمال إلى الله، فإنك ستجد الصحابة يرتحلون طلباً لما يحبه الله تعالى حتى لو خالف ما تميل إليه أنفسهم ، انظر لترك المهاجرين لديارهم نصرة للدين، ولخروج الأنصار عن أموالهم لأجل المهاجرين، ثم انظر لاستجابتهم لرسول الله في الخروج يوم تبوك رغم الحرّ الشديد، بل واستمع لبكاء من لم يقدر على الخروج، وانظر إلى حالهم يهرقون الخمر في شوارع المدينة حين حُرّمت، وانظر إلى تسابقهم لبذل ما عندهم من أموال حين أمرهم النبي ﷺ بالصدقة. وقد وصفهم الله تعالى لنا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[الفتح: ٢٩].

وقال تعالى عنهم: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[الفتح: ١٨].

إن لسان حال طالب رضى الله أنه: «لو قيل: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت، وأين كانت، جالبة ما جلبت، مقتضية ما اقتضت، فهذا هو العبد السالك إلى ربه، النافذ إليه حقيقة»(١).

---

(١) ابن القيم، طريق الهجرتين وباب السعادتين، تحقيق سيد إبراهيم صادق، دار =

٢ ـ طرق معرفة أحب الأعمال إلى الله:

هنـاك وسائل للتعرف على أحب الأعـمال إلى الله أو معايير للتفضيل بين الأعمال، وتظهر أهميتها عندما تتزاحم الأعمال ولابد للعبـد مـن اختيـار عمل يقدمه على غـيره .

وتظهر لنا أهمية هذا الموضـوع من مشاهدة تـردي حـال المسـلمين وهشاشـة مجتمعاتهم ، وعلاقة ذلك بإهمال المعيار الشرعي في اختيار أفضـل العبادات، أي أحب الأعمال إلى الله، فلو راعى المسلمون المعايير الشـرعية في ذلك، فلن تجد تلك المشاهـد المتناقضة والمؤلمـة في المجتمعـات الإسـلامية، مثل مشاهد مشهد الفقر والجهل والظلم والتشاحن.

أهم المعايير في التفضيل بين العبادات:

أ ـ المعيار الأول ـ النص الشرعي:

فإن أهم معيار للتفضيل بين العبـادات: النـص الشرعي، إذ لا شي يقدم على الشرع في معرفة أحب الأعمال إلى الله، ومثال ذلك الأحاديث الواردة في حق الوالدين، وتقديم التعبد لله ببرهم على ماسواه من عبادات، فليس لأحد أن يختار بعدها برأيه وهواه. ومن ذلك ماورد في فضل إصلاح ذات البين، وتقديمه على غيره من العبادات، قال ﷺ : (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى . قال : إصلاح ذات البين)[1].

= الحديث، القاهرة، ص: ٢٨٠. باختصار.

(١) رواه أبوداود.

ب ـ المعيار الثاني: مدى تحقيق العبادة للمقاصد الشرعية:

إن من المعايير الهامة التي يغفل الناس عنها معيار تحقيق العبادة للمقصد الشرعي، وذلك بربط تفضيل العبادة بمكانة ومرتبة المقصد الذي تحققه، فكلما كان المقصد الشرعي الذي تحققه أعلى كانت هذه العبادة أولى بالتقديم. يقول الشاطبي في ذلك: «إن العمل على المقاصد الأصلية يصيّر الطاعة أعظم، وإذا خولفت كانت معصيتها أعظم»[1]. فإن الشارع أنزل العبادات والتكاليف لمقاصد من ورائها، وهذه المقاصد متفاوتة المراتب، والمقاصد الأصلية هي أعلاها وكلما علا المقصد المحقق قُدّمت العبادة المحققة له، فالعبادة التي تحفظ الدين تقدم على العبادة التي تحفظ المال أو النفس، لذا كان الجهاد مقدماً مع مافيه من إزهاق للأنفس والأموال، وكذلك الدعوة وتعليم الناس الخير، مقدمة على نوافل العبادة، وهكذا.

ج ـ المعيار الثالث: النظر في النفع المتعدي من العبادة:

فإذا عدم النص الشرعي أو لم يتضح للمسلم مرتبة المقصد الشرعي من وراء العبادة ، فحينها يُنظر في النفع المتعدي من وراء العبادة، وهذا للأحاديث الواردة في تفضيل العبادات المتعدية، ومن ذلك ماجاء في

---

(١) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم، الموافقات في أصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، عناية: عبدالله دراز، ط الثانية، ١٩٧٥ م، ٢ / ٢٠٦. وفي تحقيق ذلك ينظر التفصيل في الكتب التي تناولت مراتب المقاصد، من حيث كونها ضرورية، فحاجية فتكميلية.

الحديث: (أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس)[1].

د ـ المعيار الرابع: مناسبته لحال العبد:

فإن العبد قد يفتح الله له في عبادة ما، فييسرها له، ويجد قلبه عندها، وهذا معيار معتبر في التفضيل، لكنه يأتي متأخراً في المرتبة عما قبله، ولهذا المعيار تعلق بقواعد أخرى في التربية، مثل قاعدة التدرج، وسيأتي بيان شيء من ذلك هناك، وفي ذلك يقول ابن تيمية: «وقد يكون بعض الناس انتفاعه بالذكر والدعاء أعظم من انتفاعه بالقراءة، فيكون أفضل بحقه»[2]. والقراءة: أي قراءة القرآن.

إن الترتيب السابق لمعايير التفضيل بين العبادات يكمن فيه إجابة عن سؤال هام، وهو: لماذا نجد مجتمعاً مسلماً قائماً بالعبادات الظاهرة، لكن تكثر فيهم الخصومات والمشاحنات؟ أو توجد فيه مظاهر للفقر الشديد أو الجهل؟ أو أنه مجتمع يفتقد للرقي والنظافة؟ والإجابة هي: أن تضييع المعايير الشرعية المعتبرة في المفاضلية بين العبادات هو الذي يجعل أهل المسجد الواحد لايتعاونون أو لايرحمون ضعيفهم أو لاتتوقف مشاحناتهم، لأنهم لم يراعوا قيمة تلك العبادات في ميزان الشرع.

اختيار أفضل العبادات يختلف باختلاف الأشخاص:

ومن تمام فقهنا لموضوع أفضل العبادات ملاحظتنا أن التفضيل

---

(١) صححه الألباني في الصحيحة، ٩٠٦.

(٢) ابن تيمية، الفتاوى، ١١ / ٦٦٠.

يختلف باختلاف أحوال الناس، فالعالم أفضل العبادات في حقه نشر العلم، وقد يأثم بتقصيره في ذلك، أما التاجر المسلم؛ فإن الصدقة والسماحة والتجاوز عن المعسرين هي من أفضل العبادات في حقه، لأنه أكثر الناس قدرة عليها، وهكذا، وقد نبه لذلك بشر بن الحارث الحافي رحمه الله (ت ٢٢٧ هـ)[١] حين قيل له : إن فلاناً الغني يصوم الدهر. فقال بشر: المسكين؛ ترك حاله ودخل في حال غيره، إنما حاله أن يطعم الجياع ويكسو العراة، ويواسي المحتاجين، فهذا أفضل له من صيام الدهر![٢].

٣ ـ من المعايير الخاطئة في التفضيل بين العبادات:

لقد سبق ذكر المعايير المعتبرة في التفضيل بين العبادات، وينبغي التنبيه إلى أن هناك معايير خاطئة في المفاضلة بين العبادات، لدى بعض الناس في ذلك، ومن أهم تلك المعايير الخاطئة:

أ ـ معيار الروحانية، أوحضور القلب وخشوعه:

إن هذا المعيار من أكثر المعايير استعمالاً عند فئة من المسلمين لما يلمسونه من أثر للعبادة في قلوبهم، وهو معيار قاصر ومضلل للعبد، لأن الروحانية

---

(١) بشر بن الحارث بن عبدالرحمن بن عطاء ، أبو نصر المروذي ،المشهور بالحافي ، قال الذهبي عنه : كان رأساً في الورع والإخلاص . وقد وصفوا رجاحة عقله بأنه لو قسم عقله على أهل بغداد صاروا جميعهم عقلاء . وقد أفرد ابن الجوزي مناقبه في كتاب ، توفي سنة ٢٢٧ هـ .

انظر : الذهبي ، السير ، ١٠ / ٤٦٩ .

(٢) المكي، قوت القلوب، ٣ / ١٤٠٢.

المتحصلة من العبادة المحضة قد تؤدي إلى تضييع واجبات أهم. وهـذا مـن أهم المعايير التي حرفت الفكر التربوي الإسلامي، بل وأوصلته إلى التناقض مع مقاصد الشارع في نفـع النـاس بعضـهم بعضـاً، وفي إعـمار هـذه الأرض وحسن الاستخلاف فيها قـال تعـالى ؛ ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

وهذه لو تأملناها لوجدناها من أعمال النفع المتعدي التي كثيراً ما تُضيّع عندما يكون معيار الروحانيات هو المقدَّم .

ب ـ معيار الكرامة والخوارق:

إن معيار الخـوارق والكرامـات والكشـف لا يصلح أيضاً للتفضيل بين العبادات، وسبب جعله معياراً للتفضيل، ارتباط البعض بالمحسوسات أو بعاجل الأجر الدنيوي أياً كان شكله ونوعـه، فكلما عظـم الخارق كانت العبادة التي أوصلت إليه أفضل عندهم، وليس على هذا أي دليل[1].

وكل هذا انحراف في الفكر التربوي ، ولايمكن أن يسوغ بأي مبرر .

ج ـ معيار صلاحيته للمربي:

قد يجد المربي أو الواعـظ في شيء من الأعمال زيادة إيمان ولذة قلبية، فيُريد أن يحمل جميع الناس على هذا العمل، لمـا وجـده مـن نفـع منـه، وهـذه المسلك لا يصح، لأن الناس مختلفون ومتفـاوتون في ذلـك، لـذا لا تصـح

---

(١) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١١ / ٣٩٨.

التجربة الشخصية معياراً عاماً للتفضيل والاختيار بين العبادات[1].

٤ ـ الإحسان أعلى مراتب أداء العبادة:

إن الإحسان هو أعلى المراتب في إتقان الأعمال، وإتقان العبادة يبدأ بمراعاة حضور القلب حال الأداء، والاهتمام بالكيفية، لأنها من أهم أسرار قبول الأعمال ، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[الملك: ٢]. فقد بين القرآن أن الاعتبار بأحسن العمل وليس بأكثره[2]. وقد عرّف النبي ﷺ الإحسان،قال: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك)[3]. فإن استحضار رؤية الله دافع إلى إتقانها والعناية بها، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[يونس: ٦١].

الإنشغال بالعدد والكم على حساب الكيف:

ومن أهم أسباب غياب الإحسان عن العبادات، انشغال العبد بأمر تكثير عدد العبادات على حساب كيفية أدائها ، فيكون همه عدد الركعات وعدد الآيات، وكم مرة استغفر، وكم مرة اعتمر، وكم درهماً أنفق ! ولا يلتفت إلى حضور القلب حال أداء هذه العبادات،أو موافقته لمقاصد الشارع حال أدائها ، ولا شك أن أدائها من الخير، لكن هناك ما هو

---

(١) انظر السابق، ١٠ / ٤٢٨.

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير، ٤ / ٣٩٧.

(٣) رواه البخاري.

خير منه، وهو الجمع بين حسن العبادة وكثرتها، فإن من يصوم التطوع ولا يحفظ جوارحه، أو يكثر عدد الركعات التي يركعها بالليل، ولا يراعي كيفية أدائها، قد غفل عن قول النبي ﷺ: (رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر)[1].

وقد تأمل الإمام ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) رحمه الله في كيفية أداء الناس للعبادة، قال: «تأملت على أكثر الناس عباداتهم فإذا هي عادات، فأما أهل اليقظة فعاداتهم عبادة حقيقية! فإن الغافل يقول سبحان الله عادة، والمتيقظ لا يزال فكره في عجائب المخلوقات أو في عظمة الخالق، فيحركه الفكر في ذلك فيقول: سبحان الله! وكذلك يتفكرون في قبائح ذنوب قد تقدمت، فيوجب ذلك الفكر وقلق القلب وندم النفس، فيثمر ذلك أن يقول قائلهم: استغفر الله، فهذا هو التسبيح والاستغفار.»[2].

وننبه أن ماذكرناه في هذه المسألة لا يعني ترك العمل، بل إن القيام بالعمل مع التقصير فيه خير من تركه، وهي قاعدة تربوية هامة ستأتي لاحقاً.

من أمثلة مراعاة الكيفية في أداء العبادات:

١ ـ في الحج أو العمرة، تجد عند المربي تأكيداً على أذكار العمرة وهيئتها مع نسيانه الوعظ بأهمية حضور القلب واستشعار عظمة الطواف ببيت الله

---

(١) النسائي في سننه، كتاب المساجد، باب في سجود القران.

(٢) ابن الجوزي، صيد لخاطر، ٤٩٣.

الحرام، واستحضار العزم على التوبة الصادقة مع سؤال الله القبول.

٢ ـ في الصلاة، كما أن للصلاة هيئة وسنناً ثابتة في الكيفية الظاهرة، فإن هناك كذلك أحاديث كثيرة تروي لنا حال النبي أثناء الصلاة، فقد كان لصدر النبي ﷺ أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وهو القائل ﷺ: (إن الرجل لينصرف ما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها)[١]. والمراد بذلك الإخلاص وحضور القلب وخشوعه، ومن ذلك ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت»[٢].

٣ ـ في الدعاء، قد يحضّ المربي على الالتزام بالألفاظ الواردة، وهيئات الدعاء من رفع اليدين، أوما يتعلق بالتماس أوقات الإجابة، وهذا كله حسن ومطلوب، لكن ينبغي أن نُفهم المتربين أن الدعاء ليس مجرد ألفاظ، بل هناك معان هامة وحالات قلبية مصاحبة له من الخوف والرجاء والتضرع هي من الأولويات المهمة في الدعاء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وقد اتفق أكثر المفسرين على أن المقصود بالذكر هنا الدعاء[٣]. وكذلك قوله تعالى مادحاً أنبياءه عليهم

---

(١) رواه أبو داود ح: (٧٩٦)، النسائي ح: (٦١٢).

(٢) هو من كلام ابن عباس، ولا أصل له مرفوعاً كما رجح الحافظ العراقي في تخريجه لأحاديث الاحياء.

(٣) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، سورة الأعراف، آية ٢٠٥.

السلام[1]: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠]. وقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[الأعراف: ٥٥]. وفُسّر الاعتداء بأنه التكلف في السجع، لأن حال الداعي ينبغي أن يكون حال تضرع وتذلل، وتكلف السجع لا يتناسب مع ذلك[2]. وقد كان لنبينا ﷺ حالة من الخشوع والخضوع حال الدعاء، حتى كان الصحابة يشفقون عليه ﷺ لشدة تضرعه ومناشدته ربه، وقد نبه النبي ﷺ أصحابه إلى مراعاة حال القلب حال الدعاء، فقال: (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه)[3]. ومن جميل الكلام في ذلك ماينقل عن رابعة العدوية رحمها الله قولها: استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار![4].

٤ ـ طلب الكمال عند الإحسان للآخرين، فقد حث النبي ﷺ على أن يتصدق المرء من أطايب الطعام واللباس، بل وجاء الأمر القرآني: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ وفسرت بأنه من طعامكم أو من أفضل ما تأكلون!

---

(١) ويقال: إن المقصود زكريا وامرأته وابنهما يحيى عليهم السلام، انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، نسخة الكترونية، سورة الأنبياء، ٩٠.

(٢) انظر الغزالي، الاحياء، ١/ ٤٣٠.

(٣) رواه الترمذي، وحسنه الألباني.

(٤) المكي، قوت القلوب، ٢ / ٥٢٧.

٥ ـ إتقان الأعمال الدنيوية: إن إعمار الأرض من العبادات المطلوبة، لذا فكل عمل يؤديه المرء في هذا الشان هو مطالب بالإحسان فيه ، قال ﷺ: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)[١] .

وهذا من كمال فقهنا لشمولية الفكر التربوي الاسلامي .

قاعدة ـ التفريط في الكيفية يجعل الفاضل مفضولاً:

وهذه القاعدة تابعة ومكملة لقاعدة الإحسان، فإن المرء إذا أتى بالفاضل من العبادة، لكن فرّط في كيفية أدائها، فإن الفاضل قد يصير مفضولاً، وهذا بسبب تضييع معنى ومبنى الفاضل والإخلال بشروطه، وفي ذلك يقول ابن تيمية رحمه الله: «وأصل رابع: وهو أن الرجل قد يأتى بالعمل الفاضل من غير قيام بشروطه ولا إخلاصه فيه فيكون بتفويت شرائطه دون من أتى بالمفضول المكمل»[٢]. وهذه قاعدة ذهبية في الاهتمام بكيفية أداء العبادات.

* * *

خامساً ـ أثر غياب القاعدة

إن من أهم الآثار الناتجة عن غياب هذه القاعدة عن الفكر التربوي الإسلامي :

---

(١) صححه الألباني في الصحيحه (١١١٣).

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١١/ ٤٠٠.

١ـ حصر العبودية في جانب واحد من العبادات:

وقد مر معنا سابقاً توضيح ذلك حين ذكر مفهوم أحـب الأعـمال إلى الله تعالى.

٢ـ الانتقائية في العبودية:

أي أن يختـار الإنسان ما تحبـه نفسه من العبادات، ويقدمها على مـا قدَّمه الشارع، فإن دأب بعض الناس اختيار ما تميل إليه طباعهم، ويغفلون عن المعيار والميزان الأهم، وهو: ماذا يحب الله من عبده في ذلك الوقت؟! وهـذا راجع لعدم اعتبار المعايير السابقة.

ولبشر بن الحارث الحافي رحمـه الله قصة مع رجل من العامة في هذا المعنى، «فإن رجلاً جاء يودع بشر بـن الحارث، وقال: قد عزمت على الحـج فتأمرنـي بشيء؟ فقال له: كم أعددت للنفقة؟ فقال: ألفي درهم. قال بشر: فأي شيء تبتغي بحجك تزهداً أو اشتياقاً إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله! قال: فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك؟ قال: نعم! قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس: مديون يقضي دينـه، وفقير يرم شعثـه، ومعيل يُغني عياله، ومربي يتيم يفرحه، وإن قوي قلبك تعطيها واحداً فافعل، فإن إدخالك السرور على قلب المسلم وإغاثة اللهفان وكشـف الضـر وإعانة الضعيف أفضل من مئة حجـة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك، وإلا فقل لنا ما في قلبك؟! فقال الرجل: يا أبا نصر سفري أقوى في

قلبي! فتبسم بشر رحمه الله»[1]. وقد تركها بشر موعظة لمن يقدم المفضول على الفاضل: ماذا في قلبك؟!

٣ ـ المنّ بالعبادة واستكثارها:

وهذا من أخطر الآثار؛ لذا كان المربون الأوائل يوصون بكثرة العبادة مع رؤية التقصير فيها، وقد حذرنا الله تعالى من ذلك: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦]. قال مجاهد: لا تستكثر عملك فتراه من نفسك، إنما عملك منة من الله عليك، إذ جعل الله لك سبيلاً إلى طاعته[2].

وهذا نتيجة غياب حقيقة من المستفيد من العبادة، وقد سبق تناولها.

٤ ـ غرور التديَن والتعبد:

وهذه من الآفات التي أصابت أهل الدين والتعبد في جميع العصور، وعصرنا هذا ليس استثناء منها ، فإن المرء قد يقارن حاله مع العبادات بحال عامة المسلمين المقصرين، فتصيبه لوثة في قلبه، وإعجاب بعمله، فيتعالى أو يستحقر عملهم وسعيهم إلى عمله وسعيه، وقد يخفي تلك الفوقية وذلك الاستكبار مع استقرارها في قلبه ورضاه بسكناها فيه، وقد يظهر من فلتات اللسان ما يعبر به عمَّا يشعر به تجاه بقية المسلمين.

وإذا كان المن والاستكثار بين العبد وربه، فإن غرور التدين يتعدى إلى الخلق، وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمن والاستكثار، وينبغي أن نفهم أن

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ٣/ ٤٠٩.

(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، النسخة الإلكترونية، تفسير سورة المدثر.

هذه اللوثة لاتصيب إلا من غفل عن سر العبودية وحقيقتها، لأنه لو فقه حقائق العبودية لطأطأ الرأس خجلاً من الله حين ترد على قلبه مثل هذه الخواطر.

٥ ـ الصورية في أداء العبادة:

والمقصود بذلك أداء العبادة بالكيفية الشرعيـة الظـاهرة، أي صـورتها الظاهرة مع التفريط في حقائقها الشرعيـة، ومـن ذلـك عدم مراعاة المقاصد التي شرعـت لأجلها، وقد سبق الكلام عنها في قاعدة الإحسـان، وسـتأتي مفصلة في قاعدة مراعاة الأولويات.

* * *

القاعدة الثالثة

الإخلاص

أولاً ـ المراد بالقاعدة

معنى الإخلاص: الإخلاص مأخوذ من خَلُص الشيء، إذا نُقّي من الشوائب، والشوائب هنا إرادة شيء من الدنيا بعمل الآخرة، وتخليصه أن يصُفى العمل لله وحده ويتخلّص من شائبة إرادة غير الله به.

أما تعريف الإخلاص لدى أهل التربية، فهو: «ألَّا تطلب على عملك شاهداً غير الله، ولا مجازياً سواه»[1]. وقالوا في تعريفه أيضاً: إن الإخلاص أعرف من أن يُعرّف، ومن أجلى آثاره على صاحبه: حُبه ألَّا يُعرف، وأدق من ذلك محبته ألَّا يُعرف بحبه للخفاء[2].

والمراد بالقاعدة أن تحقيق الإخلاص هو السبيل والطريق لقبول الأعمال، فهو أعظم الشروط للقبول.

* * *

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ٢/ ٩٥.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، ٢/ ٩٥.

ثانياً ـ الأصل الشرعي للقاعدة

من أدلة قاعدة الإخلاص:

قول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[الأعراف: ٢٩].

وقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[الزمر: ١١].

وقال رسول الله ﷺ في الحديث المشهور: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)(١).

وجاء في الحديث القدسي، قال الله تعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)(٢).

* * *

ثالثاً ـ من فقه القاعدة

١ ـ كمال الإخلاص عزيز:

الإخلاص لله تعالى عظيم الشأن، فهو روح العمل، ومن روائع الوصف لحال الإخلاص مع العمل ماذكره ابن عطاء الله السكندري

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(ت ٧٠٩هـ) رحمه الله في حكمه، قال: «الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سرّ الإخلاص فيها»[١].

وقد تطرق لموضوع الإخلاص كل من تكلم في التربية، لذا سنتناول موضوعاً دقيقاً يتعلق بمدى إمكانية تحقيق الكمال في شأن الإخلاص، لأن هذا المطلب المثالي، رغم أهميته، قد يكون له تبعات سلبية على صاحبه، لذا وجب التوقف عنده. وبداية نقرر أنه اتفق كل من تكلم في شان الإخلاص أن كماله عزيز! حتى قال أحدهم: «أعز شيء في الدنيا هو الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر»[٢]. وهذا لأن النفس متعلقة بحظوظ الدنيا، ومن حظوظ الدنيا الحصول على شيء منها بعمل الآخرة، لذا فإن ثقل الإخلاص على النفس سببه أنه لا حظ ولا نصيب لها مع حضور الإخلاص [٣].

لكن يتفاوت الناس في ذلك بين مُقلّ ومكثر، وبين غافل مهمل لأمر الإخلاص ويقظ حذر يحاسب نفسه ويصلح نيته. وقد بين الإمام الغزالي رحمه الله هذه المسألة بياناً شافياً، وأن هذا النصيب من حظوظ النفس يصعب مداومة الانفكاك عنه، قال: «يجوز أن يقال أيضاً: منصب الشهادة

---

(١) ابن عطاء الله السكندري (٧٠٩ هـ)، الحكم العطائية، إعداد ودراسة محمد عبد المقصود، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٨٨ م، ص: ٤٧. وملحق مع الحكم شرح ابن عباد النفري الرندي (٧٩٢ هـ).

(٢) من كلام يوسف بن الحسين رحمه الله، انظر: القشيري، الرسالة القشيرية، ٢١٠.

(٣) انظر: القشيري، الرسالة القشيرية، ٢٠٩.

لا ينال إلا بالإخلاص في الغزو، وبعيد أن يقال: من كانت له داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرد الغزو، وإن لم يكن غنيمة، وقدر على غزو طائفتين من الكفار، إحداهما: غنية والأخرى فقيرة، فمال إلى جهة الأغنياء لإعلاء كلمة الله وللغنيمة، لاثواب له على غزوه البتة، ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك؟! فإن هذا حرج في الدين، ومدخل لليأس على المسلمين، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور، فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب، فأما أن يكون في إحباطه فلا..، والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه، وإن بالغ في الاحتياط!»[1]. فالنفس لاتنفك أبداً عن مجاهدة ومغالبة في شأن الإخلاص، وقد تغفل حيناً ثم يُدركها لطف الرحمن، فتستغفر وتجدد النية، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠١].

كثرة العمل تزيد من داعي الرياء:

إن المرء كلما زاد إنتاجه وعطاؤه، كثر خاطر الرياء على قلبه، وهذا كحال من يبيع ويشتري في السوق فإنه يُخشى عليه من الحلف الكذب ومن الوقوع في الغش أكثر ممن هو في خارج السوق، قال ابن تيمية مبيناً أمر كمال الإخلاص: «تمام الكمال في ذلك مع الرئاسة والدعوة أمر صعب، ولكن لاتترك الواجبات لهذا المحظور»[2]. وهذا مثل من يخالط الناس

---

(١) انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤/ ٣٨٦، وكلام الغزالي في الباب نفيس يستحق القراءة.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٢٨/ ١٦٨.

فيصبر على أذاهم، فمن يتصدر للناس قدوة ومعلماً أو يتحمل مسؤولية الوعظ، أو أمانة أعمال الإغاثة والإعانة للناس، فإنه يتعرض لفتنة الرياء أكثر من غيره، لكن لايُترك العمل لأجل ذلك كما لا يُترك الاختلاط بالناس خشية الوقوع في الغيبة .

إن هذه المعاني تحتاج إلى حكمة من المربي بأن يشجع من يربيهم على أعمال الخير الخفية والعلنية ، فإن الإخلاص هداية من الله وتوفيق، فلا ينبغي أن يدعونا التحوط لأجله أن نحجّر واسعاً في الأعمال العلنية، فينقلب حالنا إلى الوسوسة والحذر المبالغ فيه.

حب الجاه والشهرة من فطرة بني آدم:

إن المرء قد يعمل شيئاً من أعمال الآخرة وباعثه نيل الجاه أوالشهرة أو الرئاسة، فإن حبها من فطرة ابن آدم إلا من رحم الله، ويرى الإمام الغزالي أنه لولا حب الظهور والرئاسة لما ظهرت بعض العلوم والمؤلفات، قال الغزالي: «حب الرئاسة لا يترك العلوم تندرس، بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التي فيها القبول والرئاسة لأفلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها»[1]. وإنما علاج ذلك المجاهدة وسؤال الله الإخلاص، ومداومة الاستغفار من أي غفلة وزلل.

ولقد ضرب لنا النبي ﷺ مثلاً، لندرك خطورة طلب الرئاسة والشرف على الدين، قال رسول الله ﷺ: (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ٣ / ٤١٨.

من حرص المرء على المال والشرف لدينه)[1].

٢ ـ فقه الاحتساب في جميع الأعمال:

لا يمكن أن يتناول موضوع الإخلاص دون التطرق إلى موضوع الاحتساب، فإذا كان الإخلاص ملتصقاً بالأعمال العبادية المحضة، فإن الاحتساب أكثر التصاقاً بالمباحات والعاديات التي هي من جملة إعمار الأرض التي أمرنا الله بها.

إن لمقام الاحتساب في التربية منزلة عظيمة ، وهو سهل إن اعتادته النفس ، فينام المسلم ويصحو وهو ينوي بحياته كلها رضاء الله تعالى، فهو محتسب في إطعامه لأهل بيته، وفي عمله ووظيفته، وفي حسن خلقه وتبسمه للناس ، وفي تمعر وجهه للظلم يراه على الضعفاء، ويحتسب في مساعدة المسكين وإرشاد الضال، بل يحتسب في إجمام نفسه وإراحتها حتى يستمر في عبادته لربه ، ومما ذكره النبي ﷺ في شأن الاحتساب، قوله: (إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة) وذكر في أولهم: (صانعه يحتسب في صنعته الخير)[2].

أهمية نشر الوعي بالاحتساب والتربية عليه:

إن الخلل الذي أصاب الفكر التربوي الإسلامي يظهر في تضخيم جانب الإخلاص في العبادات في مقابل إهمال جانب الاحتساب والإخلاص

---

(١) رواه الترمذي، وقال حسن صحيح، وصححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح.

(٢) رواه الترمذي.

لوجه الله في الأعمال الدنيوية التي فيها نفع متعدٍ للناس، أو قصر النفع المتعدي على صور محددة مثل إماطة الاذى عن الطريق أو إغاثة الملهوف، وإهمال عشرات الأعمال التي يتجلى فيها شأن الاحتساب.

إننا بحاجة إلى توجيه قدر كبير من الوعظ العام والخاص في اتجاه فقه الاحتساب في كل عمل فيه نفع متعد للناس أو إعمار للأرض، إننا لو نشرنا مثل هذا الوعي بشأن الاحتساب فسنجد أثر التربية الإسلامية على أحوال المسلمين ظاهرة وعظيمة، ولو انتشر الاحتساب بمعناه الصحيح فلن تجد ذلك التناقض المرير لدى المسلمين، فمن يترك وظيفته ويهمل ذوي الحاجات من الناس بدعوى التبكير للصلاة، لم يفقه الاحتساب في أداء العمل، ولم يدرك حث الشرع وترغيبه في خدمة الناس وقضاء حوائجهم، وهي هنا أبلغ ما يكون لأنها من إعطائهم لحقوقهم! وكم ستنهض هذه الأمة وستقوى لو قام كل فرد من المسلمين بعمله؟! إن التهاون في هذه المعاني هو مما أصاب المسلمين بالوهن والضعف، ومن أهداف التربية الإسلامية الكبرى تقوية الأمة والمجتمعات بواسطة مساهمة كل فرد بما يحسنه، والاحتساب من أنجع الوسائل المحفزة للمسلمين.

٣ـ بركات الإخلاص:

إن للإخلاص بركات على صاحبه، ومن أهمها:

أ ـ الثبات على الاستقامة:

إن الثبات على الاستقامة هو أعظم بركات الإخلاص، لأن الله يتولى

المخلص ويثبته ويرعاه، حتى لو قل عمله. وهذا مصداق ما وعد الله به عباده المؤمنين في كتابه الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩].

ب ـ الإخلاص يهوّن مشقة التكاليف الشرعية :

ومن بركات الإخلاص، تهوينه مشقة التكاليف، فكلما أخلص العبد لله، هانت عليه كل التكاليف الشرعية، لذا قالوا: «إنما يجد المشقة فى ترك المألوفات والعوائد من تركها لغير الله! فأما من تركها صادقاً مخلصاً من قلبه لله فإنه لا يجد فى تركها مشقة، إلا في أول وهلة ليُمتحن أصادق هو فى تركها أم كاذب؟ فإن صبر على تلك المشقة قليلاً استحالت لذة، قال ابن سيرين: سمعت شريحاً يحلف بالله ما ترك عبد لله شيئاً فوجد فقده»[1].

ج ـ الإخلاص دواء للقلوب من الأمراض:

قال النبي ﷺ: (ثلاثة لا يُغَل عليهن قلب مؤمن: إخلاص العمل لله..)[2]. وقد ذكر شراح الحديث أنه لايجتمع مع الإخلاص غلّ في القلب، فلا يحمل الغل قلب أخلص لله تعالى. وهذا يؤكد المعنى الذي ذكره ابن أسباط في حال العارفين أنهم لا يضاربون ولا يعاتبون .

د ـ ومن بركات الإخلاص أن صاحبه يسبق غيره:

لأنه تضاعف حسناته، وقد ذكر بعض العلماء أن مضاعفة الحسنات

---

(١) ابن القيم، الفوائد ، ١٨٩.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

إلى سبعمئة ضعف تعود إلى درجة الإخلاص لدى العبد، ويؤيد ذلك ماذكر من أن تفضيل أبي بكر على سائر الصحابة سببه أمر وقر في قلبه، قال ابن القيم: «فما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل، وقد كان فيهم من هو أكثر منه صلاة وحجاً وقراءة وصلاة منه، ولكن بأمر آخر قام بقلبه!»[1]. وقد فسّر ذلك بحبه لله تعالى والنصيحة له[2].

هـ ـ انجذاب القلوب للمخلص:

لا بد أن يستيقن المسلم أن التفات القلوب إليه إنما هو بأمر الله وتوفيقه، فالله هو مالك القلوب والمتصرف فيها سبحانه وتعالى، ولاحيلة إلى القبول عند الخلق إلا من هذا الطريق. قال ابن الجوزي: «من ضرورة الإخلاص ألّايقصد التفات القلوب إليه، فذاك يحصل لابقصده، بل بكراهته لذلك، وليعلم الإنسان أن أعماله كلها يعلمها الخلق جملة، وإن لم يطّلعوا عليها، فالقلوب تشهد للصالح بالصلاح، وإن لم يُشاهد منه ذلك، فأما من يقصد رؤية الخلق بعمله فقد مضى العمل ضائعاً، لأنه غير مقبول عند الخالق ولا عند الخلق، لأن قلوبهم قد التفتت عنه، فقد ضاع العمل وذهب العمر!»[3].

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ١/ ٤٣٧.

(٢) انظر: أبو نصر السراج، عبدالله بن علي (٣٧٨ هـ)، اللمع، تحقيق عبدالحليم محمود، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ٢٠٠٢، ص ١٧١.

(٣) ابن الجوزي، صيد الخاطر، ٤٤٦.

٤ـ التقي الخفي:

إن المراد بإخفاء الأعمال الصالحة: أن يحرص المرء على ألَّا يعلم بعمله إلا الله تعالى ، ما أمكنه ذلـك، ويشمل ذلك أعمال السر والعلن. وحب إخفاء الأعمال من علامات الإخلاص ، وهو من وسائـل نيـل محبـة الله، فقد قال النبي ﷺ: (إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي)[١]، والمراد بالخفي أي الذي لا يُعرف بين الناس أو يشتهر بفعل الخير.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (من استطاع منكم أن يكون له خبء من عمل صالح فليفعل)[٢].

وجاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، رجلان كان الوصف الملازم لعملهما الخفاء وهما: رجل تصدق بصدقة حتى لم تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.

وقـد كـان للسلف الصالح هـدي جميـل في إخفاء الأعمال الصالحة، حتى أحبوا أن تكون للرجل خبيئة عمل بينه وبين الله تعالى لاتعلم بها حتى زوجته !

ويمكن القول إنه كلما زادت أعمال السريرة عن أعمال الظاهر، سـواء أعمال الجوارح أو القلوب، كان هذا علامة وأمارة على الإخلاص لله تعالى، والله تعالى أعلم بقلوب عباده .

---

(١) رواه مسلم.

(٢) حديث صحيح، السلسلة الصحيحة، ٥/ ٣٩٨.

الصحابة يتجنبون الحديث عن أعمالهم الصالحة مع النبي:

وقد كره الصحابة رضوان الله عليهم التحدث بالأعمال التي كانت مع النبي ﷺ، رغبة في منزلة الإسرار بالعمل، وخوفاً أن يشوب العمل شيء ينقص منه، ومن تحدث منهم ندم رضي الله عنهم، ومن ذلك ما رواه أبو بُردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدمي وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب على أرجلنا الخرق، قال أبو بردة: فحدث أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذلك، وقال: ما كنت أصنع بأن أذكره؟! قال: كأنه كره أن يكون شيئاً من عمله أفشاه»[1].

إخفاء الأعمال يشمل الأعمال القلبية:

إن فقه السلف للإخلاص وترك الشهرة لم يكن مقصوراً على جانب الأعمال الظاهرة فقط، بل كانوا يخفون الأعمال القلبية، كالزهد، فلذلك كانوا يلبسون ما لا يشتهرون به بالزهد، وقد وصف حالهم لنا بأنهم: «قد كانوا يؤثرون البذاذة إلى حد، وربما لبسوا خُلقان الثياب في بيوتهم، فإذا خرجوا تجملوا ولبسوا ما لا يشتهرون به من الدون ولا من الأعلى».[2] وقد

---

(١) متفق عليه.

(٢) ابن الجوزي، أبوالفرج عبد الرحمن بن علي البغدادي (٥٩٧)، تلبيس إبليس، دار الكتب العلمية، لبنان، ط٢، ١٩٨٧م، ٢٢٧.

وصف أحد أصحاب الإمام أحمد بن حنبل حال أحمد في إخفائه لزهده، فقال: كان أحمد إذا رأيته تعلم أنه لا يُظهر الزهد، رأيت عليه نعلاً لا يشبه نعال القراء..، ورأيت عليه إزاراً وجبة برد مخطط[1]. أي: لم يكن يرتدي زي العلماء أوالزهاد.

٥ ـ بركات إخفاء الأعمال:

إن لإخفاء الأعمال بركات عديدة، ومن أعظمها مايأتي:

أ ـ مضاعفة الحسنات:

إن أول بركات إخفاء الأعمال مضاعفة الحسنات، لذا لايزال الشيطان بالمرء حى يجعله يتحدث عن عمله، وقد روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً، قال: «إن الاتقاء على العمل أشد من العمل، إن الرجل ليعمل العمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفاً، فلا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ويعلنه، فيكتب علانية ويُمحى تضعيف أجره، ثم لا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس الثانية ويحُب أن يُذكر به ويُحمد عليه، فيُمحى من العلانية ويكتب رياء، فاتقى الله امرؤ صان دينه عن الدنيا»، وفي رواية: «وصان دينه فإن الرياء شرك»[2]. وهذه

---

(١) الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط السادسة، ١٩٨٩م، ١١/ ٢٠٧.

(٢) رواه البيهقي في شعب الايمان، ح: ٦٣٦٥، ولا يصح مرفوعاً إلى النبي ﷺ، قال المنذري: قال البيهقي: هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين، وعلق المنذري =

المضاعفة للحسنات تشبه ما سبق ذكره في بركة الإخلاص في العمل، لكن هنا الحال أخص، إذ يجتمع الإخلاص مع إخفاء الأعمال.

ب ـ العبير الطيب :

إن من بركات إخفاء الأعمال أن يفوح منها عبير طيب، مهما حاول صاحبها إخفاء عمله ! فيتعجب الناس من مشاعر محبة وتقدير وإجلال تُلقى في قلوبهم تجاه رجل صالح، لكن لا يعلمون من أين تأتيهم؟ وقد بين لنا الإمام ابن الجوزي حقيقة الأمر ، قال: «إن للخلوة تأثيرات تَبين في الجلوة، كم من مؤمن بالله عز وجل يحترمه عند الخلوات فيترك ما يشتهي حذراً من عقابه أو رجاء ثوابه أو إجلالاً له، فيكون بذلك الفعل كأنه طرح عوداً هندياً على مجمر، فيفوح طيبه فيستنشقه الخلائق ولا يدرون أين هو؟! وعلى قدر المجاهدة في ترك ما يهوى تقوى محبته، أو على مقدار زيادة دفع ذلك المحبوب المتروك يزيد الطيب! ويتفاوت تفاوت العود، فترى عيون الخلق تعظم هذا الشخص وألسنتهم تمدحه ولا يعرفون لم؟! ولا يقدرون على وصفه لبعدهم عن حقيقة معرفته، وقد تمتد هذه الأراييح بعد الموت على قدرها، فمنهم من يذكر بالخير مدة مديدة ثم يُنسى، ومنهم من يُذكر مئة سنة ثم يخفى ذكره وقبره، ومنهم أعلام يبقى ذكرها أبداً!»[1].

= قال: أظنه موقوفاً. انظر: الترغيب والترهيب، ١ / ٧٣، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب، ويروى قريباً منه من كلام سفيان الثوري.

(١) ابن الجوزي، أبوالفرج عبدالرحمن بن علي (٥٩٧)، صيد الخاطر، تحقيق عبدالقادر عطا، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر صيد الخاطر، ٢٠٢.

وقد أدرك هذه الحقيقة ابن المبارك فقال عن الإمام مالك بن أنس رحمهما الله: «ما رأيت رجلاً ارتفع مثل مالك بن أنس ليس له كثير صلاة ولا صيام إلا أن تكون له سريرة»[1]. أي أن له سريرة عمل ونية صالحة.

٦ـ فقه إظهار الأعمال الصالحة وإخفائها :

عمل العلن مطلوب شرعاً، مثل عمل السر:

إن مما ينبغي التأكيد عليه، أن الله امتدح عمل السر وكذلك امتدح عمل العلن، قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢٧١][2]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[البقرة ٢٧٤]. فلا يصح أن يجعل عمل العلن من الموبقات أو المنقصات للثواب والأجر بإطلاق، فإن من الوظائف مالا يمكن القيام بها إلا في العلن ، كالتعليم والوعظ والقيام على المؤسسات الخيرية ، وهؤلاء لابد وأن يوجد منهم من يُفتن ويُبتلى في أمر النية، لكن لا يصح أن يقال لكل من يُخشى عليه من فتنة عمل

---

(١) أبو نعيم، أحمد بن عبدالله الأصفهاني (٤٣٠ هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٨ م، ٦/ ٣٣٠. وقد علق على كلامه الذهبي، قال: ما كان عليه من العلم ونشره أفضل من نوافل الصوم والصلاة لمن أراد به الله. انظر: محمد عقيل موسى، نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، دار الأندلس، جدة، ط ١، ١٩٩١م، ٢ / ٦٢٢.

(٢) انظر: المحاسبي، الحارث بن أسد (٢٤٣هـ) ، الرعاية لحقوق الله ، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٣٦٦.

العلن: أُترك عملك الذي أنت عليه! ولكن يوعظ في أمر الإخلاص، ولا يُنصح بترك الأعمال الظاهرة التي لا بد منها [1].

الرياء حتى في الأعمال الخفية:

قد يتبادر للذهن الاقتران بين العمل في العلن والرياء، والاقتران بين العمل في السر والإخلاص، وهذا الاقتران غير صحيح بإطلاقه، لكن من المسلّم به أن مجاهدة النفس على الإخلاص في عمل العلن أعظم منه في عمل السر؛ والحقيقة أن كل الأعمال في العلن والخفاء يلزمها إخلاص! لذا لن يكون في منجاة من الرياء إن هو قلّل من الأعمال الصالحة الظاهرة، كما لن يكون كذلك إن هو أكثر منها، «فإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر البتة، وهو غير خالص لله، ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقاً، وهو خالص لوجه الله»[2]. وإن سلم من الرياء قد لايسلم من العجب بعمله، فليس في ترك العمل العلني نجاة مطلقاً.

من الأعمال مالا يمكن إخفاؤه:

إن إخفاء الأعمال إنما يتصور فيما يمكن إخفاؤه منها، أما ما كان الأصل فيه العلن والظهور، كشعائر الإسلام الظاهرة؛ الصلوات الخمس

---

(١) رأي الإمام الغزالي أنه لا يُنصح الواعظ أو المعلم بترك منصبه ومكانه خشية الرياء، لأن تخليطه على نفسه ونفعه للناس جميعاً! فما دام الناس في حاجة لعلمه أو وعظه فتقدم المصلحة العامة على الخاصة، قال الغزالي في مثل هذا: «**فنجعله فداء القوم!**» انظر: الغزالي، الإحياء، ٣/ ٤١٨.

(٢) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ١/ ٤٣٩.

والصيام والحج،فالإخفاء فيه غير متصور ابتداء ، وهناك أعمال الخير العامة ، مثل القيام على المؤسسات الخيرية ، فهذه لايتصور أيضاً إخفاؤها لأنه لا بد من ظهور أهلها حتى يعرف الناس مع من يتعاملون، ومن الذي يأتمنونه على إيصال مساعداتهم للمسلمين . وكذلك ما يتعلق بتعليم العلم وتأليف الكتب، وينقل عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه تمنى في آخر عمره أمنية متعذرة التحقيق ، فقال: «وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ـ يعني كتبه ـ على ألَّا يُنسب إليّ منه شيء»[1]. وهذا شيء لا يمكن تحققه ، فلا بد من معرفة اسم مؤلف الكتاب ، وإلا فمن سيقرأ كتاباً مجهول المؤلف أو سيقبل فتوى من رجل منكر؟! وإنما قال الإمام الشافعي ذلك لشدة طلبه لتخليص العمل من الشوائب العارضة.

يستحسن للقدوة إظهار الأعمال :

هناك أعمال يستحسن إظهارها لمصلحة نشر الخير والحث عليه، ومثل ذلك الأعمال التي يكون الجهر أعلى مصلحة فيها من الإسرار، كمصلحة إظهار العمل للاقتداء، فإن الأعمال الخفية الصادرة من القدوة قد يستحب إعلانها ليقتدي به الناس، خاصة لمن استمكن قلبه من تلك الأعمال، فلم يعد يبالي بإخبار الناس بها ولا يشوش على قلبه ذلك. وهذا مثل قول بعض العباد: كابدنا القيام عشرين سنة، واستمتعنا به عشرين سنة.

بل إن هناك أعمالاً قلبية خفية أمر الشرع بإظهارها للمصلحة في ذلك،

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٠ / ٢٩.

ومن تلك الأعمال: إعلام الأخ لأخيه بمحبته له في الله، فقد أمر النبي ﷺ بذلك، وهذا الإظهار فيه مصلحة نشر المودة والمحبة، ويُقاس عليه الإخبار بأمر الدعاء له بظهر الغيب، أو التألم لألمه، والفرح لفرحه.

٧ ـ مغالبة وساوس الرياء [١]:

إن الوساوس بشأن الرياء من المداخل التي يدخل بها الشيطان على القالوب الضعيفة ، ولاتكاد تخلو النفس عند القُربات من وساوس الرياء وخطراته ، ولو ترك العبد العمل لأجل ذلك فإن الشيطان يظفر بأمنيته.

ومما يستعان به على مغالبة هذه الوساوس ، القاعدة التربوية **الحكيمة، وهي أن «عمل السر أفضل من العلانية، والعلانية أفضل من البطالة»** [٢].

وأهمية هذه القاعدة ؛ تقوية قلب المسلم أمام الخواطر الشيطانية التي تدخل عليه من باب الحذر من الرياء ، فإنه مهما يكن من شأن الوساوس الواردة على الأعمال ، فإن القيام بها أفضل من تركها !

وقد ختم الإمام الغزالي باب الإخلاص في الإحياء بهذا التنبيه، قال: «ومع هذا فلا ينبغي أن يُترك العمل عند خوف الآفة والرياء، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه، إذ المقصود ألَّا يُفوّت الإخلاص، ومهما ترك

---

(١) سيأتي في قاعدة التحفيز؛ بيان قاعدة : لا يترك العمل الصالح لأجل عيب أو نقص يطرأ عليه.

(٢) انظر : المحاسبي، الرعاية، ٢٦٦.

العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً!»[1].

وممن فاته هـذا المعنى غلام الخرّاز ، فبعد موعظة عن الإخلاص من شيخه الخراز ترك غلام أبي سعيد الخراز العمل، فقال له أبو سعيد الخراز رحمهما الله حكمة موجزة: «ما قلت لك اترك العمل، وإنما قلت لك أخلص العمل!»[2].

* * *

رابعاً ـ تحقيق القاعدة وتنزيلها

١ ـ كيف نربي أنفسنا على الإخلاص لله تعالى:

إن إجابـة السؤال السابق هي أهم ما تُحقق به قاعـدة الإخـلاص لله تعالى، ولعل من أهم ما يعين على ذلك مايأتي:

أ ـ التدرج في مجاهدة النفس :

إن أمر الإخلاص كسائر الأمور يكتسب بالتدرج، فكما يجاهد المـرء في أمر الخشوع في الصلاة، حتى يصبح حتى الخشوع سجية له، فكذلك أمـر الإخلاص، حتى كان أحدهم يقول: «طلبـت العلـم ولم تكـن لي نيـة، ثـم رزقني الله النية»[3].

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤ / ٣٨٥.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤ / ٣٨٦.

(٣) من كلام سفيان الثوري رحمه الله، انظر: أبو نعيم، حلية الأولياء ، ٦/ ٣٦٧.

وكان السلف يعترفون بهذا الصراع الداخلي لكنهم لم يدعوا العمل لأجله، قال عون بن عمارة سمعت هشاماً الدستوائي يقول: «والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبت يوماً قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عز وجل». قال الذهبي: قلتُ: والله ولا أنا، فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا، وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله وحصّلوه، ثم استفاقوا وحاسبوا أنفسهم، فجرهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم ومالنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية بعد. وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله. فهذا أيضاً حسن، ثم نشروه بنية صالحة»[1].

ب ـ سؤال الله الإخلاص:

إن من أهم ما يجلب به الإخلاص سؤال الله الدائم أن يرزق العبد الإخلاص، وأن يهديه الى أحب الأعمال إليه، وفي الحديث الذي يرويه النبي ﷺ عن الله تبارك وتعالى: (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم)[2]، فهذا هو السبيل ولا سبيل غيره. فالله يفرح بتوبة العبد أول إقباله عليه، فكيف إذا جد في السير إليه؟!

وقد وصى النبي ﷺ صاحبه أبا بكر بدعاء ينجي من هذا الشرك الخفي ، قال ﷺ : **(والذي نفسي بيده للشرك أخفى من دبيب النمل ، ألا**

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٧/ ١٥٣.

(٢) صحيح مسلم ، ٤/ ١٩٩٤.

أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره ، قال : قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم واستغفرك لما لا أعلم)[1] .

وقد كان من دعاء الصديق رضي الله عنه: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلمه و أستغفرك لما لا أعلم»[2].

ج ـ تعويد النفس على إخفاء شيء من الأعمال الصالحة:

إن مما يعين على تربية النفس على الإخلاص حملها على الأعمال الصالحة الخفية، وتعويدها عليها، مثل صلاة النافلة بالبيت وصدقة السر ونحوهما، فإن النفس إذا ذاقت حلاوة الطاعة الخالصة لله، وحلاوة الإسرار بالعمل، تألف الإخلاص وتقبل عليه .

د ـ معرفة حقيقة البشر:

إن مما يستجلب به الإخلاص في الأعمال، أن يستقر في نفس المكلف ضعف البشر وقلّة حيلتهم، أي: أنهم لايضرون ولاينفعون، فإن معرفة ذلك من بواعث الإخلاص، بل ينبغي أن يعلم أن البشر لايملكون حتى قلوبهم، فهي بيد الله تعالى وقد لخصوا ذلك في كلمات: «من عرف الناس استراح»[3].

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد ، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٥١).

(٢) رواه أبو يعلى ، انظر: الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠/ ٢٢٤.

(٣) من كلام الفضيل بن عياض رحمه الله، انظر: ابن الملقن، طبقات الأولياء، ٢٠٦.

٢ ـ فقه الوعظ في شأن الإخلاص:

الوعظ في شأن الإخلاص مهم ومطلوب بلا شك، لكن ينبغي أن نتنبه لأمرين:

الأمر الأول ـ الإخلاص والرياء من أمور الغيب:

إن الإخلاص والرياء من الأعمال القلبية الخفية التي لايطلع عليها إلا الله، لذا يعظ المربي وينصح في شأنهما، لكن لاينبغي اتهام أحد في شأن الرياء، ولا الشهادة لأحد بالإخلاص. أما النصح في شأن الرياء فإن بابه: التعاون على البر، وهو مبني على الظن وليس اليقين، ولقد عاتب النبي ﷺ من تكلم في الأمور القلبية الباطنة، فقال لمن تجرأ على ذلك: (أفلا شققت عن قلبه؟!)[1].

وهذا منهج أصيل في التربية لا ينبغي أن نحيد عنه، فإن أحس المربي بتفريط في معاني الإخلاص لدى من يربيهم فإن في التلميح غنية عن التصريح، وليعلم أن إصلاح التفريط في الإخلاص إنما هو في العودة الى أساس التربية، أي العناية بالغاية من التربية ليس إلا !

الأمر الثاني ـ لا يوعظ بالرياء من لا عمل عنده:

إن من المفارقات في موضوع الرياء أن يوعظ به من ليس له كثير عمل صالح، فهو كمن يحذر الفقراء من سوس الدقيق، وهم لايملكونه؟! لذا من الحكمة ألَّا يكون موضوع الرياء ديدن الواعظين والمربين مع الناشئة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، ح: ٩٦.

والعامة، ممن هم في أول طريق التربية والتزكية ، وليس عندهم من العمل مايخشى عليه من الرياء ابتداء.

٣ـ ترك التفريع في الرياء:

إن مما ينبغي التنبه له أن موضوع الإخلاص هو الأصل، والرياء هو الموضوع الطارئ أو الاستثناء، ولو نظرنا للنصوص الشرعية لوجدنا أكثرها يدور على موضوع الإخلاص لله تعالى، والقليل منها في التحذير من الرياء، لذا فمن الحكمة ترك التشقيق والتفريع في أمر الرياء، لذا قالوا: «إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء»[1]. ومن أهم الملاحظات المشاهدة على بعض المربين أو الواعظين أنه يجعل موضوع الرياء هو الأصل، فينطلق واعظاً ومحذراً من خطره، ثم يدخل في تفريعات الرياء التي لا تنتهي !

دقائق الرياء وتفريعاته لا تحصى:

إن النصوص الشرعية لم تُفصّل في الرياء ولم تذكر فروعه، بل كان التوجيه الشرعي في الأغلب، كما سبق ذكره، إلى طلب الإخلاص والترغيب فيه، لكن البعض عند تناوله موضوع الإخلاص يأتي إلى موضوع الرياء فيجعله أصلاً موازياً ومساوياً لموضوع الإخلاص، وهذه المساواة تجرّه إلى التوسع في موضوع الرياء بالتفريع والتشقيق، ومن صور ذلك التفريع: تقسيمهم الرياء إلى أقسام عديدة، رياء قبل العمل وأثناءه وبعد العمل،

---

(١) من كلام أبوسليمان الداراني، انظر: القشيري، الرسالة القشيرية، ٢١٠.

ولكل قسم تفريعاته، والقيام بأمر هذا التفريع ومحاسبة النفس عليه لا يقوى عليه أي قلب، ولا تتحمله عامة الناس أو الناشئة ، وإنما يصلح للخاصة، وبقدر الحاجة أيضاً[1].

المبالغة في أمر الرياء لدرجة إبطال الفروض:

لقد أخذه الغزالي على بعض من أوصله التشدد والتكلف في أمر الرياء إلى القول بإبطال العمل كالصلاة، بل ويأمر المكلف بإعادتها لعوارض الرياء التي شابتها؟! وهذا يدل على قلة فقه بالأحكام الشرعية ، وقد نبه الغزالي إلى ذلك، قال: «والمسألة غامضة من حيث إن الفقهاء لم يتعرضوا لها في فن الفقه، والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها!»[2].

* * *

خامساً ـ أثر غياب القاعدة

١ ـ الرجوع عن طريق الاستقامة:

إن الهداية والثبات عليها أولاً وآخراً توفيق من الله تعالى وفضل ورحمة، يهبه لمن يشاء من عباده، ومن دلائل ذلك أن بعض ضعيفي السير يستمرون في سيرهم حتى يلاقوا الله، لتعلق قلوبهم بالله تعالى، فيثبتهم الله تعالى ويسددهم،

---

(١) سيأتي تفصيل هذا الموضوع في قاعدة التحفيز بإذن الله .

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، ٣ / ٣٩٧.

وترى بعض من ترمقه العيون لتشميره وجِدّه يُبطئ في السير حتى يتوقف تماماً، وما ذاك إلا للتخليط الذي ابتلي به. وفي هذا المعنى قالوا : « من صَفّى صُفّي له، ومن خلّط خُلط له »[1].

٢ـ الاضمحلال:

ومن آثار غياب الإخلاص: اضمحلال الأعمال واندثارها، وهذا نتيجة محق البركة منها، فإن «كل مالم يُرد به وجه الله يضمحل!»[2]. ويشمل الاضمحلال كل شيئ، الأفراد والجماعات والمواعظ والمؤلفات، وكل شيء ادّعي أنه لله وهو بخلاف ذلك، وقد قال مالك بن أنس رحمه الله لما رأى بعض الكتب المصنفة: لتعلمُن ما أريد به وجه الله تعالى. قالوا: فكأنما ألقيت تلك الكتب في الآبار!»[3]. ولمالك كلمة أخرى مشهورة: «ما كان لله بقى». وهي سنة باقية يخبر عنها بشر الحافي من خلال من رآهم وعاصرهم يقول رحمه الله: «ما أعلم أحداً أحب أن يُعرف إلا ذهب دينه وافتضح»[4].

* * *

(١) من كلام مطرف بن الشخّير رحمه الله، انظر: أبونعيم، حلية الأولياء، ١٠/ ٣٩٥.

(٢) من كلام الربيع بن خثيم، انظر: محمد عقيل موسى، نزهة الفضلاء، ١/ ٣٨١.

(٣) ابن عبدالبر، التمهيد، ١/ ٨٥.

(٤) أبونعيم، حلية الأولياء، ٨/ ٣٥٥.

القاعدة الرابعة
اتباع الشرع

أولاً ـ المراد بالقاعدة

إن أسس التربية ومصادرها في كل أمة تنبع من دينها أو موروثاتها الثقافية، ومصدر تربيتنا وتزكيتنا لأنفسنا من شريعتنا الإسلامية ، فالاتباع في التربية يعني أن تكون الشريعة مصدراً لكل ما تُربّى به الأنفس وتُزكى، سواء في ذلك العبادات المحضة كالصلاة، أو الوسائل المعينة، كحضور المواعظ.

وتدور هذه القاعدة على موضوعين هامين:

الموضوع الأول: نفي الابتداع في التزكية والتربية، والابتداع هو: طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه[1]. وتضاهي الشرعية يعني أنها تشابه الطريقة الشرعية

---

(١) الشاطبي، أبوإسحق ابراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي، الاعتصام، ضبطه وصححه أحمد عبدالشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٨، ص: ٣٧.

من غير أن تكون في الحقيقة كذلك، بل هي مضادة لها من أوجه متعددة[1].

والموضوع الثاني: فقه نصوص الشرعية المتعلقة بالتربية، لتحقيق الاتباع الصحيح .

ومن المهم التنبه إلى أن من الانحراف الذي قد يصيبب الفكر التربوي الإسلامي قصر مفهوم الاتباع على المعنى الأول دون الثاني، فنحن أمام نوعين من الانحراف ؛ الأول : سببه الابتداع ونبذ الاتباع ، والثاني انحراف سببه قلة الفقه للنصوص الشرعية، أو الاكتفاء بظاهرها فقط ، وهذا ما سنتناوله بشيء من التفصيل في ثنايا هذه القاعدة .

* * *

ثانياً ـ الأصل الشرعي للقاعدة

إن من أدلة اتباع الشرع في جوانب العبادة والتزكية من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[الأنعام: ١٥٣]. ومن السنة، حديث عائشة عن النبي ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد)[2]، وفي رواية: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)[3]. وقوله ﷺ: (وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل

---

(١) الشاطبي، الاعتصام، ٣٩.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

محدثة بدعة)[1].

ثم إن لم يكن في الكتاب والسنة فالتمسك بهدي الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، وهم خير القرون: فعن الحسن عن عبدالله بن عمر قال: «من كان مستناً فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، وأبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فهم أصحاب محمد ﷺ كانوا على الهدى المستقيم»[2]. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «إن كنتم لا بد مقتدين فاقتدوا بالميت، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة»[3].

* * *

ثالثاً ـ من فقه القاعدة

١ ـ الاقتصاد في سنة خير من الاجتهاد في بدعة:

وهذه القاعدة من أحكم ما قيل في شأن الاتباع، وهي من كلام عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه، وتروى عنه بلفظ آخر: «عمل قليل في سنة، خير من عمل كثير في بدعة»[4]. وهذا من بركات الاتباع للشرع، فإن قليل

---

(١) رواه أبوداوود والترمذي.

(٢) أبونعيم، حلية الأولياء، ١/ ٣٠٦، ويروى ذلك عن ابن مسعود أيضاً.

(٣) رواه الطبراني في الكبير، انظر: الهيثمي، مجمع الزوائد، ١/ ١٨٠.

(٤) ابن بطة، الإبانة، ١/ ٣٥٧.

المتبع يسبق كثير المبتدع ! فإن معنى الإسلام الاستسلام لله تعالى ولشرعه، وحين نتعبد الله بالكثير الذي لم يشرع لنا فنحن لم نحقق الاستسلام الذي أُمرنا به . وهذه النزعة في الابتداع بنية الاستزادة من الخير قديمة الحدوث ، ومما نقل لنا في ذلك رد الإمام مالك على الرجل الذي أراد أن يحرم من بيته في المدينة المنورة، أي قبل الميقات الشرعي، فقال له مالك: لا تفعل. فقال الرجل: إنما هي بضعة أميال؟! فقال له مالك: فإن الله يقول ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾. وقال الإمام مالك: من ابتدع في الاسلام بدعة يراها حسنه فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً![1].

قال الشاطبي: «فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله إن الشريعة لم تتم، وإنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها، لأنه لو كان معتقداً لكمالها وتمامها من كل وجه لم يبتدع، ولا استدرك عليها»[2].

ما تشمله هذه القاعدة:

وهذه القاعدة كما ذُكر سابقاً تشمل الاتباع للشرع في كل ماتُربّى به الأنفس وتُزكى، وهو على نوعين: عبادة محضة، أو وسيلة للتزكية. والعبادات على قسمين: إما عبادات بالجوارح كالأذكار أو الصلوات، أو عبادات قلبية: كالخشوع أو الخوف. أما الوسائل المعينة على التزكية فهي كل ما يعين

---

(١) انظر: الشاطبي، الاعتصام، ٤٩.

(٢) الشاطبي، الاعتصام، ٤٩.

على تهيئة القلب لما سبق، مثل الخلوة والتفكر، أو المواعظ أو الصحبة والرفقة المعينة .

٢ـ اعتماد المربين الأوائل لقاعدة الاتباع:

لقد فطن المربون الأوائل من جميع طوائف أهل السنة لأهمية هذه القاعدة، وقاموا بالتنبيه عليها عندما رأوا ميل البعض عنها، فأنكروا على من صحح شيئاً في التعبد أو التربية والتزكية فيه مخالفة للنصوص الشرعية أو فيه ابتداع شيء لم يرد فيهما، ومن هؤلاء أبي نصر السرّاج (٣٧٨ هـ)، رحمه الله، فبعد أن جعل أصل التربية الاتباع والإخلاص، قال حاكياً عن بعض من حاد عن هذه القاعدة: «فطبقة منهم غلطوا في الأصول من قلة إحكامهم لأصول الشريعة، وضعف دعائهم في الصدق والإخلاص». وقال بعدها: «فمن غلط في الأصول فلا يسلم من الضلالة، ولا يرجى لدائه دواء، والغلط في الفروع أقل آفة»(١).

وكذلك أنكر العلماء أي مخالفة لتعاليم الشريعة ومقاصدها وإن رُوي عن بعض الصالحين أو عملوا به، ومن ذلك مارواه المروذي عن أحمد بن حنبل رحمه الله، قال المروذي: «مدح أحمد النكاح، فقلت له: قد قال إبراهيم بن أدهم، فصاح: وقعنا في بُنيّات الطريق، عليك بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه»(٢).

---

(١) السراج، اللمع، ٥١٨.

(٢) ابن الجوزي، صيد الخاطر، ٥٩٠.

وكان بشر بن الحارث رحمه الله سيد أهل زمانه في الزهد والورع، لكنه كان أعزباً، فقال فيه الإمام أحمد: «لو أن بشراً تزوج لتم أمره!»[1]. فالإمام أحمد عرض عمل بشر أي العزوبة على الأصل الشرعي، وهو الترغيب في الزواج وذم العزوبة للقادر على النكاح، فجعل ترك بشر لذلك قصوراً فيه، رحمهما الله جميعاً.

مما نقل عن المربين الأوائل في اعتمادهم هذه القاعدة في التربية:

لقد سار على هذه القاعدة المشاهير من المربين الأوائل، المشهود لهم بعلو كعبهم في هذا العلم ، والنصوص عنهم في ذلك متواترة ، ومما نُقل عنهم في ذلك :

١ ـ ما قاله الإمام الجنيد رحمه الله: «عِلمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث، ولم يتفقه لا يُقتدى به». وقال أيضاً: «علمنا ـ يعني التصوف ـ مُشبّك بحديث رسول الله»[2].

وقال أيضاً رحمه الله: «الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ، واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه»[3].

٢ ـ ما قاله أبوسليمان الداراني: «ربما تنكت الحقيقة قلبي أربعين يوماً

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٠/ ٤٧٢.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٤/ ٦٧.

(٣) ابن القيم، المدارج، ٣٣ / ٩٩.

فلا آذن لها أن تدخل قلبي إلا بشاهدين من الكتاب والسنة»[1].

٣ ـ ما قاله أبو حفص عمرو بن مسلم النيسابوري، قال: «من لم يَزن أحواله كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره فلا تعدّه»[2]. أي لا تقبل بما يصدر عنه من كلام.

٤ـ ما قاله أبو محمد سهل بن عبدالله التستري: «أصولنا ستة أشياء التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ وأكل الحلال وكف الأذى واجتناب الآثام والتوبة وأداء الحقوق».

وقال: «من كان اقتداؤه بالنبي ﷺ لم يكن في قلبه اختيار لشيء من الأشياء، ولا يجول قلبه سوى ما أحب الله ورسوله ﷺ»[3].

٥ ـ نقل السراج عن أبي زيد قال: لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤونة الأكل، ومؤونة النساء ثم قلت: كيف يجوز لي أن أسأل الله عز وجل هذا، ولم يسأله رسوله ﷺ؟ فلم أسأله[4].

٦ ـ ما قاله عمرو بن نجيد: «كل وَجد لا يشهد له القرآن والسنة فهو باطل»[5].

---

(١) السراج، اللمع، ١٤٦.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٢/ ١٥٠، محمد عقيل موسى، نزهة الفضلاء، ٢/ ٩١٣.

(٣) أبو نعيم، حلية الأولياء، ١٠/ ١٩٠.

(٤) السراج، اللمع، ١٤٥.

(٥) انظر: ابن تيمية، الفتاوى، ١١/ ٢١٠، وتجد هذه النصوص وأكثر منها في الكتب =

٧ ـ ومن ذلك نهيهم عن كل ما خرج عن صورة الشرع والاتباع، فقد روي أن شاباً كان يصحب الجنيد رحمه الله، فكان إذا سمع شيئاً من الذكر يزعق، فقال له الجنيد يوماً: إن فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبني![1].

٨ ـ ومن النصوص عن الأئمة في ذلك ما وصى به الإمام الغزالي رحمه الله أحد تلاميذه في رسالته الشهيرة: «أيها الولد المحب»، وتأتي أهمية الوصية في كون الغزالي كتبها بعد مدة من تأليفه لكتابه إحياء علوم الدين[2]، فهي تبين منهج الإمام الغزالي الذي استقر عليه: وفيها يوصيه: «أيها الولد، ينبغي أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع، إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة، وينبغي لك أن لا تغتر بالشطح وطامات الصوفية، لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس وقتل هواها بسيف الرياضة، لا بالطامات والترهات»[3].

فالنصوص السابقة عن أئمة التربية والتزكية تؤكد أن هذه القاعدة أصل عندهم، وأن الانحراف إنما يقع بإهمالها أوالميل عنها.

= التي ترجمت لهؤلاء الأعلام.

(١) السراج، اللمع، ٣٥٨.

(٢) يظهر هذا من ذكر كتاب إحياء علوم الدين في مقدمة رسالة أيها الولد المحب، وفي وسطها أيضاً.

(٣) الإمام الغزالي، أبوحامد محمد بن محمد بن محمد (٥٠٥ هـ)، أيها الولد المحب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٨٤ م، ص: ١٨.

٣ ـ أسباب الميل عن قاعدة الاتباع[١]:

إن أهم أسباب الميل عن قاعدة الاتباع مايأتي:

١ ـ الغفلة عن أهمية الاتباع في الشرع ونبذ الابتداع، فإن الجهل بالقواعد الشرعية المتعلقة بالاتباع وما يتعلق بها من أحكام وضوابط كثيراً مايوقع المرء في المنهيات من حيث هو يطلب رضى الله بتلك الأعمال، فيه من قبل الناس، وهذا من تمام الاستسلام لشرع الله، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[النساء: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[آل عمران: ٣١]. والجهل بهذه القاعدة أو عدم إدراكها إدراكاً صحيحاً أدى لصور الإنحراف المؤسفة والتي يقع فيها الكثيرون بحسن نية.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «قد كان أوائل الصوفية يُقرون بأن التعويل على الكتاب والسنة، وإنما لبس الشيطان عليهم لقلة علمهم!»[٢].

٢ ـ الجهل بالنصوص التفصيلية المتعلقة بالعبادات المختلفة، فإن الجهل بالنصوص الشرعية في شأن العبادات التي يحب الله من عباده فعلها وأمرهم بذلك، يجعل المرء يترك ما أمر الله به وأحب من عباده فعله ويتجه لفعل قربات مما اخترعه من قبل نفسه، فيترك البعض كثيراً من العبادات

---

(١) هناك سؤال آخر لايقل أهمية عن هذا السؤال، وهو متى بدأ الانحراف؟ ولعل الله ييسر التعرض لإجابته في الكتاب القادم عن النظرية التربوية الإسلامية.

(٢) ابن الجوزي ، تلبيس إبليس، ١٩٢.

الشرعية الواردة في السنة النبوية الصحيحة، ليتمسك بعبادة مخترعة، ويجعلها رأس ماله في الطاعات، ومن ذلك أنه يعاقب نفسه إذا أذنب، بينما وجه الشرع المذنب إلى التوبة والاستغفار.

وقد قال بعض السلف في هذا المعنى: «لا تسألوهم اليوم عما أحدثوه بأنفسهم، فإنهم أعدوا له جواباً، ولكن سلوهم عن السنة فإنهم لا يعرفونها»[1].

وقد يكون مستنده في ذلك أحاديث موضوعة ومرويات واهية لا تثبت عن النبي ﷺ، أو نقول عن بعض السلف لا تثبت عنهم، وهذا كله بسبب الجهل بالشرع . ولذلك فقد كانت وصية العلماء الربانيين أن يُطلب العلم قبل التعبّد والزهد، فقد نصح السّري السقطي تلميذه الجنيد بن محمد بأن يتفقه في الدين ويطلب العلم قبل أن يزهّد ويتعبّد، لأنه يقيه من الانحراف والزلل، فقد حكى الجنيد: قال لي السّريُ شيخي يوماً: إذا قمت من عندي فمن تجالس؟ قلت: المحاسبي. فقال: نعم، خذ من علمه وأدبه، ودع عنك تشقيقه الكلام ورده على المتكلمين! ثم لما وليتُ سمعته يقول: جعلك الله صاحب حديث صوفياً، ولا جعلك صوفياً صاحب حديث!».

وعلق الإمام الغزالي على ذلك، قال: «أشار إلى أن من حصل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه»[2].

---

(١) من كلام هشام بن عروة رحمه الله، انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ١ / ١١١.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، ١ / ٢٢ ، نُقلت عن تعليقات أبي غدة على رسالة المسترشدين.

٣ ـ جعل الذوق وما تستحسنه النفس أوالتجربة معياراً للقبول، حيث يبني عليها عبادة أو وسائل لتزكية النفس، وهذا الأمر قد أنكره المربون الأوائل، لأنه يؤدي لاتباع الهوى في نهاية الأمر، وقد سُئل سهل ابن عبدالله التستري: هل للمقتدي اختيار بالاستحسان[١]؟ فقال: «لا، إنما جَعل السُنة واعتقادها بالاسم»[٢]. فمن استحسن واختار بذوقه وما مال إليه طبعه، فإنه مضيّع في الحقيقة لأمر الاتباع، مهما ادّعى أو زعم حباً للسنة ولصاحبها ﷺ.

علماً أن الاختيار بالهوى والذوق قد يضع له صاحبه معايير من عنده، لكن بلا دليل شرعي يسندها، وقد قال أبوعثمان النيسابوري: «من أَمَّرَ السنة على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالحكمة، ومن أَمَّرَ الهوى على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالبدعة، قال الله تعالى ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾[النور: ٥٤]»[٣].

٤ ـ التمسك بأقوال بما نقل لنا من التراث التربوي ، من أقوال العبّاد والزهّاد وأهل السلوك ، وقد يكون فيها شيء من الخطأ، وذلك بأن أحدهم قد يجتهد اجتهاداً خاطئاً، وقصده حسن، ثم يُنقل اجتهاده هذا عنه، ويتمسك البعض به أو قد يتعصبون له، فتُأوّل النصوص الشرعية لأجل ذلك، وسيأتي

---

(١) ليس المقصود هنا الاستحسان الأصولي المقبول، ولكن المقصود استحسان التذوق والهوى، وهذا واضح من جواب التستري رحمه الله.

(٢) أبو نعيم، حلية الأولياء، ١٠/ ١٩٠.

(٣) السراج، اللمع، ١٤٤.

بيان ذلك لاحقاً.

٥ ـ غلبة العاطفة على العقل، وهذا من أوضح أمثلته الإمام الغزالي، فهو على مكانته في الفقه والعلم والعقل قد ذكر أشياء في الإحياء لاتتصور من مثله ، بل وخالف فيها منهجه الذي أنكره على غلاة المتصوفة ، وفي هذا أنقل كلاماً قيماً للإمام ابن الجوزي ، في تعليقه على اجتهاد المتصوفة في الخروج من جميع مالهم ، قال : «ولست أعجب من المتزهدين الذين فعلوا هذا مع قلة علمهم ، وإنما العجب من أقوام لهم عقل وعلم كيف حثّوا على هذا وأمروا به مع مصادمته للعقل والشرع؟! وقد ذكر الحارث المحاسبي في هذا كلاماً طويلاً وشيّده أبوحامد الغزالي ونصره ، **والحارث عندي أعذر من أبي حامد؛ لأن أبي حامد كان أفقه ، غير أن دخوله في التصوف أوجب عليه نصرة ما دخل فيه**»[١].

٤ ـ الاتباع يشمل أيضاً مبادئ التربية النبوية:

من الخطأ حصر الاتباع في عدم الابتداع فقط، بينما الاتباع أمره أوسع من ذلك، فقد أمرنا باتباع هدي النبي ﷺ، ومن ذلك هديه في تربيته لأصحابه، ومن تلك المبادئ النبوية في التربية :

١ ـ الرفق، قال النبي ﷺ: (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه)[٢].

---

(١) ابن الحوزي ، تلبيس إبليس ، ٢٠٢.

(٢) رواه مسلم.

٢ ـ التوجيه غير المباشر، ومن ذلك قول النبي عند التوجيه: ما بال أقوام؟!

وقد تكرر ذلك في مواقف عديدة، فقد قال رسول الله ﷺ مستنكراً كلام البعض دون أن يسمي: (ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟!)[١]، وقال في موقف آخر: (ما بال الناس يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله؟!)[٢].

٣ ـ إغضاء الطرف والتغافل عن الزلات، وعدم التفتيش، قال ﷺ: (من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة)[٣]، وروي عن النبي ﷺ: (أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم)[٤]. أي إذا وقع من يعرف بالخير في زلة أو هفوة فينبغي سترها والتغافل عنها.

٤ ـ التحفيز ورفع الهمم، ونبذ التثبيط، قال رسول الله ﷺ: (لا يقول أحدكم خبثت نفسي)[٥]، وقال ﷺ: (إذا قال الرجل هلك الناس، فهو أهلكهم)[٦].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه مسلم وأصحاب السنن الأربعة.

(٤) رواه أحمد وأبوداود والنسائي، والحديث حسن بمجموع طرقه، انظر: فتاوى اللجنة الدائمة، ٢٢ / ١٩.

(٥) رواه البخاري.

(٦) رواه مسلم.

٥ ـ التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، قال ﷺ: (يسّروا ولا تُعسروا، بشّروا ولا تُنفروا)[١].

إن كل ما سبق هو من المبادئ النبوية المشهورة عن رسول الله ﷺ في التربية، ولو أوردنا النصوص المتكاثرة في مبدأ الستر لملأت صحفاً كثيرة، وهكذا بقية المبادئ، وقد عمل بها النبي ﷺ في تربيته لأصحابه، وأمر بها، ومن كمال الاتباع، بل من مقتضياته أن يلتزم بها المربي والمعلم، فالاتباع ليس دعاوى، بل التزام بالمنهج النبوي كله، ولا يحق لمن يدعي اتباعه ﷺ أن يتجاوز عن هديه الثابت متأولاً في ذلك ،أو متبعاً لنص أتى في سياق واقعة خاصة أو مستثناة من الأصل العام ، فيجعلها هي الأصل .ومثال ذلك مسلك الإغلاظ أو التوبيخ في التربية والوعظ . فهذا المسلك الذي قد يميل له البعض ويذكر له المسوغات ، يطيش إذا عرضناه على هدي النبي ﷺ في التربية ، ومن ذلك مايروى عن أحد قدماء المربين قوله لمن يربيه: قسوتي عليك لأجلك لا لأجلي! فهذه وأمثالها اجتهادات من قائلها لا تعطل لأجلها المبادئ الشرعية.

٥ ـ الاستفادة من العلوم الإنسانية المعاصرة في التربية:

إن الاتباع للشرع في التربية لا يعني ولا يقتضي نبذ العلوم الانسانية المعاصرة، فقد تأسست علوم إنسانية لها أهميتها في التربية، مثل علم النفس التربوي وعلم الاجتماع وعلم التربية العام. فعلم النفس له علاقة وثيقة بأمر

---

(١) متفق عليه.

التربية، لذا ألحق به تخصص أدق منه جمع بين العلمين، ويسمى: علم النفس التربوي، وهو يعنى بتطبيقات علم النفس في التربية[1].

ومثله علم الاجتماع، ويتبعه فرع جمع بينه وبين التربية، ويسمى: علم الاجتماع التربوي، وهو يدرس أثر المجتمع على الفرد والعكس، وهذا له علاقة وثيقة بالتربية، خصوصاً لمن يهتم بتربية المجتمع ووعظه ، حال خطباء الجمعة ونحوهم [2].

وعلم التربية العام، وموضوعه تهذيب النفس البشرية وإيصالها للكمال البشري، ولذلك فإن للقراءة فيه أهمية كبيرة للمربين، لتقاطعه مع التربية الإسلامية في كثير من المواضيع المشتركة، فهما يشتركان في الأهداف.

إن من الضروري تعلم الحد الأدنى من هذه العلوم المساعدة على القيام بمهمة التربية، خصوصاً لمن جعل التربية وظيفته أو همه، فمن يتصدر للوعظ العام لا بد من أن يكون له نصيب من القراءة والاطلاع على علم الاجتماع التربوي، ومن يتصدر لتربية الشباب لابد له من القراءة في تركيبة المراهق النفسية .

إن إهمال هذه العلوم أثر ولاشك على فئة من المتصدين لشأن التربية الإسلامية ، وهم ممن مال إلى الاكتفاء بما جاء في كتب التراث في شأن التربية والتزكية وأهمل العلوم الإنسانية المساندة لعلم التربية.

---

(١) انظر: علم النفس التربوي، موقع ويكيبيديا Wikipedia. Org.

(٢) انظر: علم الاجتماع التربوي، موقع ويكبيديا Wikipedia. Org.

وبعض من يميل لهذا الرأي لبس الأمر عليه من جهة الخلط بين مصادر التربية الأساسية، وبين الاستفادة من العلوم الإنسانية المساعدة على التربية، فإن إقرارنا بأن الشرع وتراثنا الاسلامي هو مصدر التربية لا يتعارض مع الاستعانة بالفنون الأخرى المساعدة على فهم تركيبة الإنسان ونفسيته وطريقة تفكيره، كذلك معرفة أثر المجتمع الذي يعيش فيه على تربيته لنفسه وعلى قيمه وأفكاره.

وعلى ذلك فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن مجتمع المهتمين بالتربية يمكن تصنيفهم الى فئتين: «فئة تملك الكثير من العلم التربوي والنفسي، لكنها تفتقد الكثير من العلم الشرعي، مما جعل خطابها وكأنه يقف عند حد إنزال القبعة من على رأس «خواجة» ليضع عليها عمامة إسلامية. والفئة الأخرى، امتلكت الكثير من العلم الشرعي، لكنها افتقدت الكثير أيضاً من العلم التربوي والنفسي، مما جعل خطابها يميل إلى الصيغة الوعظية الخطابية، مختلطاً بمهمة الدعاة الدينيين»[1].

* * *

رابعاً ـ تحقيق القاعدة وتنزيلها

١ ـ قاعدة اتباع الشرع، معيار للأخذ والرد:

إن المربين الأوائل من سلف الأمة كانوا يعتبرون موافقة الأعمال

---

(١) د. سعيد اسماعيل علي، الخطاب التربوي الإسلامي، كتاب الأمة، قطر، العدد ١٠٠، (مايو) ٢٠٠٤ م، ص: ٥٥.

لأصول الشرع شرطاً في قبولها، فإذا ذكر عمل على أنه من جنس العبادات، أو أنه وسيلة للتربية والتزكية، قاموا بعرضه على الشرع، فموافقة أصول الشرع هو المعيار والمقياس للقبول والرد.

من أهم ضوابط العرض على الشرع:

إن هناك ضوابط متعلقة بالأعمال التي يتقرب بها إلى الله كعبادات محضة، وضوابط متعلقة بالوسائل المعينة على التربية، ولا بد من التفريق بين الضوابط أو المعايير المتعلقة بالعبادة وتلك المتعلقة بالوسائل للفرق الكبير بينهما.

أ ـ الضوابط المتعلقة بالعبادة:

إن العبادات المحضة التي يُتقرّب بها إلى الله تعالى لا بد من ثبوتها بالنص الشرعي، من القرآن أو السنة، وكذلك لا بد من أدائها بالكيفية الشرعية، ففي شأن الصلاة، قال ﷺ: (صلّوا كما رأيتموني أصلي)[1]. وهذا أمره واضح، ومن مال عنه ضل وزل ، ويقاس على ذلك.

ب ـ أهم الضوابط المتعلقة بوسائل التزكية والتربية:

إن الوسائل المتعلقة بالتزكية والتربية إما أن توافق عموم النصوص الشرعية، فتكون مقبولة ، أو تعارضها صراحة أو ضمناً فتكون ممنوعة ، أما إذا لم نجد في الشرع مايشير لموافقة أو معارضة النصوص، فينظر للمصلحة المتحققة منها أو مآلاتها، فمتى حققت مصلحة كانت جائزة، وتمنع متى

---

(١) رواه البخاري.

آلت إلى المفسدة[1].

٢ ـ الفقه من ضروريات تحقيق الاتباع :

وهذا هو المحور الثاني في تحقيق قاعدة الاتباع، ويتضمن :

أ ـ فقه النص الشرعي: فلايمكن تصور كمال الاتباع للنصوص الشرعية دون معرفة مراد الشارع بها، وفقهها هو سبيل ذلك ، ومن المظاهر المشاهدة أن البعض يقرن بين الاتباع والتزام ظاهر النصوص الشرعية، ونتيجة لذلك تجده مهتماً بحفظ النصوص والاطلاع عليها من غير عناية بفقهها، وإن هذا المنهج القاصر قد يضر بصاحبه في نهاية الأمر ، لما فيه من تفويت لأمر الفقه بالشرع، فإن الفقه مرتبة أعلى من حفظ النصوص، وبالفقه يُعرف مراد الشارع من النص، وقد ذكر النبي ﷺ تفاوت الناس بين حافظ وفقيه، قال ﷺ: (نضَّر الله امرءاً سمع منا شيئاً، فبلَّغه كما سمعه، فرُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامِع)[2].

وإن آفة الفرق التي ضلّت عن السبيل كانت من قلة الفهم للنصوص الشرعية ، أكثر من قلة الحفظ لها . وكان السلف يصحبون من يتعلمون منه فقه النصوص وإن كانوا مثله في الحفظ لأهمية ذلك، فعن سليمان بن حيان قال: «كنا نصحب سفيان الثوري وقد سمعنا ممن سمع منه، إنما نريد منه

---

(١) سأتناول مايتعلق بالوسائل التربوية بشيء من التفصيل، في الكتاب القادم عن الفكر التربوي الاسلامي بإذن الله.

(٢) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح. ح: ٢٦٥٩.

تفسير الحديث»[1].

وكان الإمام أحمد يحث أصحابه على مجالسة الشافعي وتقديم الجلوس عنده على غيره من رواة الحديث، لفقه الإمام الشافعي وفهمه لمراد الشارع.

فهم الاتباع بمفهومه الصحيح:

إن فهم أصل الاتباع في الدين بمفهومه الصحيح، بعيداً عن التكلف والتحجر، والتساهل والتميع، هو العاصم من الانحراف، ويعين على ذلك التفقه في علم التربية من مصادره، ومن أهم ذلك قراءة تفسير الآيات وشروح الأحاديث المتعلقة بالتربية والتزكية، فإن القارئ سيجد لدى المفسرين وشرّاح الحديث من المعاني الهامة والنقول عن سلف الأمة ما ينير له الطريق ويوسع مداركه في فهم كيفية الاتباع في التربية.

وكذلك القراءة في كتب التربية والسلوك التي سارت على منهج وسطي معتدل ، مستنيرة بالشرع وما كان عليه سلف الأمة من ترك التنطع والتكلف .

معرفة منزلة الحكم الشرعي المستفاد من النص:

ومن فقه معرفة مراتب الأحكام الشرعية ، أي ثقل هذا الأمر أو النهي في الميزان الشرعي، فليس الواجب مثل المندوب، وليس المكروه مثل المحرم، والمحرمات منها كبائر وصغائر، وهكذا، وسنأتي على تفصيل هذا الموضوع في قاعدة الأولويات.

---

(١) أبونعيم، حلية الأولياء، ٦ / ٣٦٦.

ب ـ معرفة مراد الشرع من اللفظ:

إن من مفاتيح فقه النص الشرعي؛ تحديد المراد بالألفاظ الشرعية، لأن فهم المراد باللفظ الشرعي هو مفتاح لفهم مراد الشارع، لئلا يؤولها كل أحد على ما يفهمه أويريده، وتظهر أهمية هذا الأمر في مصطلحات مثل: التوكل والزهد والورع، فإن عدم فهم مراد الشارع منها أوقع كثيراً من المربين والعباد على مرّ القرون في الزلل والانحراف.

ولو نظرنا في حال الناس مع مصطلح الزهد لوجدنا اختلافاً كبيراً في فهمهم له، فالزهد في الأصل هو التقلل من الدنيا، وهذا هو المعنى الأقرب لمراد الشارع، وهو لدى طائفة أخرى مقصور على ترك الحرام فقط، والمرادُ به عند طائفة ثالثة بعيدٌ عن مقاصد الشرع تماماً، إذ صار مرادفاً لترك العمل والكسب، والعيش على صدقات الناس، وليس هذا من الإسلام في شيء[1].

وفي أيامنا هذه يلزمنا مع ماسبق فهم كيفية تنزيل اللفظ الشرعي وتحقيقه في واقع الناس بما يتوافق مع تغير الزمان وتغير أحوال الناس، فليس تحقيق الزهد في عصر التابعين يشبه تحقيقه في عصرنا، فكثير من الأشياء التي كانت بالنسبة لهم من الترف هي من الضروريات في زماننا ولايمكن للناس الاستغناء عنها [2].

---

(١) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٠ / ٦١٧.

(٢) هذا المعنى سنتناوله في قاعدة الواقعية في التربية.

تنبيه العلماء على المراد الشرعي للّفظ الشرعي:

من الأمثلة على تنبيه العلماء للناس على حقيقة مراد الشارع من الألفاظ والمصطلحات الشرعية ؛ توضيحهم للمراد بالتوكل، ومن ذلك مابينه الإمام أحمد لرجل أراد أن يحج بدرهم واحد فقط! فنهاه الإمام عن ذلك، فقال الرجل: «يا أبا عبد الله أنا متوكل! قال: فتدخل البادية وحدك أو مع الناس؟ قال: لا، مع الناس. قال: كذبت، لست أنت بمتوكل فادخل وحدك، وإلا فأنت متوكل على جُرُب الناس!»[1].

وقد أنكر الغزالي في إحيائه على البعض تحريفه لبعض الألفاظ الشرعية واخراجه لها عن قصد الشارع، قال: «وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل، فيخوض البوادي من غير زاد ليصحح دعوى التوكل! وليس يدري أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة، وقد كانوا أعرف بالتوكل منه، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد»[2]. وهذا الفهم الخاطئ للتوكل تطور إلى ما هو أسوأ منه وهو الدخول في الصحراء بغير زاد بدعوى تصحيح التوكل، بل وُيمدح الرجل منهم بأنه مات في صحراء التيه، أي أنه خرج

---

(١) عبد الإله الأحمدي، المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة ، دار طيبة، الرياض، ط ١، ١٩٩١، (٢/ ٢٣٧).

(٢) الإحياء ، ٣/ ٤٠٦ .

بغير زاد، ثم لم يُرَ بعدها![1].

ومن الأمثلة أيضاً: الفهم الخاطئ لمعنى شكر الله على نعمه، وذلك بأن أحدهم قد امتنع عن الأكل الطيب بدعوى أنه لا يقدر على القيام بشكره. فأيقظه الإمام الحسن البصري رحمه الله (١١٠ هـ) من غفلته بهذا السؤال المختصر العميق: وهل تقدر على شكر الماء البارد؟! [2]

وهذان المثالان يمكن أن يقاس عليهما الكثير من المصطلحات في التربية والتزكية .

ومن عميق الملاحظات التي ذكرها الإمام ابن الجوزي رحمه الله ، ما أورده في التفريق بين مصطلحي: الزهد والتصوّف ، وهذا مبحث دقيق ، قصد منه ابن الجوزي توضيح الفرق بين مصطلح شرعي[3] وبين مصطلح مخترع؛ حل محله لدى فئة من الناس ، قال رحمه الله : «فالتصوف مذهب

---

(١) انظر أمثلة ذلك الانحراف في مفهوم التوكل ، فيما أوره أبو نعيم الأصفهاني، في حلية الأولياء، الجزء العاشر، عند ترجمته لكثير من الأعلام ، ويستبين منها لمن لديه أدنى علم بالشريعة مدى الانحراف في الفكر التربوي الإسلامي لدى طوائف من العباد في تلك الأزمنة .

(٢) ابن الجوزي ، تلبيس ابليس ، ١٧٤ .

(٣) لفظ الزهد ورد في كلام رسول الله ﷺ : (ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس) ورواه ابن ماجه وابن حبان ، وقد حسنه النووي في الأربعين النووية ، وصححه الألباني في الصحيحة .

معروف يزيد على الزهد ، ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد، وقد ذموا التصوف»[1].

ج ـ الفتوى التربوية :

الموضوع الثالث في فقه النص الشرعي يتعلق بالفتوى التربوية ، والمقصود بالفتوى التربوية ذلك الاجتهاد التربوي الذي يجتهد به المربي في حالة تربوية ما، سواء كانت عامة، أو خاصة، والمستندة الى الفقه بالشرع والفهم في علم التربية.

ومما يغفل عن بعض المربين أن الفتوى التربوية لها شروطها مثلما للفتوى الفقهية شروط، لذا لا ينبغي التساهل بها والجرأة عليها لمن لم يجمع بين الفقه بالشرع والعلم بفن التربية ، كيلا يدخل الإنسان نفسه في دائرة الفتانين عن الدين ، فإن أكثر ما ينفر الناس عن التربية الاسلامية جرأة بعض المنتسبين لها على الفتوى التربوية، وكأنها ليست من الدين، خصوصاً من عامة الوعاظ، أو المحتسبين الذين غاب عنهم فقه التربية الإسلامية، فقادتهم عواطفهم إلى أن يفتوا في أصولها وفروعها دون وعي ولافقه. ومن الملاحظ أن بعض هؤلاء يتورع عن فتوى فقهية في الوضوء ، لكنه يتجرأ على فتوى في مسالة تربوية مما تعم به البلوى .

من المسوغات الخاطئة لدى بعض المربين :

بعض المربين يسوغ لنفسه الافتاء التربوي ، مع عدم بحثه أو تأمله

---

(١) ابن الجوزي ، تلبيس ابليس ، ١٨٩ .

في المسالة التربوية ، ومما قد يستند إليه ، مايلي :

١ ـ ادعاء أنه سلك في المسألة مسلك الـورع فيهـا .

٢ ـ أنه سلك مسلك الاحتياط أو الأحوط .

٣ ـ أنه سلك فيها مسلك العزيمة ونبذ الرخصة .

وقد غفل هذا أنه إذا لم يراعى مناسـبتها لحـال النـاس أو مـآل هـذه الفتوى عليهم فإنها قد تكون من التنفير المنهي عنه .

ومن الأسباب أنـه قـد استند ذلك المربي أو الواعظ على ظاهر نـص شرعي، في إصدار الفتوى دون الإلمام بحال الناس أو ظروف المستفتي، أو أنه لم يفقه ذلك النص ابتداء ، أما مسلك الورع ؛ فهذا يستلزم منا ابتداء الفقه لمصطلح الورع ، وفقه لاستخدامه وتنزيله، فإن أهل العلم ذكروا أن العـالم والمفتي إنما يأخذ بالورع في خاصة نفسه،وليس فيما يفتي به للناس[١].

وإن مما ينبغي أن نعترف به أن لدينا اليـوم فقـه ظـاهري للنصـوص التربوية، ولدينا فتاوى تربويـة غـير صـالحة، لم تـراعَ فيهـا شروط الفتـوى التربوية السابق ذكرهـا، وهذا لجهل المـتكلم بأصـول وقواعـد علـم التربيـة الإسلامي، وصدق الشاطبي حينما قال : لايفتي في هذا الفن إلا المتخصـص فيه![٢].

---

(١) وكذلك ليس للمربي ليس أن يختار رأياً فقهياً في مسألة خلافية ، ثم يروم إلزام من يربيهم على ذلك الاختيار .

(٢) انظر: الشاطبي، الموافقات، ٤ / ٢٤٢.

٣ ـ من أمثلة الفقه للنصوص الشرعية:

لقد فقه المربون الأوائل قاعدة الاتباع، وأنها لا تتحقق بالاتباع الحرفي للنصوص، فراعوا مراد الشارع أو القصد الشرعي من وراء التكليف، ومن أمثلة ذلك:

١ ـ قال أيوب السختياني: كنت مع أبي قلابة في جنازة فسمعنا صوت قاص قد ارتفع صوته وصوت أصحابه، فقال أبو قلابة: «إن كانوا ليعظمون الموت بالسكينة»[١]، ففقهَ أبو قلابة ما فات هذا القاصّ الذي ربط بين الموت ولزوم التذكير بالله، بل وجعل ذكر الله بصوت مرتفع! وغاب عنه أن الحال هنا يقتضي تحريك القلوب بالتفكر ولايتأتى ذلك إلا بالسكينة والهدوء .

٢ ـ ومما روى عن أيوب السختياني، أنه كان في قميصه بعض التذييل، فقيل له في ذلك؟ فقال: الشهرة اليوم في التشمير![٢]. أي أن تقصير الثوب اليوم هو الشهرة، وليس تطويل الثوب.

وهذا من فقه السختياني لما رآى أن الناس صاروا يتكلفون التقصير في الثياب رغبة في الشهرة وإظهارا للتزهد، وهذا مخالف للقصد الشرعي من التقصير، وهو التواضع لله وخلقه، فلما صار الأمر إلى ذلك، كانت تربية الإمام السختياني لمن حوله بتطويله الثياب، وقد فهم من سلوكه أنه فوق

---

(١) أبونعيم، حلية الأولياء، ٢/ ٢٨٥.

(٢) أبونعيم، حلية الأولياء، ٣/ ٧.

الكعب، لكنه خلاف عادة الزهـاد آنذاك .

وقد ذكر ابن تيمية كلاماً قريباً يتناول موضـوع الشـهرة في الملـبس، وبين أن الشهرة ليست مختصة بحـال واحـدة، قال : «وقد كـانوا يكرهـون الشهرتين من الثياب، المرتفع والمنخفض»[1].

٣ ـ ومن ذلك مانقله ابن تيمية من فقه الجنيد للنصوص، حيث نقل ابن تيمية قصة الشبلي مع الجنيد، فقد قال الشبلي: «بين يدى الجنيد: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقال الجنيد: قولك ذا ضيق صدر، وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء! ثم علـق شيـخ الإسلام على ما قاله الجنيد: «فإن هذا من أحسن الكلام، وكان الجنيد رضى الله عنه سيد الطائفة ومن أحسنهم تعليماً وتأديباً وتقويماً، وذلك أن هـذه الكلمة كلمـة استعانة لا كلمة استرجاع، وكثير من الناس يقولها عنـد المصائب بمنزلـة الاسترجاع، ويقولهـا جزعـاً لا صبراً، فالجنيد أنكر على الشبلي حاله فى سبب قوله لها، إذ كانت حالاً ينافي الرضا، ولو قالها على الوجه المشروع لم ينكر عليه»[2].

٦ ـ قاعدة في: ضوابط الاستفادة من التراث التربوي

سبق الحديث عن أهمية فقـه النصـوص الشـرعية الـواردة في التربيـة، واستكمالاً لذلك نتناول الأصل الآخر الذي يسـتند إليـه كثـير ممـن يـتكلم في التربية، وهو التراث المنقول لنا في الفكر التربوي، **وأقصـد بـالتراث التربـوي**

---

(١) ابن تيمية، الفتاوى، ١١ / ٥٥٥.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٠ / ٦٨٦.

كل المرويات والاجتهادات التربوية من غير القرآن والسنة وكلام الصحابة رضي الله عنهم ،أي مانقل لنا من كلام التابعين فمن بعدهم .

فإن كثيراً من مفردات الفكر التربوي الذي يتناقله المربون يكون مستندهم فيه اجتهادات واختيارات السلف، لذا كان من المهم التعريج على مواضيع متعلقة بالمنهجية الصحيحة في التعامل مع هذا التراث، ويتناول هذا محورين : المحور الأول: مكانة كلامهم في ميزان الشرع، والمحور الثاني: يتعلق بذات المرويات .

أولاً ـ إنزال كلام السلف في مكانته الشرعية الصحيحة :

إن من المنهجية العلمية الصحيحة في التعامل مع ما ينقل من كلام واجتهادات السلف هو وضعها في حجمها الشرعي الصحيح دون إفراط ولا تفريط، ودون إهمال ولا مبالغة وغلو، أي أنه رأي أو اجتهاد من قائله قابل للأخذ والرد، فهو ليس نصاً شرعياً ، ولايقارب ذلك بسبب قربه الزماني من نزول الوحي! فإن البعض يبالغ فيورد الكلام أو الحكاية عن بعض السلف وكأنه قد أورد نصاً شرعياً في موضع النزاع، وهذا خطأ بيّن! خاصة ماينقل عمَّن هم بعد الصحابة رضي الله عنهم، وإذا علمنا أن قول الصحابي ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ مختلف في حجية الاستدلال به لدى الأصوليين، فما بالك بقول من بعدهم[1].

---

(١) انظر: أبو حامد الغزالي، المستصفى من علم الاصول، تحقيق د. محمد تامر، دار الحديث، القاهرة، ٢٠١١، ١ / ٥١٩؛ نجم الدين سليمان بن عبدالقوي الطوفي، =

وممن نبه إلى خطأ ذلك المنهج الإمام أحمد، فقد روى الفضل بن الحباب، قال: «أقام عندنا ثلاثة أيام ـ أي الإمام أحمد ـ فكنت أذاكره بالليل كثيراً، فقلت له: يا أبا عبد الله: سمعت شعبة بن الحجاج يقول: إن هذا الحديث يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة وعن صلة الرحم، فهل أنتم منتهون؟ قال: فأطرق ساعة، ثم قال: أما نحن فلا نعرف هذا من أنفسنا، فإن كان شعبة يعرف من نفسه شيئاً فهو أعلم»[1]. فقد رأى الإمام أحمد أن هذا النقل عن شعبة ليس أكثر من رأيٍ لشعبة رحمهما الله تعالى، ووضعه في موضعه الحقيقي في الاستدلال، وكذلك ذكر الإمام الشاطبي أن الاستدلال بكلام السلف ينبغي ألَّا ينزل منزلة الدليل الشرعي الأصلي، لعدم اطراد الصواب فيما يقولون[2]. وهذه قاعدة مهمة؛ فإن الاجتهاد في الشأن التربوي مثل الفتوى الفقهية، تتغير بتغير الزمان والمكان، وهي اجتهاد من صاحبها بما رآه مناسباً في ذلك العصر والزمان، لذا يسع من يأتي بعده أن يجتهد مثله ، فيما يراه محققاً للمصلحة التربوية .

ثانياً ـ المرويات عن السلف بين إثبات نسبة المروي، وصحة المعنى:

بعد ما سبق بيانه في المكانة الشرعية للمنقولات عن السلف، نتناول

= شرح مختصر الروضة، تحقيق د. عبدالله التركي، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٩٩٠، ٣/ ١٨٥ .

(١) ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، ١/ ٢٣٥.

(٢) انظر الشاطبي، الموافقات ، ١ / ٥٥، نقلا عن د. أحمد زايد، تأصيل فقه الدعوة عند الإمام الشاطبي، دار الأندلس الخضراء ، جدة، ط الأولى، ٢٠٠٤ م، ص: ١٦٠ .

المحور الثاني وهـو مايتعلق بالمروي في ذاته ، ويشمل مايلي :١ـ التثبت من صحة المنقـول أو المروي . ٢ـ تبيَّن أو تحديد مـراده مما قاله. ٣ ـ مناسبة ما قاله للاستشهاد به في هذا الموضوع التربوي .

فإن الكثير مما يُروى لا يمكن القطع بصحـة نسبتـه للمـتكلم، فـإن المشتغلين بالآثار لم يهتموا بدراسـة الأسانيـد عن التابعين ومن بعدهم، بـل حتـى المرويات عن الصحابة لم يشتغلوا بتصحيحها والبحث في أسـانيدها بقدر اشتغالهم بالحديث الشريف، لذا فإن من يبني اجتهـاده التربـوي عـلى النقول عن التابعين ومن بعدهم لايسـتطيع أن يجـزم بصحـة ثبـوت مـا استند اليه، فإن كثيراً من أصحاب التصنيف في التراجم والأخبـار لا يلتـزم صحة الإسناد عند روايته الأقوال لمن يترجم لهم، وهذا يقتـضي مـن العاقـل ألَّا يبالغ في القيمة العلمية لتلك المرويات.

والأمر الأخـير: هـو مـراد المتكلـم من كلامـه، فقد يُحمّل كلامه ما لا يحتمله، أو ما لم يقصده ابتداء، وهذا أيضاً كثير، هذا الأمر وماقبله مما أثار النقد على بعض الصالحين والعُبّاد بسبب كلام روي عنهم، ولعلهم قصدوا بها شيئاً آخر، أو أنهم لم يقولوه ابتداء .

والأمر الثالث: مناسبة هذا المنقول للاستشهاد به في المسالة التربوية، وهذا يجرنا إلى التأكيد على مراعاة اختلاف الأحـوال والظـروف والنـاس، وهذه مؤثرات مهمـة على الفتوى التربوية وسنتناولها بالتفصـيل في قاعـدة الواقعية .

أمثلة تطبيقية:

وسأوضح هذا بمثالين ذكرهما ابن تيمية رحمه الله في نقده لمرويات عن بعض السلف من حيث الثبوت ومن حيث المعنى فقد جعل ابن تيمية إثبات الصحة مقدمة رئيسة قبل الخوض في تفصيل مايروى عن الصالحين، ومن ذلك جوابه عن بعض ما نُسب للشيخ أبي سليمان الداراني رحمه الله، فقد «سُئل شيخ الإسلام رحمه الله عما ذكر الأستاذ القشيري فى باب الرضا عن الشيخ أبى سليمان أنه قال: الرضا ألَّا يسأل الله الجنة ولا يستعيذ من النار، فهل هذا الكلام صحيح؟ فأجاب: الحمد لله رب العالمين، الكلام على هذا القول من وجهين، أحدها: من جهة ثبوته عن الشيخ، والثانى: من جهة صحته فى نفسه وفساده. أما المقام الأول: فينبغى أن يُعلم أن الأستاذ أبا القاسم لم يذكر هذا عن الشيخ أبى سليمان بإسناد! وإنما ذكره مرسلا عنه، وما يذكره أبو القاسم فى رسالته عن النبى ﷺ والصحابة والتابعين والمشايخ وغيرهم تارة يذكره بإسناد وتارة يذكره مرسلاً، وكثيراً ما يقول وقيل كذا، ثم الذي يذكره بإسناد تارة يكون إسناده صحيحاً وتارة يكون ضعيفاً بل موضوعاً، وما يذكره مرسلاً ومحذوف القائل أولى، وهذا كما يوجد ذلك فى مصنفات الفقهاء فإن فيها من الأحاديث والآثار ما هو صحيح ومنها ما هو ضعيف ومنها ما هو موضوع، فالموجود فى كتب الرقائق والتصوف من الآثار المنقولة فيها الصحيح وفيها الضعيف وفيها الموضوع»[1].

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٠ / ٦٧٨.

فشيخ الإسلام قبل ذكر رأيه فيما نسب للداراني قرر قاعدة مهمة، وهي: أنه ليس كل ما يروى في هذه الكتب مما يُسلّم بنسبته لقائله، بل نلمس أن ابن تيمية يميل بالقارئ إلى شدة الاحتراز في ذلك، وهذا واضح من كلامه. وإن كان الكلام حسناً نجد أن ابن تيمية يتناوله بشكل مغاير، فقد قال في كلام نقله القشيري عن بعض الأعلام، قال: «وكذلك ما ذكره ـ أي القشيري ـ عن الفضيل بن عياض أنه قال لبشر الحافي: الرضا أفضل من الزهد فى الدنيا، لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته». ثم علّق عليه ابن تيمية، قال عنه: «كلام حسن، لكن أشك فى سماع بشر الحافي من الفضيل»[1]. فهنا أثنى على الكلام لحسنه، وعرّض بشكه في ثبوت النقل عن الفضيل.

ومثال آخر، فقد نقد ابن تيمية ما روي عن الإمام الجنيد رحمه الله، قال: «وما نُقل عن الجنيد أنه قال: انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة، فهذا ما أعرفه من كلام الجنيد، وفيه نظر هل قاله؟! ولعل الأشبه أنه ليس من كلامه المعهود، فإن كان قد قال هذا فأراد عدم العلم بما لم يصل إليه، لم يرد بذلك أن الأنبياء والأولياء لم يحصل لهم يقين ومعرفة وهدى وعلم، فإن الجنيد أجلّ من أن يريد هذا، وهذا الكلام مردود على قائله»[2].

وقد ذكر ابن تيمية قاعدة عظيمة في الأدب مع أقوال شيوخ التزكية

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٠ / ٦٨٦.

(٢) السابق، ١١ / ٣٩٣.

والتربية، قال: «لكن الشيوخ الذين عُرف صحة طريقتهم عُلم أنهم لا يقصدون ما يُعلم فساده بالضرورة من العقل والدين»[1].

ويناسب هنا أن أنقل كلاماً مهما لتلميذه ابن القيم ، قال : «العلم بمراد المتكلم يعرف تارة من عموم لفظه ، وتارة من عموم علته ، والحوالة على الأول أوضح لأرباب الألفاظ ، وعلى الثاني أوضح لأرباب المعاني والفهم والتدبر».[2] ورحم الله الشيخ وتلميذه .[3]

التوسط في تقييم كلام أهل التربية والسلوك:

إن عرض كلام السلف على الكتاب والسنة و إصدار الحكم عليه لا يُقبل من كل أحد، بل هو من اختصاص أهل العلم والفقه، فلا نقبل رد كلام السلف من طالب علم مبتدئ قد يكون فاته أصل شرعي يوافق هذا الكلام، أو شيء من فعل بعض الصحابة أو إقرارهم لهذا الفعل ثم إنه قلما أخطأ أحد علماء السلف إلا وجدت من علماء السلف من تصدى لما قاله بالرد العلمي، أيا كانت منزلة القائل،وتجد هذا في تراجم العلماء كثيراً.

---

(١) ابن تيمية، الفتاوى، ١١ / ٣٩٣.

(٢) ابن القيم، إعلام الموقعين ، ١ / ٢٨٢.

(٣) لايمكن تجاهل دور الامام ابن تيمية في تنقيح وتحرير الفكر الإسلامي التربوي، وإذا كان الغزالي هو المجدد المؤسس لهذا العلم، فإن ابن تيمية هو المجدد المنقح له بعد ذلك، فإن المقاصد الشرعية من التزكية والتربية، ووضوح المعايير الشرعية في نقد وتقويم الفكر التربوي الإسلامي كانت حاضرة لدى ابن تيمية أكثر من الغزالي، رحمهما الله .

ولقد بين هـذا المنهـج الإمام المحاسبي، قال رحمه الله: «وكل أمر لاح لك ضوءه بمنهاج الحق، فاعرضـه على الكتاب والسنة والآداب الصالحة، فإن خفي عليك أمر فخذ فيه رأي من ترضى دينه وعقله»[1].

أسباب الرد الجائر لكلام أهل التربية والتزكية:

وإن كان ماسبق فيه تحذير من الغلو في الاستدلال بالتراث المنقول عن السلف، فإننا هنا نحذر أيضاً ممن يقلـل من القيمـة العلمية والتربوية له ، أو يتعجل في رد مانقل عنهم، وهذا لأسباب من أهمها:

السبب الأول ـ قلة الفهم يؤدي للاستعجال في الإنكار:

لقد ذكر العلماء أن من أسباب رد البعض لشيء من كلام أهل التربية والسلوك هو غيـاب معناها عنهـم، فيتمسكون بما يعرفون فقـط مما يـؤدي لإنكار شيء من الصواب، وفي هذا المعنى يقـول الشاطبي رحمـه الله: «غـير أن الفتيا بمثل هذا اختصت بشيوخ الصوفية، لأنهم المباشرون لأرباب هـذه الأحوال»[2]. أي أن بعض العلوم يفقهها ويفتى بها من تخصص بها من أهل العلم، وقد كان المتخصص في علوم التربية في زمان الشاطبي هـم المتصـوفة، لكن لايقبل منهم دون عرض على الشرع .

---

(١) المحاسبي، أبو عبدالله الحارث بـن أسد البصري (٢٤٣ هـ) ، رسالة المسترشدين، تحقيق عبد الفتاح أبوغدة رحمه الله، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط ٥، ١٩٨٣م، ص: ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) الشاطبي، الموافقات، ٤ / ٢٤٢. وانظرماذكره ابن تيمية ، الفتاوى ، ١١/ ٣٩٣ .

السبب الثاني ـ قسوة القلب وبعده عن المعاني التربوية:

لقد ذكر العلماء سبباً آخر جعل بعض الناس يذم شيئاً من كلام أهل التربية والسلوك، وهو قسوة القلب وبعده عن المعاني التي يتكلمون بها، فيتهمهم جملة بالبعد عن الشرع والابتداع، ، قال ابن تيمية في ذلك: «وقد يذم حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرين عليها والجفاء عن الدين ما هو مذموم، وقد فعلوا، ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم»[1]. أي أن القسط في التوسط بين الأمرين .

فبعض هذه العبارات والإشارات هي فتوح من رب العالمين، وما دامت لا تتعارض مع الشرع فهي مقبولة، أما في حال كوننا لا نفقهها أو لا ندرك المقصود بها فلا يسوغ ذلك لنا ردها، فخير الأمور الوسط.

وقد ذكر ابن القيم أن هناك نبعاً عذباً يستقي منه أهل التربية والسلوك، قال: «فإن بهذه البصيرة تتفجر من قلب صاحبها ينابيع من المعارف التي لا تنال بكسب ولا دراسة، إن هو إلا فهم يؤتيه الله عبداً في كتابه ودينه على قدر بصيرة قلبه»[2].

إن ما سبق ذكره من كلام ابن القيم والشاطبي لايتنافى مع ماتم

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١١ / ٩، وانظر ما ذكره في ذلك ايضا: ١١ / ٣٤٢ ـ ٣٤٥.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، ١ / ١٢٩.

تقعيده سابقاً في أهمية العرض على الشرع .

ومن المناسب ذكر ماقاله الإمام ابن الجوزي رحمه الله في وصفه لكثير من كلام المتصوفة أنهم ينقلون عن بعضهم البعض بدون فهم ولاتحقيق[1]، وفي كلامه شيء من الصحة ولاشك !

٥ ـ قاعدة في: الاستفادة من كتب التربية والتراجم:

لقد سبق بيان كيفية الاستفادة من المنقولات التراثية عن السلف في التربية والتزكية، وأتناول هنا موضوعاً أعم؛ هو الاستفادة من المصنفات في التربية والتزكية، فإنه قد يكثر الانتقاد لبعض الكتب، وقد يحذر من بعضها، وقد يكون هذا النقد صواباً وفي مكانه، لكن ما هو المنهج الصحيح في التعامل مع مثل هذه الكتب، وهل يعني ذلك أن يعرض المربي عن قراءتها والاستفادة منها؟! إن القاعدة الشرعية في التعامل مع هذه القضايا هي الملخصة في : أن الحكمة ضالة المؤمن، لذا يطلبها من كل أحد ويأخذها أياً كان مصدرها، بل قد قبلها أبو هريرة من الشيطان وأقرّه النبي ﷺ على ما نصحه به الشيطان، في قوله ﷺ: (أما إنه قد صدقك وهو كذوب)[2]. وأمر الاستفادة من المسلم مهما بلغ خطؤه أهون من ذلك ولا شك، لذا تعجب

---

(١) انظر كلامه في؛ تلبيس ابليس ، ١٨٨ ـ ١٩٣، والامام ابن الجوزي رحمه الله من العلماء المحققين ، الذين اعتنوا بدراسة الفكر الصوفي ، وكتاباته مهمة في فهم ونقد الفكر الصوفي ، وخاصة ماذكره في كتابه ؛ تلبيس إبليس .

(٢) رواه البخاري، ٤/ ٣٩٦.

من يحجّر ويضيّق ذلك فيمنع الناس من الأخذ من كتاب لأن فيه أخطاء، أو الاستماع لعالم لأن لديه أخطاء، وهذه من التصرفات التي تُنبئ عن ضيق في الفكر والصدر، فلا زال الناس يسمعون ويأخذون من بعضهم البعض مع وجود الملاحظات والمآخذ، ولو تأملنا لوجدنا أن كثيراً من كتب التفسير لم تسلم من مقال، ومثلها شروح الحديث، ولو عملنا بهذه القاعدة لما قرأنا في كثير من أمهات كتب التفسير وشروح الحديث!

أمثلة طلب الحكمة:

إن من أمثلة الاستفادة ممن قد لا يُرضى عن منهجه في التربية ماذكره الإمام الشافعي عن الصوفية واستفادته منهم، فقد قال رحمه الله: «صحبتُ الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين، أحدهما: قولهم الوقت سيف فإن لم تقطعه قطعك، ونفسك إن أشغلتها بالحق وإلا اشغلتك بالباطل»[1].

ويقول ابن القيم واصفاً طريقة الصادقين في أخذ أحسن ماعند كل طائفة: «والبصير الصادق يضرب في كل غنيمة بسهم، ويعاشر كل طائفة على أحسن ما معها، ولا يتحيز إلى طائفة وينأى عن الأخرى بالكلية ألَّا يكون

---

(١) ابن القيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، تحقيق سعيد اللحام وزميله، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ص: ١٠٩. وقد أوردها ابن القيم في مدارج السالكين، وعلق عليها: «يا لهما من كلمتين ما أنفعهما وأجمعهما، وأدلهما على علو همة قائلهما، ويقظته، ويكفي في هذا ثناء الشافعي على طائفة هذا قدر كلماتهم». المدارج ٣/ ١٠٥.

معها شيء من الحق، فهذه طريقة الصادقين»[1].

فالمنهج الصواب طلب الحكمة وقبولها ، أما مانسمعه من تشدد البعض في عدم قبول أي شيء من مرب أو مؤلف لخطأ وقع فيه، أو اجتهاد جانبه فيه الصواب ؛ فهذا فيه تفويت للفائدة والحكمة ، وإن معيار أو ميزان الأخذ والرد لأقوال العلماء والمربين إنما هو العرض على نصوص الكتاب والسنة ومقاصد الشريعة، فإن وافقهما أخذ به وإلا رددناه، وقد سبق تفصيل هذا.

الاستفادة من المصنفات التي فيها شيء من الخطأ:

إن طلب الحكمة يقتضي الاستفادة من المصنفات والكتب التي تشوبها أخطاء، فلا يذم الكتاب ويترك مطلقاً، بل يستفاد مما فيه من الخير، وأي كتاب بعد القرآن لم ينتقد فيه شيء، ولكن تتفاوت الكتب في مقدار الخطأ فيها، ويختلف باختلاف القارئ وقدرته على تمييز الصواب من الخطأ، والأصل في هذا عدم هجران المصنف لوجود الخطأ، وانظر ما قاله الذهبي عن الإحياء للإمام الغزالي: «أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير، لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية»[2]. وقد أحسن الذهبي في هذا القول، فلا يُحثّ العامي أو الشاب الناشئ على مطالعة الإحياء، فإن هذا مظنة لدخول الشُبه عليه

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ٢ / ٣٧٠.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ١٩/ ٣٤٠.

أو إشغاله بما لا ينفع، وفي ذات الوقت لايُنهى طلبة العلم وأهل التربية عن الإطلاع والاستفادة منه ، فمن يقرأ في سائر كتب التربية والسلوك المؤلفة بعد الإحياء يظهر له مدى استفادة جميع من تكلم في التربية والسلوك والزهد منه، فقد حوى كتاب إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي الكثير من الأفكار والفوائد التي تفرّد بها، بالإضافة إلى حسن تقسيمه أبوابه وترتيب مواضيعه، وينقل من أتى بعده كثيراً منها عنه، وقد تُنسب تلك الفوائد إليه وقد لاتُنسب، وكثير ممن صنف في التزكية بعد الغزالي سار على ترتيب الإحياء للأبواب، فكتابه هو الأصل لكثير من كتب التربية التي جاءت بعده.

وهناك مختصرات للإحياء نافعة جداً، وقد قام مؤلفوها بتنقيتها من كثير من الزلات والشوائب التي وقعت في كتاب الإحياء، منها منهاج القاصدين للإمام ابن الجوزي ، وذكر في مقدمته أن من أهداف الاختصار تجنب شوائب وزلات الإحياء ، ومن أفضل المختصرات، ماصنعه أحمد بن محمد بن عبدالرحمن بن قدامة المقدسي (٧٤٢ هـ)، في كتابه مختصر منهاج القاصدين، وهو اختصار لكتاب ابن الجوزي، واختصار ابن قدامة للمواضيع جيد ،ويغني عن كثير من المباحث المطولة لدى الإحياء[١] .

تقييم ابن تيمية وغيره لكتب أهل السلوك:

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فإنك تجد عنده من الإنصاف ما لا تطيقه

---

(١) وقد اختصر الامام الغزالي كتابه إحياء علوم الدين، واسمه: لباب الإحياء، وهو مطبوع، في مجلد واحد، نشرته دار البيروتي .

إلا النفوس الكبيرة ، ومثله تلميذه الإمام الذهبي رحمهما الله ولعل الإنسان لو اطلع على نماذج من تقييم ابن تيمية وغيره لكتب التصوف والترجم أن يثري نفسه بالمنهج الوسط في الاستفادة منها[1] .

* * *

خامساً ـ أثر غياب القاعدة

قد نبه النبي ﷺ أمته إلى أهمية التمسك بالكتاب والسنة، ويدرك من مفهوم مخالفة ذلك الأمر، الأثر السيئ لغياب هذا الأصل في التربية، قال ﷺ: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه)[2]، فإن كل من يحيد عن هذه القاعدة سيضل عن الطريق المستقيم، والتاريخ والواقع يشهدان بذلك .

ومن أهم آثار غياب قاعدة الاتباع:

١ـ التعبد بكيفيات وألفاظ لم ترد:

إن من أهم ما ينافي قاعدة الاتباع أن يسلك المرء في تزكيته لنفسه

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ، ١٨/ ٧٣ ، وقد نقل الذهبي عن أبي طاهر السِّلفي قوله في كتاب الحلية لأبي نعيم الأصبهاني: «لم يصنف مثل كتابه حلية الأولياء». انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ١٧/ ٤٥٨، وانظر في الثناء عليه ما نقله الذهبي في السير: ١٧/ ٤٥٩، وكلام البغدادي في تاريخه: ١٧/ ٤٥٦.

(٢) رواه مالك في الموطأ (١٣٩٥)، ورواه الحاكم بلفظ آخر وصححه، وحسنه الألباني.

عبادات يبتدعها من نفسه، لم ترد عن النبي ﷺ وفي المقابل يترك ما ورد عن النبي ﷺ في التعبد، ومن أمثلة ذلك الابتداع في الأذكار والأوراد، فإنه وقع من بعض المسلمين ترك المأثور منها، والاستعاضة عنه بأوراد وألفاظ من اختراع الناس، ومن ذلك استبدال ألفاظ التسبيح والتهليل بألفاظ مبهمة، أو الفاظ مبتكرة مبتدعة ، لم ترد بالشرع. فبدلاً من سبحان الله وبحمده، وسبحان الله العظيم التي حثّ عليها النبي ﷺ، هناك لفظ الجلالة وحده: الله، الله! أو ذكرهم إياه تعالى بالضمير الغائب وهو قولهم: هو، هو! وهذا الأخير عند بعض الناس أفضل من الذكر بلفظ الجلالة: الله، الله![1]. وكم تعجب لهذا الابتداع ،والنبي ﷺ قد دلنا على مايحب الله من الذكر ، وأن أحب الكلام إلى الله أربع : (سبحان الله ، والحمدلله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر)[2] .

٢ـ وضع أسس في العبودية تخالف ما جاء في الشرع:

إن المقصود بوضع أسس في العبودية : وضع مفاهيم في العبودية لا أصل لها في الشرع ، بل وقد تخالف الشرع صراحة أو ضمناً، وهذا مثل قولهم: إنا نعبد الله محبة له وشوقاً إليه، لارغبة في الجنة، ولا رهبة من النار! ويعنون بذلك أنهم إنما يريدون الله، لايهمهم أمر الجنة، ولا يخافون من النار، ويعدون هذا المقام من أكبر المقامات والمنازل وأشرفها، مع أن النبي ﷺ

---

(١) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٠ / ٣٩٦.

(٢) رواه مسلم .

قال: (أنا أشدكم لله خشية)، وكان يسأل الله الجنة ويستعيذ من النار، وعلّم ذلك لأصحابه ! وهذه الصورة مثال آخر لأثر الانحراف عن قاعدة الاتباع[1].

٣ـ اعتبار ما لا أصل له مقياساً للخيرية:

إن من الآفات التي دخلت على طوائف من الأمة بسبب جهلهم بالشرع، جعلهم بعض التصرفات والأعمال من علامات حب الله وكمال عبادته، بل وجعلها مقياساً للخيرية و الصلاح دون دليل من الشرع، فجُعل ترك النكاح علامة للزهد وهكذا.

وقد أجاد ابن القيم في تعليقه على مقام الحزن الذي أورده الهروي في منازل السائرين، قال رحمه: «ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الحزن، وليست من المنازل المطلوبة، ولا المأمور بنزولها، وإن كان لا بد للسالك من نزولها، ولم يأت الحزن في القرآن إلا منهياً عنه أو منفياً[2]». فبين أن منزلة الحزن التي يكثر البعض الحديث عنها وعن فضلها وعلو مرتبتها ليست مقصودة في الشرع ابتداء، بل هي مذمومة.

ومثل هذا جعلهم ترك التبسم من علامات الخيرية ،وقد علق الذهبي على ما يروى عن ابن علية رحمه الله، فقد قال ابن زرارة: «صحبت ابن علية أربع عشرة سنة فما رأيته تبسم فيها!». وهذا الخبر يروى في

---

(١) انظر أمثلة على ذلك في ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٠ / ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٩١.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين ، ١/ ١٤٢.

فضائل ابن علية، لذا علّق الذهبي على ذلك، قال: «ما في هذا مدح ! ولكنه مؤذن بخشية وحزن»[1]. والأمر كما قال الذهبي، فكل من يدرس سيرة النبي ﷺ يجد أنه كان كثير التبسم ﷺ، وهو أكثر الناس خشية لله .

ومن ذلك أيضا ما يمدح به البعض من قصر الأمل، ويستشهد على ذلك بأنه كان إذا قضى حاجته والنهر منه قريب أنه يتيمم خوفاً من موته من غير طهارة! وهذه مما لا أصل لها، ولم يوردها الفقهاء في حالات إباحة التيمم، بل ولم يفعلها خير الناس وأكثرهم خشية وقصراً للأمل، وهو رسول الله ﷺ، وهي من التنطع في الدين .

ومن صور هذه الخيرية المتكلفة: الانشغال بدقائق لا أصل لها والالتهاء بها، وجعلها من الفضائل التي هي من مقتضيات التنسك والعبادة، ومن صور ذلك ما أخذه المازري على الإمام الغزالي في الإحياء، قال المازري: «ويستحسن أشياء مبناها على ما لا حقيقة له، كقصّ الأظفار أن يبدأ بالسبابة، لأن لها الفضل على باقي الأصابع، لأنها المُسبّحة، ثم قص ما يليها من الوسطى، لأنها ناحية اليمين! ويختم بإبهام اليمنى، وروى في ذلك أثراً»[2]. والواقع يشهد أنه ما شغل أحد نفسه بمثل هذه الأمور إلا وقد ضيع من الدين ما هو أهم.

---

(١) محمد عقيل موسى، نزهة الفضلاء، ٢/ ٦٩١.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٣٤٢، وقد علق الذهبي على هذا الأثر، قال: هو أثر موضوع. انظر المرجع نفسه.

استدلالهم على مايذكرونه من خيرية مزعومة:

قد يستدلون على مايذكرونه من خيرية مزعومة إما بأحاديث موضوعة، وإما بالاتباع لمشايخهم، أو بالكشوف والهواتف، أوالرؤى والمنامات، وكذلك يستدلون بأثره على إصلاح النفس، فيكـون الدليل عليـه حصول المصلحـة أو الأثـر منـه، كحضور القلـب أو دمع العـين، وقـد مـر معنا أن هذا كله لايصلح دليلاً على خيرية عمل ما .

٤ـ وضع قواعد في التربية، دون أصل شرعي يسندها:

ومن ذلك وضعهم لقاعدة : ترك العمل للنقص يطرأ عليه ،وهذا يناقض القاعدة التي سبـق ذكرها : أنه لايترك العمل الصالح لعيـب يطـرأ عليه . وقد غاب عن من ابتكر هذه القاعدة أن الكـمال في الأعـمال نـادر ، مثل كمال الإخلاص أو الخشوع ، ولو تـيسر للشخص في حالة فقد لايتيـسر له في حالات أخرى .

ومن الأمثلـة المروية في تطبيقهم لهذ القاعدة ، كرههم لذكر الله عـلى غفلة ، فيروى أن الشبلي سمع رجلاً يقول: جلّ الله. فقال الشبلي: أُحبُ أن تجلّه عن هذا![1] فقد نظر الشبلي لغفلـة الذاكر عن الذكر، رغم أن الـذِّكر مع الغفلة خير من عدم الذِّكر أصلاً.

٥ ـ معاقبة النفس على التقصير:

إن معاقبـة النفس على التقصير أو الوقوع في الذنوب من عمـل أهـل

---

(١) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ٣/ ٤٦.

الكتاب، وقد أخذها منهم بعض العباد بنية التقرب إلى الله، والمقصود بها: أن يعاقب نفسه أو يعاقب العضو الذي اقترف الذنب منه، وتسرد القصص العجيبة في هذا المضمار، فهذا أحرق يده، وذاك لطم عينه لأنها نظرت لمحرم، وذاك لم يلبس نعالاً في قدمه لأنها مشت إلى معصية؟! وهكذا..، ولو قال أحدهم أستغفر الله مرة واحدة لكانت خيراً وأزكى له عند ربه بلا خلاف عند العلماء، وكذلك في علاج أمراض القلوب، كعلاج مرض الكِبر أو العجب بالنفس، يوصونه بأن يحقّر من نفسه ويهينها أمام الناس بما لايقبله عاقل؟![1]. وهذا كله مخالف للمنهج الشرعي وهدي النبي ﷺ في التربية والتزكية.

❐❐❐

(١) انظر في أمثلة ذلك ما أورده الغزالي: إحياء علوم الدين، ٤ / ٣٥٨.

الفصل الثاني

القواعد المحققة لمقصد التحلي بالصبغة الربانية

ويشتمل على قاعدتين :

* الشمولية .

* مراعاة الأولويات .

الفصل الثاني

القواعد المحققة لمقصد التحلي بالصبغة الربانية

* تمهيد:

لقد سبق في الفصل الأول بيان القواعد الكلية الأساسية في الفكر التربوي الإسلامي ، أما الفصل الثاني والثالث فيشتملان على القواعد التي توضح الآلية والكيفية التي ينبغي أن يتعامل بها المربي والمعلم والواعظ، وعموم المصلحين مع من يربونهم، فإذا كانت القواعد الأربع الأولى هي عمود وأساس التزكية والتربية، فإن هذه القواعد الست قواعد الوسائل، أو القواعد الإجرائية التي بها تتحق القواعد الأساسية، أي إنها الجسر الذي يعبر عليه المربي لتحقيق جوهر التربية .

لذا يصعب تحقيق القواعد في الفصل الأول إن أهملنا القواعد الواردة في الفصلين الثاني والثالث، فإن بين هذه القواعد علاقة تكامل واضحة، كما هو الحال دائماً بين الغايات والوسائل. وإن كثيراً من التعثرات التربوية ناتجة في حقيقتها عن الإخلال بهذه القواعد الإجرائية، التي يمكن وصف بعضها بأنه من نواميس وسنن هذه الحياة، التي يصعب إهمالها وتجاوزها.

المراد بصبغة الله:

الصبغة هي الطلاء الذي تُطلى به الأشياء، فيأخذ لونها، وصبغة الله: هي الصفة التي يحب الله أن يتحلى بها المسلم، وقد امتدحها في كتابه الكريم: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[البقرة: ١٣٨]. فكأنما اصطبغ هذا المرء كله بصبغة أو طلاء رباني، يعم ظاهره وباطنه، ويشمل كلامه وسكوته، وسلوكه وسكونه، فيتميز به بين الناس.

القواعد التي يشملها هذا الفصل:

الفصل الثاني يشتمل على قاعدتين؛ قاعدة الشمولية في التربية، وقاعدة الأولويات في التربية.

فقاعدة الشمولية؛ هي قاعدة موضحة لمفهوم أساسي في التربية، مرتبط بمفهوم صبغة الله التي لا يتصور تحققها إلا بشمولية التربية، وتتناول القاعدة كيفية تحقيق الشمولية بمراعاة الحد الأدنى من كل تكليف، وطرق معرفة الحد الأدنى من كل تكليف شرعي. وأما **قاعدة مراعاة الأولويات في التربية**، فهي تتناول فقه الأولويات في التربية، ويمكن القول إنها قاعدة مخصصة لقاعدة الشمولية ومفسرة لها، وتعرض المعايير المعتبرة في معرفة الأولى من مواضيع التربية وتكاليف التزكية بالنسبة لكل إنسان أو مجتمع، مع إيراد أمثلة على تطبيقات أساسية لهذه القاعدة التربوية، مثل تقديم: الباطن على الظاهر وغيرها.

* * *

القاعدة الخامسة
الشمولية

أولاً ـ المراد بالقاعدة

الشمولية في اللغة مأخوذة من العموم والسعة[1].

والمراد بالشمولية في التربية : أن تكون التربية مستوفية لجميع الجوانب التربوية المتعلقة بالعبادة والسلوك والأخلاق وأعمال النفع المتعدية وإعمار الأرض . حتى تثمر التربية شخصية متكاملة ومتجانسة مع الكون من حولها، تتوفر فيها المقومات الإيمانية والسلوكية والعلمية والحياتية، ويمكن وصفها بأنها مصطبغة بصبغة الله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨]. وتسميتها صبغة الله لأنها تُظهر أعمال التديُّن وسمته على المتديّن كما يظهر أثر الصبغ في الثوب[2]. وهذه الصبغة الجميلة المبنية على ماسبق من قواعد لا تتصور دون شمولية في أخذ الدين ، فإنه بدونها تكون تلك الصبغة

---

(١) انظر: الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (٧٧٠ هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٤، ص: ٣٢٣.

(٢) انظر: القرطبي، الجامع في أحكام القرآن، نسخة الكترونية، سورة البقرة: ١٣٨ .

أقرب للتلطيخ والتبقيع المشوّه منها إلى الصبغة العامة الجميلة التي تعم الإنسان في باطنه وظاهره .

* * *

ثانياً ـ الأصل الشرعي للقاعدة

إن من الأصول الشرعية للقاعدة قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾[البقرة: ٢٠٨]. أي في جميع خصال الإسلام[١]، والإسلام يشمل جميع المعاني الإيمانية والسلوكية والأخلاقية، فليس هو في جانب دون آخر، ومن الأدلة قول الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾[المائدة: ٣]. وهذه المنّة بإكمال الدين لا معنى لها إذا لم يكن المرء مطالباً بتحقيق جوانب الدين كلها في نفسه.

ومن السنة النبوية: حديث شعب الإيمان، وهو دستور للتربية الإسلامية ، وفيه أن الإيمان يتكون من بضع وسبعين خصلة أو عملاً، يشمل ذلك الأعمال العبادية المحضة والأخلاق والأعمال متعدية النفع، فبدأ بالتوحيد، ومرّ بالحياء، وانتهى بإماطة الأذى عن الطريق، قال ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[٢]. ومن الأصول الشرعية التي

---

(١) انظر: الشوكاني، فتح القدير، نسخة الكترونية، سورة البقرة: ٢٠٨.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

تشـير لأهميـة شمول التربيـة للجوانب كلها، قصة عمر رضي الله عنه حين قال النبي ﷺ: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده. فقال عمر للنبي ﷺ: إنه أحب إليه إلا من نفسه؟ فقال له النبي ﷺ: حتى من نفسك؟ فقال عمر: يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى مـن نفسي. فقال النبي ﷺ: الآن ياعمر. فالنبي لم يـرض لعمـر أن يـترك شـيئاً مـن الدين وهو أن يكون النبي أحب إليه من نفسه[1]. وقد حسد اليهـود المسـلمين على شمولية الدين، فقالوا لسلمان الفارسي رضي الله عنـه مسـتهزئين بتعلـيم النبي ﷺ للصحابة كل شيء، حتى قضاء الحاجة؟! فزادهم سـلمان الفـارسي غيظاً بأن أقرهم على ذلك، وزادهم بأن ذكـر لهـم شيئاً مما علمهم النبي ﷺ من آداب قضاء الحاجة من عدم استقبال القبلة ونحو ذلك[2].

* * *

ثالثاً ـ من فقه القاعدة

١ ـ تكامل الدين الإسلامي وشمولية التربية:

أهمية قاعدة الشمولية في الفكر التربوي الإسلامي:

هذه القاعدة رغـم أهميتها إلا أنها مهملـة في الفكـر التربـوي لـدى المسلمين، وقد توارث المسلمون إهمالها جيلاً بعد جيل، ومتى قـيّض الله لهـا

---

(١) رواه البخاري.

(٢) أصل الحديث لدى مسلم، كتاب الطهارة، باب الاستطابة.

من يحييها من الفقهاء والمربين وجدت أثر إحيائها على المجتمع في كل جوانبه[1]. ولو تأملنا لوجدنا أن أهم مايقوم به العلماء المجددون **هو احياء فكرة الشمولية لدى أبناء جيلهم** . فالشمولية طاردة لنزعة الانتقائية القائمة على الذوق والهوى والمزاج الشخصي أو الجماعي.

وكذلك فإن أهمية قاعدة الشمولية في كونها أصل داعم لسائر القواعد التربوية، فمن لا يؤمن بشمولية الدين لا يمكن أن تحدثه عن الأولويات، فكيف يقيم قاعدة الأولويات التي قد يكون فيها الكثير من مخالفة رغبات النفس من لم يؤمن بشموليته ؟!

ثقل مفهوم الشمولية على العقول الضيقة:

إن شمولية الدين من أصعب المفاهيم على العقول الضيقة ومن أثقلها على النفوس الضعيفة، لأنها لا تطيق هذه الشمولية الرفيعة المتوازنة ، لذا نجدها تميل لاجتزائه في جانب منه، أو تبتسره في شكليات وسلوكيات، ولو تلفتنا في تاريخ الانحرافات التربوية عبر التاريخ الإسلامي وجدنا الشمولية هي من أوائل المبادئ التي يتخلى عنها المسلمون .

ومن أسباب التفريط في الشمولية أنه يلزمها قوة وجدية، وبين تناول ابن القيم أنواع الناس في عبوديتهم لله، وذكر أنه هناك من يغلب عليه عمل

---

(١) هذه القاعدة أصل في الدين الاسلامي، وليست خاصة بالجانب النربوي، ففي الدخول في الإسلام نحن مطالبون بالشمولية، وفي طلب العلم هناك شمولية، في حياتنا الدنيوية نحن مطالبون بها كذلك.

الجوارح والبدن، وهناك من يغلب عليه أعمال القلوب، ثم علق رحمه الله: «ومنهم؛ وهم الكمل الأقوياء؛ من يعطي كل مرتبة حقها، فيسير إلى الله ببدنه وجوارحه، وقلبه وروحه»[1].

ومن أسباب التفريط في الشمولية أنها تتطلب إلماماً كبيراً وواسعاً بهذا الدين .

إن المدخل لإدراك شمولية التربية يبدأ من فهمنا للتكامل في شرائع الدين الإسلامي، الذي يمكن تشبيهها بنسيج الثوب الواحد، أو أركان البيت الواحد، يشدّ بعضها بعضاً ويكمّل بعضه بعضاً، فلا يصح أن نجزأه بالإتيان بجانب منه وترك جانب آخر، لأن في هذا هدم له في حقيقة الأمر.

ومن صور ذلك الاجتزاء: أن نقوم بالإسلام في جانبه العبادي ونترك الجانب السلوكي، أو نقوم به في جانبه الأخلاقي ونترك جانب إعمار الأرض ، أو نلتفت لصلاح قلوبنا وروحانيتها ونهمل بطون جوعى أو بشراً يصرخون من ألم البرد أو لهيب الحر.

إظهار الشمولية بواسطة جمع شعب الايمان:

قال رسول الله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[2].

إن هذا الحديث أصل عظيم في بيان تعدد وتكامل هذا الدين، وعليه بنيت

---

(١) المدارج، ٣ / ٩٨.

(٢) رواه مسلم.

كتب تناولت هذه الشعب بالبيان والتوضيح، ومن أهم الكتب التي قصدت جمع شتات التربية الاسلامية بواسطة بيان شعب الايمان هو ما ألفه الامام البيهقي رحمه الله في كتابه الجامع لشعب الإيمان. وقد جمع في كتابه بضعاً وسبعين شعبة إيمانية، بدأها بما جاء في الحديث المشهور السابق ذكره، مروراً بشعب مختلفة تناولت الحياة الشخصية والآداب والمعاملات وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وتناولت المسؤوليات العامة والخاصة، مستنداً في كل شعبة إلى النصوص الشرعية، وهذا التكامل يؤكد أن هذا الإيمان ليس محصوراً في جزء من الدين كما يريد البعض .

ولو أن أهل الوعظ والتربية شرحوا حديث شعب الإيمان للناس مرات ومرات ، وسردوا لهم الشُّعب التي ذكرها الإمام البيهقي وغيره ، لكان أنفع لهم من تكرار الوعظ الضيق على معانٍ زهدية وسلوكية تختص بدائرة الإنسان الضيقة مع نفسه .

مثال الطائر:

إن من الأمثلة التي ضربها المربون الأوائل لتقريب مفهوم التكامل في التربية الإسلامية تشبيههم المؤمن بالطائر، فقالوا: إن الرجاء والخوف جناحا ذلك الطائر، فلا يمكنه أن يطير بأحدهما دون الآخر. أي كما أن الطائر لايطير بجناح واحد فقط، فكذلك في التربية لا يمكن أن يُزكي المرء نفسه بأن يأتي بشيء من الدين ويدع شيئاً.

٢ـ صبغة الله:

إن صبغة الله جمال للمسلم وزينة، وهذه الصبغة تتحقق بالتزام

جوانب الشرع كلها، فلا تُخطئ العين جمال من اصطبغ بلباس الشرع وتجمّل به، وقد وصف ابن القيم المُتحلّي بصبغة الله بأنه: «السالك إلى الله في كل واد، الواصل إليه من كل طريق، فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه، ونصب عينه، يؤمها أين كانت، ويسير معها حيث سارت، قد ضرب مع كل فريق بسهم، فأين كانت العبودية وجدته هناك، إن كان علم وجدته مع أهله، أو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أو صلاة وجدته في القانتين، أو ذكر وجدته في الذاكرين، أو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أو محبة ومراقبة وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين، يدين بدين العبودية أنّى استقلت ركائبها، ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها.»[1]

٣ـ لكلٍ سيّد من عمله:

إن الحديث عن الشمولية لا يعني أن يكون المرء متحلياً بجميع الجوانب الخيرية بنفس القدر، فقد يُفتح للمرء في باب من أبواب الخير أكثر من غيره، قال عون بن عبد الله رحمه الله: «إن لكلّ سيّد من عمله ، وإن سيّد عملي الذكر»[2]. فلا بأس أن يُعطي المسلم جهده لجانب لكن مع تحقيقه للحد المعقول من بقية الجوانب ، فإن : « من الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلى الله طريق العلم والتعليم، قد وفر عليه زمانه مبتغياً به وجه الله، ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر، وقد جعله زاده

---

(١) ابن القيم، طريق الهجرتين، ٢٨٠.

(٢) ابو نعيم، حلية الأولياء، ٤/ ٢٤١.

لمعاده ورأس ماله لمآله، فمتى فتر عنه أو قصر رأى أنه قد غبن وخسر، ومن الناس من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدي كقضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وأنواع الصدقات،ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..»[1]. وابن مسعود رضي الله عنه لما اعتنى بجانب القرآن وتعليمه حكى عن نفسه أنه يترك صيام النفل لأجل القرآن.

* * *

رابعاً- تحقيق القاعدة وتنزيلها

١- كيفية تحقيق الشمولية في التربية:

إن الشمولية تقتضي تحلي المؤمن بالصفات التي يحبها الله من عباده، لكن ليس من شرط الشمولية تحقيق أعلى المستويات أو الكمال في سائر الجوانب التربوية، سواء منها العبادية أو السلوكية أو الأخلاقية، بل يكفي أن يُحقق المسلم منها الحد الأدنى ليكون قد قام بتلك الصفة أو العبادة، ومن أدلة ذلك أن النبي ﷺ أقرّ ذلك الأعرابي الذي سأل عن الفرائض الواجبة من الصلاة والصيام والزكاة وأنه لن يزيد عليها، فقال عنه النبي ﷺ: (أفلح إن صدق)[2].

وأهمية هذا الاعتدال في طلب الشمولية أن المربي حين يطلب من

---

(١) ابن القيم، طريق الهجرتين، ٢٧٩. باختصار.

(٢) متفق عليه.

الناس الكمال في كل شيء فهو يطالبهم ببلوغ منازل قريبة من منازل الأنبياء، وهذا شيء يكفي تصوره لمعرفة تناقضه مع الواقعية التربوية التي هي من أساسيات التربية . وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنه : (كمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران)[1]. وهذا الحديث يبصرنا بندرة هذا الكمال بين البشر .

قال النووي رحمه الله : «لفظة الكمال تطلق على تمام الشيء وتناهيه في بابه ، والمراد هنا التناهي في جميع الفضائل وخصال البر والتقوى».[2]

الحد الأدنى لتحقيق الشمولية:

لقد سبق الحديث عن صعوبة تحقيق الكمال أو أعلى المراتب في جميع الجوانب التربوية، لذا من المهم توضيح الحد الأدنى الذي يلزم توفره من كل جانب لتحقيق الشمولية، وأمر الحد الأدنى للقيام بالتكليف في الشرع يمكن معرفته من الشرع، سواء بفقه النص الشرعي، أو بالجمع بين النصوص الشرعية.

ومن الأمثلة على تبيين الحد الأدنى في التكاليف الشرعية:

١ـ في شأن الزكاة والصلاة والصيام فإن الحد الأدنى يتمثل في الفروض، وهي معلومة في الزكاة حسب نوع النصاب، وفي الصيام الحد الأدنى صوم رمضان، وفي الصلاة الحد الأدنى الصلوات الخمس المفروضة، وهذا

---

(١) متفق عليه .

(٢) النووي ، شرح صحيح مسلم ، ١٥ / ١٩٨ .

الحد الأدنى مأخوذ من الحديث المشهور للأعرابي.

٢ ـ في شأن الجهاد، نُقلت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ في مكانة الجهاد الإسلامي، وأنه فريضة، وكذلك قال النبي ﷺ: (من مات ولم يغزُ، ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق)[1]، ووجه الدلالة هنا: أن النبي جعل حداً أعلى للقيام بالجهاد، وهو الغزو، أي المشاركة في الجهاد بالنفس والمال، وجعل هناك حداً أدنى للقيام به، وهي تحديث النفس بالغزو، وهو الحد الذي يخرج به المرء من دائرة النفاق، وهذا الحد الأدنى يعني وجود الهمة والعزم لولا الظروف المحيطة بالمرء كالبر بالوالدين، أو لولا وجود حاجة لهذا الرجل في مكان آخر، كطلب للعلم وتعليم الناس ودعوتهم، كما قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وهكذا في سائر الأمور بالجمع بين النصوص الشرعية و التأمل فيها نستطيع إدراك الحد الأدنى منها.

٢ ـ الممارسات والوسائل التربوية المساعدة على ترسيخ مفهوم الشمولية:

إن مما يعين على ترسيخ مفهوم الشمولية العناية بهذه الأمور:

أ ـ القراءة والاستماع الى ما يعزز ثقافة الشمولية في التربية، إما بالقراءة في الكتب التي تتناول بيان الدين الإسلامي عامة، فتُبنى الثقافة على مبدأ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغزو.

شموليـة الإسلام، ومن ذلك أيضا القـراءة في الكتـب التـي تكلمـت عـن الكليات في الإسلام فإنها تدعم معنى الشـمولية [1]. أو أن يكـون برنـامج القراءة والاستماع متنوعاً ومتكاملاً، حتى يرسـخ الفكـر الشـمولي في العقـل والنفس .

ب ـ الجمع بين من يمتلكون خصائص وميول مختلفة، فتكون فرصـة لتبادل تلك الصفات بينهم، فالنبي ﷺ آخى بين سلمان وأبي الـدرداء رضي الله عنهما، فكان سـلمان نعم الناصح والمربي، وفي القصـة المشـهورة حـين رأى سلمان أن أبا الدرداء يصوم النهار ويقوم الليل، ولا يهتم بأمر نفسـه أو أهلـه، فقام سلمان بنصحه وتوجيهه إلى معاني الشموليـة، وإلى عـدم حصر الإسلام في زاوية العبادات القاصرة فقط، وهذا من كمال سياسة النبي ﷺ في تربيـة أصحابه.

ج ـ أن يراعي المربي عند حديثه عن الفضائل الموازنة بينها، فلا يجعل حديثه منصباً على جانب واحد من الإسلام، حتى لا ينطبع في ذهن المتلقى أن هذا هو كل الدين أو الأولى منه، فيكون فهمه للدين قاصراً وجزئياً.

* * *

خامساً ـ أثر غياب القاعدة

إن لغياب قاعـدة الشمولية أثراً على الفرد وعلى مجتمع المربين، ونبـدأ

---

(١) من الكتـب في هذا الموضوع: الكليات الأساسيـة للشريعة الإسـلامية، للـدكتور أحمد الريسوني.

بأثر غيابها على الفرد:

١ ـ أثر غيابها على الفرد:

أ ـ إن الشخصية التي تغيب عنها معاني الشمولية والتكامل في التربية يصيبها تشوّه، ويصدق القول بأنها مصابة بخلل في تركيبها، كقطعة فنية لم تكتمل، يرى البصير جانب الحُسن فيها، لكن عينه لا تغفل جانب النقص، وجميع الطوائف والشخصيات التي ضلت خلال القرون تجد عندها إهمالاً لقاعدة الشمولية في فهم الإسلام والعمل به، وقد حذّر وهب بن منبه من ذلك، فقال: «إن كان كلما كره الإنسان شيئاً من دينه تركه، أوشك ألّا يبقى معه من دينه شيء!»[١].

ب ـ إن الإعراض عن قاعدة الشمولية في التربية يفقد الإنسان الرغبة في تتميم النقص الذي عنده، وتطوير بعض الجوانب في ذاته؛ لأنه لا يراها ولايراعيها ابتداء. إن مقتضى ترك الشمولية أن تصبح التربية انتقائية بحسب الميول أو الهوى، وفي ذلك الحال يقول الإمام ابن الجوزي: «إن الأحمق يخير نفسه في الأخلاق، فما أحبت منها أحب، وما كرهت منها كره»[٢].

ج ـ إن من نتائج الجهل بمفهوم الشمولية أن يتمسك أفراد من

---

(١) أبونعيم، حلية الأولياء، ٤/ ٣١.

(٢) الإمام ابن الجوزي، أبوالفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (٥٩٧)، ذم الهوى، صححه أحمد عبدالسلام عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٩٣، ص: ٤٠.

الأمة بشيء من شريعة الإسلام، ثم يدّعي هؤلاء أنهم يمثلون الإسلام، وينسبون في ذات الوقت إلى غيرهم التفريط في الشرع، إما جهلاً أو بقصد أن ينفوا عن أنفسهم تهمة التقصير في جوانب الدين التي أهملوها .

ومن صور ما سبق:

ـ قد ترى مجاهداً شجاعاً، قليل علم بالدين، يهاجم من تفرغ للعلم والتعليم .

ـ قد ترى تقياً عابداً، حصر الإسلام في المسجد، تاركاً فريضة دعوة الناس ونصحهم، فما بالك بفريضة إعمار الأرض وإصلاحها.

ـ قد ترى الداعية الذي يتحرك هنا وهناك، لكنه فقد الرقي الأخلاقي الذي أتى به الإسلام .

ـ قد ترى طالب العلم المنكب على طلبه وتحصيله، لكن ديدنه تجهيل الناس وتخطئتهم، معرضاً عن إغاثة المكروب والملهوف، بدعوى الانشغال بالعلم .

٢ ـ أثر غياب الشمولية على الفكر التربوي لدى المربين:

إن أثر غياب قاعدة الشمولية على مجتمع المربين يظهر في فقدان القواسم التربوية المشتركة بين المربين ، وهذه الاشتراك يضمن توفر أرضية مشتركة للتعاون أو التقارب بينهم، فلا يتصور أن يتعاون الناس على الخير وأحدهم يحصر التربية في التربية الجهادية، وآخر يضيّقها على السلوك والأخلاق، وثالث يجعلها في التربية الإيمانية والروحانية فقط، ورابع يضيقها على طلب

العلم وتعليمه !

إن أهمية مفهوم الشمولية يظهر في كونه يبني الأرضية المشتركة ، وهذا يُثمر عنه التعاون والتكاتف بين المربين وتقديرهم لجهود بعضهم بعضاً في التربية، وإن اختلفت مشاربهم وتباينت اجتهاداتهم .

وإن غياب هذا المفهوم يفسر لنا شيئاً من أسباب التنازع والخصام، أو إنكار البعض لجهود الآخرين وعدم تقديرها، وهو ما نراه أحياناً بين بعض العاملين في التربية الإسلامية ، بسبب الزاوية الضيقة التي ينظرون منها للإسلام، واختزالهم للتربية في جوانب محددة .

* * *

القاعدة السادسة

مراعاة الأولويات في التربية

أولاً ـ المراد بالقاعدة

الأولوية مأخوذة من الأولى، وتأتي في اللغة بمعنى: الأحقية، والأسبقية، والأفضلية، والأجدر[1].

والمراد بمراعاة الأولويات في التربية: أن يُقدّم في التربية الأهم فالمهم، حسب المعايير المعتبرة في التقديم.

وحيث إن مصدر التفضيل والتقديم لدى المسلم هو الشرع، فعلى المربي أن يُراعي في التربية تقديم كل ما قدمه الشارع الكريم، فيعطي كل أمر من الأهمية بقدر ما أعطاه الشرع، ويقدمه على كل ما أمر الشارع بتقديمه عليه، مع مراعاة الفوارق الشخصية ما بين شخص وآخر، ومراعاة احتياج المجتمع ومشاكله الكبرى. وسنتناول ما يتعلق بمعايير التقديم، ومن ضمنها أن معايير الأولويات تختلف باختلاف الأشخاص، وكذلك في دائرة أوسع

---

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: ولي. نقلاً عن د محمد الوكيلي، فقه الأولويات، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، فيرجينيا، ط ١، ١٩٩٧، ص: ٩.

تختلف باختلاف المجتمع، من حيث أولوياته وهمومه ومشاكله،وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً.

* * *

ثانياً ـ الأصل الشرعي للقاعدة

إن من الأدلة الشرعية التي تستند عليها القاعدة قول النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه حين أرسله لليمن: (ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم...)[1]. وهذا الحديث أصل في تقديم الأولويات حسب حاجة الناس والمجتمع.

ومن الأدلة أيضاً: الأحاديث الواردة فيمن رده النبي ﷺ ممن أراد الجهاد وله والدان فقال لأحدهم: (أحيّ والداك؟ قال: نعم! قال: ففيهما فجاهد)[2]، وقال لمن له أمّ: (الزمها) [3].

وكذلك ماجاء في حديث الرجل الذي سأل عن أحق الناس بحسن صحبته، فإن فيه دلالة على مراعاة الجيل الأول لأمر الأولويات، حيث سأل

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة.

(٢) رواه البخاري، كاب الجهاد والسير، باب الجهاد باذن الابوين.

(٣) رواه النسائي.

الرجل عن أولى الناس بالصحبة، أي من يقدم منهم في ذلك؟! فأمره النبي ﷺ بصحبة أمه، وكررها ثلاثاً تأكيداً لتقدمها في مراتب الأولويات.

ومن الأدلة على ذلك أيضاً الأحاديث التي سُئل فيها النبي عن أي الأعمال خير، أو أيها أفضل؟ فأجاب النبي ﷺ بإجابات متنوعة مختلفة، باختلاف الناس، وهي تدل على مبدأ الأولوية في الأعمال . والأدلة السابقة تشمل في دلالتها مراعاة حال المستفتي في المسائل التربوية، مثلما نراعيها عند المستفتي في المسائل الفقهية.

ومما يستدل به على مراعاة الشرع للأولويات، أن الآيات القرآنية في كل فترة زمنية راعت أولويات كل مرحلة، فنجد مواضيع الآيات المكية مختلفة عن الآيات المدنية، ففي المكي كانت الأولوية للتوحيد وإثبات البعث وبيان مصير الأمم المكذبة، وفي الآيات المدنية كانت مرحلة تأسيس الدولة الإسلامية، وبيان الأحكام الشرعية للمعاملات وللأحوال الشخصية وأحكام الجهاد، وهذا من أدلة مراعاة الشرع للأولويات من الأمور في كل مرحلة.

* * *

ثالثاً ـ من فقه القاعدة

١ ـ دقة فقه الأولويات:

إن فقه الأولويات في الدين من أدق الفقه وأهمه، وسبب ذلك أنه ليس بمفاضلة بين حلال وحرام، أو مباح ومندوب، بل هو مفاضلة بين

أمرين شرعيين، واجبين أو مندوبين في ذاتهما، فمن هنا أتت دقة هذا الفقه، والموفّق من هداه الله تعالى إلى الصواب ، قال أبوحامد الغزالي: «ومن تَرَك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور، وهذا غرور في غاية الغموض، لأن المغرور فيه في طاعة، إلا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها»[1]. ولدقة هذا الفقه ذكر ابن القيم كيف يفوت ذلك الفقه حتى عقلاء الناس، قال: «فأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهم الذي لا يفوت على المهم الذي يفوت، ولا تجد أحداً يسلم من ذلك، ولكن مستقل ومستكثر»[2].

ولهذا كان فقه الأولويات من محكات العقل والحكمة، ومن آثار التجربة والفهم، لا يتمكن منه إلا من فقه الشريعة ومقاصدها، وعرف أحوال الناس والمجتمعات، وكل من فقد شيئاً مما سبق استعصى عليه تنزيل فقه الأولويات على واقعه، وأضاع الأولى بما هو أقل منه.

حال الناس عند تزاحم التكاليف الشرعية:

إن الفرق بين الناس لايظهر في الحالات العادية، لكنه يظهر عندما تتعقد الامور وتلتبس في العقول ، فهنا يظهر أثر البناء الفقهي والتربوي لدى المربي والمتربين، وقد ذكر ابن القيم حال الناس عند تعارض أمرين، مبيناً الحالات المتصورة لذلك التعارض، قال: «أحدهما: مهم لا يفوت، والثاني:

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ٣/ ٤٠٤.

(٢) ابن القيم، الجواب الكافي، ١٠٨.

غير مهم ولكنه يفوت، ففي كل منهما ما يدعو إلى تقديمه، فهنا يقع التردد والحيرة فيه...، وذلك بأن يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما، ولا يحصل أحدهما إلا بتفويت الآخر، فهو موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة، ومن ههنا ارتفع من ارتفع، وأنجح من أنجح وخاب من خاب»[1].

ومن الموازين المعتبرة في التقديم ما سبق ذكره في أفضل العبادات، فإن ما ذكر هناك مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأولويات، فإن أفضل العبادات أحبها إلى الله في حينها، وكذلك تقديم الأولى من الأمور إنما حقيقته تقديم لما أمر الله بتقديمه.

٢ـ أسباب الانحراف عن فقه الأولويات:

إن غياب فقه الأولويات أوالانحراف عنه له عدة أسباب من أهمها:

أ ـ غموض أو دقة فقه الأولويات، وهذا هو أهم الأسباب، ومتى فقه المتربي أمر الأولويات أمكنه تقديم الأولى والأهم، وهذا شيء لايدرك بالتلقين ولكن بالتفهيم، ولا يمكن إدراكه إلا بالإحاطة بشمولية هذا الدين، لذا تم تقديم قاعدة الشمولية في التربية، لأنها الأصل الذي تقوم عليه قاعدة الأولويات .

ب ـ التأثر بالبيئة المحيطة، وهو السبب الثاني لإهمال فقه الأولويات، وذلك بأنه قد تنتشر في بيئة ما أولويات وتُكسى بأهمية مبالغ فيها، وتعطى الأولوية المطلقة ، فتقدم حتى على ماهو أهم منها .

---

(١) ابن القيم، الجواب الكافي، ١٠٨.

ومثال ذلك ما نسمعه من تأكيد طائفة من الوعاظ في بعض البيئات على أمر سماع المعازف والأغاني ، وتكرار الوعظ في شأنها ، مع أن منزلتها في الأهمية الشرعيـة والتربوية ليست مقدمة على كثير من الأمـور الشرعية التي لم تأخذ عشر الاهتمام الـذي حظـي بـه موضوع الغناء ، ولو أحصينا الكتب والكتيبات والمطويات والمواد المسموعة في موضوع الغناء والمعازف لاتضح لنا حقيقة المبالغة ، ونتيجة لذلك استقر في نفوس الكثير أن ترك الغناء من مهمات الدين، وهي أول مايتوب عنه المرء حين يرجع إلى الله! ولقلة النصوص في موضوع الغناء نُقّب عن كلام السلف في الغنـاء ونُشر وضُخّم أمره ، مع أن المجتمع كان في حاجة ماسّة لأمور أهم من التزكية والتربية، لكن غياب فقه الأولويات كان له أثره على هذا التقديم ، وهذا المثال يُقاس عليه غيره.

وليعلم أن اتفاقنا على حرمـة موضوع ما أو وجوبه، لا يعني اتفاقنا على درجته في التقديم والأولوية، وعدم التفريق بين الحكم وبين أولويته في التربية سبب إشكالات بين المربين في كثير من المسائل التربوية المعاصرة .

ج ـ التأثر بالتيارات الفكرية السائدة في فترة زمنية أو مكان جغرافي، فلا يخلو الزمان من فكر يسود ويستحوذ على أفكار معظم الناس، وقد يميـل بها عن اتزانها ووسطيتها، ومثال ذلك: أن ينادي أقـوام بالجهـاد ونبـذ كـل شيء سواه، أو طلب العلم والتفرغ له، أو العمـل الإغـاثي بأنواعـه، إن هـذه التيارات الجارفة التي قد تفتقد أحياناً الحكمة والتوازن في تنزيلها للمفـاهيم والأهداف السامية التي تدعو لها تؤثر على ميزان الأولويات، لأنها تدعو إلى حق وخـير مؤيد بنصوص الشرـع، لكـن فـات أولئـك الالتفـات إلى قاعـدة

الأولويات المتفاعلة والمتغيرة مع الناس والظروف والاحتياجات.

د ـ الجهل بالقضايا الاجتماعية، وحال الناس ومشاكلهم المؤثرة على سلوكيات وتربية الأفراد في ذلك المجتمع ، وهذا من الأمور التي لا بد أن نقر بأنها سببت الكثير من التوهان في موضوع الأولويات، أي غياب المربين عن حقيقة حال مجتمعهم، فيحكم المربي على مجتمعه من خلال شريحة محدودة يعرفها ، أو من خلال ما يسمعه من إحصائيات قد تكون عشوائية للغاية، أو مما يسمعه عن مجتمعات أخرى مجاورة، والحق أنك لا تجد انحرافاً في البوصلة التربوية عن الأولويات وإلا ستجد معه جهلاً بأحوال الناس في ذلك المجتمع .

والعلم الذي يتناول ويعالج هذا الشأن هو علم الاجتماع، لذا لايمكن تصور تربية نافعة لمجتمع ما دون الاستعانة به ، ومعه شقه وفرعه؛ علم الاجتماع التربوي، فلا يسع المربي أن يستغني عنهما إذا أراد أن يحدث تغييراً تربوياً وإصلاحاً اجتماعياً عاماً في مجتمعه.

هـ ـ الميول الشخصية، فإن ميل المربي وحبه لبعض الأخلاق أو الأعمال يجعله يلهج بها ويكررها، ويؤكد على أهميتها، فهو وإن لم يتلفظ بالتقديم إلا أن كثرة تكراره ومناصحته في شأن أمر ما كفيل بتقديمه في عقل المتربي.

٣ ـ أمثلة لفقه السلف لقاعدة لأولويات:

لقد نقل عن السلف كثير من الأخبار تدل على مراعاتهم لقاعدة الأولويات، ومن صور ذلك:

١ ـ تفضيلهم طلب العلم وتعليمه على نوافل العبادات :

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: لما قـدم أبو زرعة نزل عند أبي، فكان كـثير المذاكـرة له، فسمعت أبي يوماً يقول: «ما صليت اليوم غير الفريضة، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي!.»[١].

وقال وكيع: «لو أعلم أن الصلاة[٢] أفضل من الحديث ما حدثتكم»[٣].

٢ـ توجيههم للعناية بما هو أولى :

ومن ذلـك نصهـم أن الورع قبل الزهد، قال يحى بن معاذ الرازي: «كيف يكون زاهداً من لاورع له؟ تورّع عما ليس لك، ثم ازهد فيما لك!»[٤]؛ لأن الورع فيه ترك للحرام أو للشبه، أما الزهد فحقيقته التقلل من المباحات، وبين الأمرين فرق كبير لمن يفهم الشرع.

ومنه أيضاً قصة الرجل الذي دخل على الإمام أحمد فسألـه عن ثلاثة مسائـل: الوضوء بماء النـورة؟ والوضـوء بماء الباقلاء؟ والوضوء بماء الورد؟ فأجابه الإمام أحمد، ثم لما أراد الرجل أن يقوم تعلق الإمام بثوبه ـ أي أمسكه ـ ثم سأله الإمام أحمد: «أيش تقول إذا دخلت المسجد؟ فسكت الرجل، فقال: وأيش تقول إذا خرجت من المسجد؟ فسكت الرجل أيضاً. فقال له الإمام

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١١/ ٢٢٨.

(٢) يقصد الصلاة النافلة.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ٩/ ١٥٢ .

(٤) ابن الملقن، طبقات الأولياء ، ٢٣٧.

أحمد: اذهب فتعلم هذا!»[1].

كان ابـن المبارك في رحلـة حج، فوجد في الطريق عائلة فقيرة تقتات من المزابل، وتأكل الميتة ، فأعطاهم نفقة الحج، ورجع إلى بلاده .[2]

* * *

رابعاً ـ تحقيق القاعدة وتنزيلها

إن تطبيقات القاعـدة أكثـر من أن تحصى، فهي من أساسيات الفكر التربوي الإسلامي ، والحاجة لفهمهـا وإدراكهـا ومـن ثـم تنزيلهـا مهـم للغاية، وإذا كان بعض السلف تمنى أن يتفرغ بعـض العلـماء ليفقهوا الناس في أمر النية؛ فإن فقه وفهـم موضـوع الأولويـات في التربيـة يستحـق أن يخصص له المربون الوقت الذي يليق بموضوع في مثـل أهميتـه ، لأن فقهـه مفتاح لتربية صحيحة موافقة لمقاصـد الـشرع، وفقهـه يكفـل تربيـة تـنهض بالمجتمع، لأنها ستلامس احتياجاته الأهم والأولى .

ولا يكفي أن نضرب أمثلـة تطبيقية لفقه الأولويـات دون أن نـذكر المعايير المعتبرة في التقديم والتأخير، فهي المفتاح لفهم الأولويات.

١ـ المعايير المعتبرة في معرفة الأولى بالتقديم:

هناك معايير أوموازين للتقديم والتأخير عند التزاحم أو التعارض،

---

(١) ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، ١/ ٤٢.

(٢) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية.

وأهم هذه المعايير[1]:

المعيار الأول: تقديم ما صرّح الشارع بتقديمه، وهذا أهم معيار، ومثاله تصريح الشارع بتقديم بر الوالدين على الجهاد، وقد يُفهم تقديم الشارع ضمناً من قوة الإلزام بالتكليف أو الأجر المترتب عليه، كالأحاديث التي نصت أو أشارت إلى تقديم الصلاة على بقية الفروض الشرعية، وفي المنهيات يعرف الأولى بالترك من الوعيد أو العذاب المترتب على الفعل أو الفساد المترتب عليه ، وهكذا.

المعيار الثاني: التقديم حسب المقاصد الشرعية، ويكون ذلك بالتعرف على المقصد الشرعي من وراء الأوامر الشرعية، ثم التقديم للأولى منها بناء على ذلك، ومثل ذلك في المنهيات الشرعية، وهذا من أدق المعايير لمعرفة الأولويات، وتأخيره عن المعيار الأول ليس لأنه أقل أهمية، فإنما تعرف مقاصد الشرع من النصوص.

يقول الشاطبي في مجرى كلامه عن زلة العلماء: «وأكثر ماتكون عند الغفلة عن اعتبار مقاصد الشارع في ذلك المعنى الذي اجتهد فيه»[2].

---

(١) هذه المعايير في الأولويات هامة وتصلح لجميع جوانب الحياة وليست مقصورة على الجانب التربوي فقط، ومن الكتب الجيدة في الموضوع كتاب الدكتور يوسف القرضاوي، في فقه الأولويات، من منشورات المكتب الإسلامي. وكذلك كتاب الدكتور محمد الوكيلي السابق ذكره.

(٢) الموافقات، ٤ / ١٧٠.

والمراد بالمقاصد الشرعيـة: هي المعاني والحكم التي راعاها الشارع في التشريع عموماً وخصوصاً، من أجل تحقيق مصالح العباد، أي هي المصالح التي عناها وقصدها وأرادها الشارع من تشريع الأحكام[1].

حيث إن مراتب المقاصد تنقسم إلى: المقاصد الضرورية، وهي الأعلى والأهم، ثم المقاصـد الحاجيـة، ثم المقاصد المكملة أو التحسينية، وهي أقلها رتبة وطلباً لدى الشارع، وتعلقها بالجماليات ومحـاسن الأخلاق. فالضروري مقدم على الحاجي، والحاجي مقدم على التكميلي.

إن فقـه المقاصـد الشرعية مما لا غنى للمربي عنه، لأن المقاصد الشرعية كاشفة لغرض الشارع من التكليف والتشريع للأحكام، وفهم تقسيم المقاصد ومراتبها يعمـق مـن فهـم المربي لمراتب التكاليف الشرعية، وللتمييز بينها في الرتبة، وهذا يؤدي إلى ترتيب الأولويات عنده بحسب مراد الشارع[2].

ومما يجـدر ذكـره أن الإخلال عند الناشئة وعامة الناس يكون غالبـاً بتقديم المقاصد التحسينية أو التكميلية على المقاصـد الحاجيـة، التـي هـي في الشرع أعلى منها رتبة وقصداً.

---

(١) انظر: د محمد سعد اليوبي، مقاصـد الشريعة الإسلامية، دار الهجرة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٩٩٨ م، ص: ٣٧.

(٢) من المراجـع المفيدة في موضـوع المقاصـد الشرعية: كتب الدكتـور أحمد الريسوني، مثل كتاب: محاضرات في مقاصد الشريعة، نشر دار السلام، وكتاب: د محمد اليوبي، مقاصد الشريعة الإسلامية. وكتاب د. مسفر القحطاني، الوعي المقاصدي، نشر الشبكة العربية.

المعيار الثالث: تقديم باعتبار ما يفوت وما لا يفوت، أي ما لا يمكن إدراكه لضيق وقت التكليف فيه وما يمكن إدراكه لسعة الوقت.

المعيار الرابع، هو اعتبار تقديم ما كان فيه نفع متعد على ما كان فيه نفع خاص، وذكرنا شيئاً من ذلك عند حديثنا عن موضوع أفضل العبادات في القاعدة الأولى.

قال حجة الإسلام الغزالي: «وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور بل قد يتعين في الإنسان فرضان أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أوفضلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغروراً، ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت»[1].

٢ ـ من الوسائل المعينة على فهم الأولويات:

إن هناك طرقاً ووسائل يمكن بسلوكها تعميق فهم موضوع الأولويات، ومن ذلك:

أ ـ الحوار والمناقشة في موضوع التطبيقات العملية لقاعدة الأولويات في التربية، سواء للمربين أو للمتربين، لأنه يصعب تنزيل فقه الأولويات على

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ٣/ ٤٠٤.

الواقع إلا بالتطبيقات العملية عليها .

ب ـ التفقه في مراتب الأحكام الشرعية، مابين واجب ومندوب، ومحرم ومكروه، وكذلك التفقه في مراتب المقاصد الشرعية، بدءاً بالمقاصد الضرورية فالحاجية فالتحسينية .

ج ـ إن مما يعين على تحقيق مبدأ تقديم الأولويات، فهم وإتقان كيفية تنظيم الأوقات وإدارتها، فحين يفهم الإنسان كيفية تنظيم وقته وإدارته له سيحسن استغلاله، وسيتمكن من إنجاز الواجبات الشرعية والحياتية المطلوبة منه، لأن الإخلال بالأولويات قد يرجع لسوء تنظيم الوقت، وليس للتزاحم في حقيقة الأمر.

٣ ـ تطبيقات تربوية في موضوع الأولويات التربوية

وأهم تطبيقات قاعدة مراعاة الأولويات في التربية والتزكية مايلي :

التطبيق الأول ـ تقديم العناية بتزكية الباطن:

أهمية تقديم الباطن على الظاهر:

إن المراد بتقديم الباطن على الظاهر في التربية: تقديم الاهتمام بصلاح القلب على صلاح الجوارح، وأن يكون سمت الصلاح الخارجي انعكاساً لما وقر في القلب، لا تكلفاً أو زيادة على ما في القلب. وقد نص النبي ﷺ على ذلك في الحديث المشهور: (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[1]. وقال سعيد بن المسيب

---

(١) رواه البخاري.

لما رأى الرجل الذي يكثر الحركة في صلاته قال: لو خشع قلب هـذا لخشـعت جوارحه[1]. ومن المؤسف أن يهتم بعض المربين بظاهـر العبادة ويغفل عـن الباطن فلا يوليه العنايـة الكافية، فتجد من يـربيهم يتحلـون بمظهـر حسـن والتزام بشعائـر الإسـلام الظاهـرة، وبكيفية وهيئـة الأعـمال الشرعيـة، مـع تضييعهم لحقيقتها أو لباطنها، كتضييعهم للخشوع في الصلاة أو للتقوى في الصيام، أو لسلامة القلب من الأحقاد والحسد. وقد يكون المربي ممن صلح باطنـه وظاهره، لكنـه غفـل عن كون من يربيهم لم يصلوا إلى هذا المستوى التربوي، فيظن أنه قد بلغ بهم ذلك بناء على مايراه من حسن الظاهر .

التغيير في الظاهر سهل ويسير:

إن أهم أسباب تقديم بعض المربين لشأن التغير والتحسن في الظاهر، بدلاً من إصلاح الباطن، هو ما يجدونه من سرعة ظهور نتائج التربية في الأمور الظاهرة، فيسرّ المربي بالتغيير السريع، والثمرة العاجلة. لأن التغيير في الباطن يطول، وقد لا يتحقق إلا بعد زمن طويل.

ويصف لنا الإمام الغزالي حال بعض أهل زمانه ممن اشتغل بالظاهر عن الباطن، وغرّه التزيي بزي العبـاد عن حقيقة عملهم، قال في وصـفهم:

---

(١) يروى هذا الأثر مرفوعاً للنبي وليس بصحيح بل هو من كلام ابن المسيب أو غيره، وقد رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وقـال العراقي في تخريج الإحياء: «إنما يعرف هذا عن ابن المسيب». وقد نسبه الزرقاني في فيض القدير لابن المسيب أيضاً، وحكم عليه الألباني رحمه الله بأنه موضوع، انظر: الضعيفة، حديث ١١٠، ١/ ١٤٣، وضعيف الجامع، ٥/ ٤٥.

«وهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه الله، اغتروا بالزي والهيئة والمنطق فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم، وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمتفكر، وفي تنفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات، فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضاً صوفية! ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف، ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية كيف ولم يحوموا قط حولها!»[1].

إن الوصف العظيم من حجة الإسلام الغزالي لفئة في زمانه لا يصح أن نحجره ونختزله بطائفة أو بفئة ظهرت في زمان ما، فإنه لا حدود لهذه الظواهر في الجغرافيا والزمان، ولا علاقة لها بالمسميات ، فهي ظواهر تتكرر في كل زمان ومكان، وقد تتعدد مسمياتها، وتتنوع مظاهر اختلال التربية لديها.

من علامات صلاح الباطن:

إن من علامات صلاح الباطن الانتفاع بالعبادة، فينشرح القلب ويلين، ويورث ذلك التوبة، فيُقلع المرء عن ذنوبه ويندم عليها، وتحسن

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ٣ / ٤٠٤.

الأخلاق، وتلين القلوب ، وتمتلئ بحب الخير ، أما إن تتابعت العبادات من غير تغير في الحال فهو دليل على خلل في الباطن، لأن مقصود العبادات الظاهرة إصلاح القلب، وعدم نفعها للقلب دلالة على أن: «بين العمل وبين القلب مسافة، وفى تلك المسافة قطاع تمنع وصول العمل إلى القلب! فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة»[1].

التقديم للظاهر والعناية الفائقة به ظاهرة تتكرر عبر العصور :

إن صورة التقديم والعناية بالظاهر على حساب الباطن ظاهرة تتكرر جيلاً بعد جيل، ولكل جيل صورة وظاهر يتعلق به ويجعله غايته في التربية والتزكية ، ولو فتشنا فيما حولنا لوجدنا صوراً عديدة للتمسك بظاهر بعض التكاليف الشرعية مع الإهمال لحقائقها المطلوبة شرعاً.

وهذا الاطراد بين العناية بالظاهر والإهمال للباطن؛ سلوك طبيعي لدى البشر، فإنه كلما خوى الباطن زاد الاهتمام بالظاهر، وكلما عمُر الباطن اعتدل الظاهر وصلح.

لبس الصوف والمرقعات ورمزية الزهد:

ومن الأمثلة على الانشغال بالصور الظاهرة، ما قد فتنت به طائفة من مدعي التصوف عبر التاريخ، فالتهت بشأن الظواهر والصور، حتى أضحى كثير منهم ليس بينه وبين التصوف الحقيقي الذي هو: الزهد والاجتهاد

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ١ / ٤٣٩.

في الطاعة، إلا التكلف في لبس الصوف أو المرقعات من الثياب!

والقصص لا تحصى في إنكار أهل العلم وأهل العبادة على هذه الظاهرة، ومن ذلك مارواه ابن سيرويه قال: «دخل أبو محمد بن أخي معروف الكرخي على أبي الحسن بن بشار، وعليه جبة صوف، فقال له أبو الحسن: يا أبا محمد صوفت قلبك أو جسمك ؟! صوّف قلبك والبس القوهي[1] على القوهي!»[2].

ومن ذلك أيضا إنكار حماد على فرقد السبخي، فحين قدم حماد بن أبي سليمان البصرة جاءه فرقد السبخي وعليه ثوب صوف، فقال له حماد: «ضع عنك نصرانيتك هذه، فلقد رأيتنا ننتظر إبراهيم ـ يعني النخعي ـ فيخرج علينا وعليه معصفرة»[3]. فقد ربطها حماد رحمه الله بفعل النصارى، وذكر هدي فقهاء العباد في لبس المعصفر، وهو من أطيب اللباس. ومن العجيب أن الصورية طغت لدرجة أن بعض ألبسة الصوف صار يتكلف فيها ، فزاد ثمنها أضعاف قيمة الألبسة العادية التي يلبسها عامة الناس، لأن الصوف صار زيّاً وشعاراً، وخرج عن كونه يلبس زهداً وتواضعاً. وننبه على أن موضوع اللباس هو الصورة الفاقعة للانشغال بالظاهر، وليس كلها .

---

(١) القوهي: هي الثياب البيض، وكان الصوفية لا يلبسونها.

(٢) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ٢٢٥.

(٣) ابن الجوزي، تلبيس ابليس ، ٢٢٣.

الجمع بين الظاهر والباطن هو الكمال:

إن الجمع بين الظاهر والباطن هو الكمال الذي نسعى له، لكن عند الحديث عن الأهم والمهم، فإن الباطن هو الأهم . ومن الموازنة في ذلك ماذكره ابن تيمية جواباً للسائل، حيث سُئل رحمه الله: «أيما أولى معالجة ما يكره الله من قبلك مثل الحسد والحقد والغل والكبر والرياء والسمعة ورؤية الأعمال وقسوة القلب وغير ذلك مما يختص بالقلب من درنه وخبثه؟ أو الاشتغال بالاعمال الظاهرة من الصلاة والصيام وأنواع القربات من النوافل والمنذورات، مع وجود تلك الأمور فى قلبه؟» فأجاب بجواب مفصل، منه: «أعمال القلب لا بد أن تؤثر فى عمل الجسد، وإذا كان المقدم هو الأوجب سواء سُمي باطناً أو ظاهراً، فقد يكون ما يُسمّى باطناً أوجب مثل ترك الحسد والكبر فإنه أوجب عليه من نوافل الصيام، وقد يكون ما سُمي ظاهراً أفضل مثل قيام الليل، فإنه أفضل من مجرد ترك بعض الخواطر التي تخطر فى القلب من جنس الغبطة ونحوها، وكل واحد من عمل الباطن والظاهر يعين الآخر، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتورث الخشوع ونحو ذلك من الآثار العظيمة»[1].

التمسك بصفة الظاهر الشرعية لا بد منه:

إن تناول الأمور الظاهرية للعبادات، كصفة العمرة أو صفة الصلاة أو سنن اللباس لا تتعارض مع ذكرناه في قاعدة الأولويات ، وعليه: فلا بد

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١١ / ٣٨١.

من التفقه في هيئة العبادة وصفتها الظاهرة ، لذلك ينبغي التنبيه إلى منهج مرفوض، وهو: إهمال الظاهر الشرعي بدعوى الاهتمام بالباطن، وقد مر معنا في قاعدة الشمولية أنه لا ينبغي ترك شيء من الدين بدعوى الاهتمام بغيره .

التطبيق الثاني للقاعدة ـ تقديم الفرائض على النوافل:

بين يدي هذا الموضوع ألفت انتباه القارئ الكريم إلى ملاحظة الارتباط الوثيق بين سائر مواضيع التربية وتكاملها ، ومن ذلك أننا لو تأملنا في موضوع؛ تقديم الفرائض على النوافل لوجدناه فرعاً عن موضوع أحب العبادات إلى الله، فقد سبق هناك ذكر أن التربية تكون باتباع وتقديم مايحبه الله في ذلك الوقت. فأصول النظرية التربوية الإسلامية تدور على طلب رضاء الله في كل حال وزمان، وبمقدار طلب الإنسان لهذا الرضى وبمقدار فهمه لكيفية تحصيله تجده أقرب لنيل رضوان الله تعالى، وهذا أصل مهم يجمع قلوب وعقول المربين في كل مكان على أولويات التربية.

والأمر الآخر؛ أننا حين نلاحظ في أي بيئة أو مجتمع تقديماً للنوافل على الفرائض فإننا لانعفي فقهاء ذلك المجتمع من التقصير في تعليم الناس مراتب الواجبات، لأن أصل هذا الانحراف قلة الفقه بالشريعة .

تقديم الفرائض أصل تربوي:

إن تقديم الفرائض على النوافل أصل تربوي ، ومستنده الحديث القدسي المشهور : (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت

عليه)[1]. ورغم ذلك إلا أننا نجد البعض يبالغ في الاهتمام بأمر النوافل، وينسى الفرائض التي سيسأل عنها أولاً، وينبغي أن ننتبه إلى أن المقصود بتقديم الفرائض لا يحصر في تقديم الفرائض من العبادات المحضة، كالصلاة أو الصيام، بل يقصد به تقديم سائر العبادات المفروضة على النوافل مطلقاً، ويشمل ذلك تقديم بر الوالدين، وإغاثة المكروب، والقيام على الأرملة واليتيم، ونصرة المظلوم، وتعليم الجاهل ونحو ذلك. لذا لا يمكن أن يوصف بأنه مصطبغ بصبغة الله من يقدم صيام النفل على كشف كربة مكروب، أو إغاثة ملهوف، أو أن يوصف بها من سافر لعمرة نافلة وهو يعرف أن هناك أرملة لاتجد قوتها هي وصغارها!

لذلك فإنه لاغنى عن قاعدة الشمولية في التربية، لأنه بدونها لا يمكن التربية على قاعدة مراعاة الأولويات، وكذلك لا تستقيم قاعدة الشمولية إلا بفهم قاعدة الأولويات، فكل قاعدة من هاتين القاعدتين تحتاج للأخرى في إقامتها وتحقيقها على الوجه الصحيح المحقق لمقصد الاصطباغ بصبغة الله.

لماذا يهتم البعض بالنوافل أكثر من الفروض:

إن من أسباب التقديم للنوافل وجود المرء في وسط من الصالحين قد قاموا بأمر الفرائض وجلّ حديثهم في التواصي على أداء النوافل، فيمتزج معهم في همهم ويقتدي بهم، ولا ينظر لمستواه التربوي؟! وكذلك ينبغي التنبيه

---

(١) رواه البخاري.

على أن العناية بالفرائض ليس فقط في أدائها، بل وكيفية أدائها، قال الغزالي رحمه الله يصف ناساً من أهل زمانه: «وفرقة أخرى حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض؛ ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد للفريضة لذة؟!»[1].

تقديم الانتهاء عن المحرمات قبل المكروهات:

ومثل ما سبق ينبغي أن نعتني ونقدم في تربيتنا أمر البعد عن المحرمات قبل عنايتنا بأمر المكروهات أو خوارم المروءة، فإن الشارع رتب على المحرمات عقاباً، بينما من وقع في المكروهات إنما أضاع على نفسه أجر الانتهاء عنها. وفي كيفية تحذير النبي ﷺ لأمته من الكبائر وتشديده في ذلك توضيح لعظم أمرها على الصغائر، فقد قال النبي ﷺ لأصحابه: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وجلس وكان متكئاً، فقال: ألا وقول الزور، قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت)[2].

تقديم الفروض العينية قبل الكفائية:

إن الفروض العينية هي التي يطالب بها كل مكلف، أما الفروض الكفائية فهي التي تسقط بقيام بعض المسلمين بها كالأمر بالمعروف وصلاة الجنازة، وبلا شك إن مرتبة الفروض العينية أعلى وأولى من الفروض الكفائية .

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ٣/ ٤٠٤.

(٢) متفق عليه.

وإن مما ينبغي الالتفات اليه في موضوع الفروض الكفائيـة والعينيـة، أن الناس قد يغفلـون أو يتجاهلون فرضاً كفائياً لصـعوبته أو مشـقته، لكـنهم يندفعون تجاه تكاليف كفائية أقل مشقة، وهذا لاعتبارات عديدة لاتخفـى ، وهنا يأتي دور قاعدتي الشمولية ومراعاة الأولويات .

التطبيق الثالث للقاعدة ـ تقديم الكليات قبل الجزئيات:

إن من تطبيقات قاعدة الأولويـات تقـديم الكليـات قبـل الجزئيـات والأصول على الفروع، وكذلك المتفق عليه قبل المختلف فيه، وتحقيـق هـذه القاعدة مرتبط بوعي وفقه المربي بموضوع الكليات والجزئيات ، فإنه يسـهل عليه تربية الناس حينها على هذا الأصل، ولن ينشغل بالجزئيات . ومـن تمـام الفقه لموضوع تقديم الكليات ؛ تجنب المسائل الخلافية المرتبطة بالكليات إن وجدت، لأنها إن ألقيت على أسماع المتربين أوعامة الناس فقد تشغلهم عن الأهم، ونرى كيف وجه النبي ﷺ الرجل الذي جاء إليه، فقال : يا رسول الله، كثرت علـي خِلال الإسلام وشرائعه، فأخبرني بـأمر جـامع يكفينـي. فقال النبي: (عليك بذكر الله تعالى)، فقال الرجل: ويكفيني يا رسول الله؟! قال: (نعم، ويفضل عنك)[1]. فقد وجهه إلى أمر جامع وكلي يناسبه .

وهناك كليات في الأخلاق كالأمانة، والعفة، والصدق، والرفق هي الأولى بالعناية والتقديم من الفرعيات[2]. وقد استدرك الإمام الغزالي على

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) انظر كتاب د. أحمد الريسوني، الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، ١٠٨.

نفسه، فذكر أن بعض ما أورده في كتابه الإحياء كان الأفضل تركه، ونبه إلى مضرة إيراد ما لا يحتاجه المتربي في مرحلته التربوية ، قال: «ولعل القدر الذي ذكرناه أيضاً كان الأولى تركه، إذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره، والذي لم يسلكه لا ينتفع بسماعه»[1].

وكلام الإمام الغزالي عميق وحكيم جداً، رحمه الله رحمة واسعة.

من صور التقديم للجزئيات:

إن مما يغفل عنه التفريق بين الباب المهم في التزكية والتربية، وبين جزئية في ثنايا هذا الباب، ومثاله: أن المرء يقدم في تربيته لنفسه الأبواب العظيمة كالتوكل والاستعانة بالله ، لكنه يختار من هذا الباب المهم جزئية ليست مما يقدم على غيرها، وليست هي الأولى في معيار الشرع، فيجعلها همه ويظن أنه قدم المهم، ومثاله أمر التوكل فقد يحصره البعض في مجال الرزق، وهو بلا شك من التوكل، لكن التوكل على الله في انتصار هذا الدين وغلبته أولى وأهم، والدعاء بالرزق مطلوب لكن الدعاء بصلاح القلب أولى. وممن بين ذلك ابن القيم قال رحمه الله: «وكثير من المتوكلين يكون مغبوناً في توكله وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون، كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله ويمكنه نيلها بأيسر شيء..، كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف أو نصف درهم ويدع صرفه إلى نصرة الدين

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ٣ / ٤٠٩.

وقمع المبتدعين وزيادة الإيمان ومصالح المسلمين»[1].

توكل الصحابة في معالي الأمور:

إن فقه الصحابة لا يظهر في كلامهم فحسب، بل إنك تتلمسه في تصرفاتهم وأعمالهم، ومن ذلك فقههم في التوكل، قال ابن القيم عن توكلهم: «هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم، فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب، وأن يعبد الله في جميع البلاد، وأن يوحده جميع العباد، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد، فملؤوا بذلك التوكل القلوب هدى وإيماناً، وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقيناً وإيماناً فكانت همم الصحابة رضى الله عنهم أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي، فيجعله نصب عينيه ويحمل عليه قوى توكله»[2].

التطبيق الرابع للقاعدة ـ تقديم أصول الأخلاق على فروعها:

تنقسم الأخلاق إلى قسمين: أصول وفروع، وأصول الأخلاق هي المهمات التي أتى الاسلام بالحث عليها وعقاب من تجاوزها، كالوفاء بالعهد، والأمانة، والصدق، أما فروع الأخلاق ودقائقها فهي أقل مرتبة، وتندرج

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ٢ / ١٢٦.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، ٢ / ١٣٥، وانظر ما ذكره الشيخ محمد أحمد الراشد، البوارق، ٩٧.

في التحسينيات أو مكملات المروءة لدى المسلم، مثل خلق الإيثار أو خفض الصوت .

وتقسيم الدين إلى أصول وفروع يشمل كل جوانبه ، وليس مختصاً بشأن الأخلاق فقط ، وهذا ماينبغي مراعاته حال التربية، قال ابن تيمية: «فالدين أول ما يُبنى من أصوله ويكمل بفروعه ، ثم قال: فأصوله تمد فروعه وتثبتها، وفروعه تكمل أصوله وتحفظها»[1].

ومن الخلل التربوي الجسيم أن يعتني الإنسان بأمر حسن الخلق مع تفريطه في الأمانات التي توكل إليه ! فهو بهذا يقدم الفروع على الأصول الأخلاقية والسلوكية الأهم.

وقد يرجع سبب ذلك لكثرة اهتمام المربي بتلك الفروع، فينطبع ذلك في نفس المتربي، ويقدمه على ماهو أهم منه. أو إلى ذات المتربي، وهو حب التميز لديه في بعض دقائق الأمور، ومن أمثلة ذلك في الأخلاق تمسك البعض بمظاهر الاحترام الخارجية، كالتقديم لأهل العلم والفضل، أو للأكبر سناً عند الدخول إلى المجلس أو الخروج منه، لكنه قد يُغلظ لهم في القول حال النقاش أو يقاطع حديثهم أو يُكذّبه، ولا يراعي قدراً لعلمهم أو سنهم، وهذا من التناقض السلوكي المشاهد.

* * *

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٠/ ٣٥٥.

خامساً ـ أثر غياب القاعدة

إن ما سبق ذكره في تطبيقات القاعدة يمكن اعتباره أثراً لغياب القاعدة متى أهملنا العمل بها، ومن الآثار الأخرى لغياب القاعدة:

١ ـ استفحال الأمراض الأخلاقية والتربوية في المجتمع وفي الأمة، بينما نجد المربين قد انشغلوا بقضايا ثانوية! لذا نشاهد مجتمعات مسلمة متخلفة ومتهالكة سلوكياً وأخلاقياً، والمربون فيها على اختلاف مشاربهم قد اتفقوا على إشغال أنفسهم والناس بقضايا تربوية ثانوية وفرعية، وفي كل مجتمع من الأمثلة ما يوضح هذا الأثر.

٢ ـ عدم إمكانية الاتفاق بين المربين والمعلمين والواعظين على الأهداف التربوية الأهم في كل مكان أو زمان، وذلك لغياب معايير التقديم والتأخير.

٣ ـ عدم إمكانية وضع برامج تربوية متوافقة مع حاجة الزمان والمكان، لعدم وجود آلية أو معايير لذلك.

٤ ـ عدم تحقيق وإنجاز أهداف التربية الكبرى أو إصلاح المجتمعات المسلمة وأحوال المسلمين ، بسبب الانشغال بما هو أقل أهمية.

٥ ـ تفشي الصورية، أي التحلي بالمظاهر الخارجية للتكاليف الشرعية، في مقابل ضعف وخواء في الباطن، لأن الإنسان بطبعه تستهويه المظاهر، وهذه من أخطر الآثار.

* * *

الفصل الثالث

القواعد الخادمة لمقصد الاستدامة في التربية

ويشتمل على أربع قواعد:

* التدرج.

* الواقعية.

* التحفيز

* الذاتية.

الفصل الثالث

القواعد الخادمة لمقصد الاستدامة في التربية

* تمهيد:

إن القواعد الأربع التي يتضمنها الفصل الثالث في مجملها خادمة لمقصد الاستدامة على التربية والتزكية، فهذه القواعد الإجرائية لها أثر عظيم في استمرار المتربين في طريق التربية والتزكية، وإن أكثر المواضيع المتناولة في ثنايا هذه القواعد وإن تناثرت أماكنها وتنوعت في أفكارها إلا أنها في الحقيقة خادمة لهذا المقصد الشرعي الهام.

مكانة الاستدامة على الأعمال في الفكر التربوي الإسلامي:

إن من المقاصد الشرعية في التكاليف الشرعية المداومة والاستمرار عليها ، ويشمل هذا المقصد جميع التكاليف الشرعية، ومن ذلك تزكية النفس وتربيتها، ومن الأصول الشرعية الدالة على تشوف الشارع لهذا المقصد قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[المعارج: ٢٢ ـ ٢٣]، وقال النبي ﷺ مخبراً عن أحب الأعمال إلى الله: (أحب الأعمال إلى الله أدومه وإن قل)[1]، وقال: (يا أيها الناس: خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله

---

(١) متفق عليه.

لا يملّ حتى تملـوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل)[1]، ووُصف عمل النبي ﷺ بأنه: (كان عمله ﷺ دِيمةً)[2].

حماية الشارع لمقصد الاستدامة في العمل:

ولكون الاستدامة على العمـل الصـالح مطلبـاً شرعيـاً، فقـد حـذر الشرع من كل مايعارضه ، فقد كان النبي ﷺ يحذر أصحابه من كل مايخالف ذلك المعنى، ولما لمس النبي ﷺ من عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنـه رغبة في التـزام عمـل ثقيل على النفس البشريـة، وخشـي أن ينقطـع عنـه، وعظه بقولـه: (يا عبدالله، لا تكن مثل فلان، كان يقـوم الليـل فـترك قيـام الليل!)[3].

حمى الشارع مقصد الاستدامة بمنع كل مـايقطع الإنسـان عـن أعمالـه الصالحة، سواء في الحال أو المآل، ولو تأملنا فيما يقطع عن الأعـمال الصـالحة لوجدناها أموراً لاتتفق مع الواقعية، ومن ذلك ما ذكرنـاه في الرهبانيـة ، ولـو تأملنـا أيضـاً في مفهـوم رفع الحرج في الشريعة، وجدنا الحكمة منه «الخوف من الانقطاع من الطريق، وبغض العبادة، وكراهة التكليف»[4].

وهذا ما تجده صريحاً في منهـج النبي ﷺ التربوي، فقـد كان النبي ﷺ

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) الشاطبي، الموافقات، ٢ / ١٣٦، وانظر أيضاً: الموافقات، ٤ / ٢٣٢.

يتخوّل أصحابه بالموعظة في الأيام حتى لا يسأموا[1]. أي يُقل عليهم من الوعظ. وقد أشار بعض الصحابة إلى أنه كان يعظهم مرة أسبوعياً، وسار على ذلك النهج أصحابه من بعده، فهذا ابن مسعود يعظ أصحابه كل خميس، فسألوه أن يعظهم كل يوم؟ فذكر لهم أن التقليل من الوعظ من هدي النبي ﷺ.

الاستدامة من لوازم تحقيق التربية والتزكية:

إن المسلم لا ينفك عن السير في طريق التربية والتزكية أبدا، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، والأعمال بخواتيمها، لذا ليس هناك فترة زمنية أو سنّ محدد تُهمل بعده تربية النفس أو تزكيتها، أو يفرّط في شيء منها! بل ينبغي أنه كلما تقدم المسلم في العمر زاد حرصه على مقامات التربية كلها، لذا وُصِف حال المؤمن أثناء سيره في رحلة تزكية النفس وتربيتها بأنه: «لا يزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره!»[2]. **وماحسن الخاتمة إلا ثمرة هذه الاستمرارية في السير**.

ونتناول فيما يأتي بيان هذه القواعد الكلية الأربع.

* * *

(١) الحديث في صحيح البخاري.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، ١ / ٨٩.

القاعدة السابعة
التدرج

أولاً ـ المراد بالقاعدة

التدرج: في اللغة من الدرجة، وهي: المِرْقاة. والمَدْرَجة: المواضع التي يُدْرَجُ فيها أي يُمْشَى[1].

ومما عرف به التدرج في البناء التربوي أنه: الارتقاء التصاعدي في إكساب الفرد معالي الأمور[2].

ويمكن أن يقال إن التدرج التربوي هو: الارتقاء التصاعدي في تحقيق الفرد أوالمجتمع للأهداف التربوية.

---

(١) ابن الأثير، مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (٦٠٦ هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر الزاوي وزميله، المكتبة العلمية، بيروت، ٢ / ١١١، الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ١ / ١٦٤٨ ـ ١٦٥٠.

(٢) انظر: خالد الحازمي، أصول التربية الإسلامية، ص ٢٧٣، نقلا عن: نسرين عطية الزهراني، أسلوب التدرج في التربية الإسلامية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية التربية، ١٤٣١هـ، المملكة العربية السعودية.

والمقصود أن الفرد في تربيته لنفسه ينبغي أن يتابع الخطوات كحال المرتقي أو الماشي، درجة درجة وخطوة خطوة. وعليه فلا ينبغي للمتربي أن يتعدى في سيره فيثب في ارتقائه أوصعوده، لأنه كما في السير الحسي يخشى من السقوط أو الإجهاد والتعب، فهنا كذلك احتمال السقوط أو التوقف، وقد سمّى ابن القيم كتابه: «مدارج السالكين»، من التدرج والارتقاء.

الفرق بين قاعدة التدرج وقاعدة الأولويات:

إن موضوع قاعدة الأولويات هو تقديم الأولى والأهم عند التزاحم في الأوقات وكثرة الواجبات، وأما قاعدة التدرج فموضوعها كيفية الارتقاء التربوي وسبيل الانتقال من مستوى تربوي إلى آخر ، فهي تدور على كيفية تحقيق الأهداف التي تم تحديدها بواسطة تفعيل قاعدة الأولويات أو غيرها مثل قاعدة أفضل العبادات أو الشمولية .

وهناك نقطة التقاء بينهما أن في كلتا القاعدتين مخالفة لرغبات النفس، وهذا واضح في أن أولوية الوقت حسب المعايير السابق ذكرها قد لا تكون هي ماتميل له نفوسنا، وكذلك أن السير بمعيار التدرج يخالف رغبة المستعجل والمتحمس لتحقيق الإنجازات بأنواعها.

المراد بالمقامات:

اصطلح القدماء من أهل التربية على تسمية المراحل التي يقطعها المتربي في خلال تربيته لنفسه: بالمقام، وجمعها مقامات، والمقام مصطلح دارج عند عدد من علماء التربية والسلوك منذ القدم، وغلب استخدامه

عند المتصوفة، لكنه من المصطلحات المستقرة والمتفق عليها لدى عامة من كتب في التربية والتزكية، مثل ابن الجوزي وابن تيمية وابن القيم[1]. وهناك أيضاً مصطلح المنزلة التربوية، وهو مشابه للمصطلح المعاصر الدارج في عصرنا؛ وهو : المستوى التربوي ، ولامشاحة في الاصطلاح . والأولى لزوم مصطلحات الزمان الدارجة والمتعارف عليها بين أهل العصر .

* * *

ثانياً ـ الأصل الشرعي للقاعدة

إن الذي تدل عليه النصوص أن التدرج منهج شرعي أصيل في التربية والتزكية، وهو منهج شرعي ثابت ومستقر ، وليس خاصاً بزمن النبي ﷺ، ومن ذلك ما ذكرته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت:

(إنما نزل أول ما نزل منه ـ أي من القران ـ سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا: لقالوا لاندع الزنا أبداً)[2]. وهذا أصل عظيم عن عائشة في أهمية التدرج،

---

(١) استخدم شيخ الإسلام ابن تيمية مصطلح المقام في كتبه التي صنفها، انظر ابن تيمية، مجموع الفتاوى: المجلد العاشر والحادي عشر، وكذلك ابن القيم في كتابه مدارج السالكين، وهو شرح كتاب منازل السائرين، واستخدم هذا المصطلح في كتبه الأخرى التي لم يكن فيها شارحاً لكتاب غيره مثل كتابه: طريق الهجرتين.

(٢) صحيح البخاري، ح ٤٩٩٣.

وأنه من وسائل التربية المعتبرة في الشرع .

من الأصول الشرعية للقاعدة قول الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[الإسراء: ١٠٦]، أي نزل بالتدريج شيئاً فشيئاً، قال الزجاج: فرّقه في التنزيل ليفهمه الناس. وقال الشوكاني: المعنى أنزلناه منجماً مفرقاً لما في ذلك من المصلحة، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا ولم يطيقوا[١].

ومن أدلة التدرج قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[آل عمران: ٧٩]. «والرباني الذي يربي الناس على صغار العلم قبل كباره»، كما روي معناه عن ابن عباس[٢]. وهذا عين مفهوم التدرج.

ومن الأدلة في السنة :

قبول النبي ﷺ لشرط ثقيف لما بايعوا أنه لا زكاة عليهم ولا جهاد ولا صلاة، فبايعهم النبي ﷺ، وقال: (لكم ألَّا تحشروا ولا تعشروا، ولا خير في دين ليس فيه ركوع)[٣]، في رواية أخرى: (سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا)[٤]. أي قبل منهم اشتراط عدم الجهاد وعدم الصدقة ، ماعدا

---

(١) الشوكاني، تفسير فتح القدير، سورة الإسراء: ١٧٩ .

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، سورة آل عمران، آية: ٧٩ .

(٣) أحمد وأبوداود، وحسنه الأرناؤوط.

(٤) رواه أحمد وأبو داوود، وصححه الألباني في الصحيحه: ١٨٨٨ .

موضوع الصلاة ،وهذا تدرجاً معهم حتى يتمكن الإيمان من نفوسهم، وأهمية الاستدلال بهذا الحديث في موضوع التدرج أن إسلام ثقيف متأخر، وقد كان بعدما نزلت الشرائع والأحكام .

وحديث معاذ حين أرسله النبي ﷺ إلى اليمن فأمره بمنهج التدرج في تبليغ الأحكام الشرعية ويظهر ذلك في أن النبي أوصاه أنه إنما يدعوهم للصلاة إذا أطاعوه في الدخول في الإسلام، ويتوقف عندها، ولا يأمرهم بالزكاة إلا بعد أن يطيعوه في الصلاة، وهذا واضح من قول النبي ﷺ: (فإن هم أطاعوك). ولم ينتقل للزكاة إما لأنها لا تنفع بدون الصلاة، أو لأنها أثقل من الصلاة عليهم لأنها أخذ للأموال.

وهذا الحديث أصل كذلك في أن التدرج سنة باقية لم تتوقف بعد نزول التكاليف الشرعية واكتمال الدين، وإنه يصار لها كلما اقتضت المصلحة ذلك، وهذا ظاهر من أمر رسول الله ﷺ معاذاً بدعوة أهل اليمن بالتدرج في هذه التكاليف الشرعية الأساسية بعد أن نزلت واستقرت وعمل بها المسلمون في المدينة وغيرها .

من الأمثلة على التدرج في التكليف بالأحكام الشرعية:

١ ـ تحريم الخمر، حيث أتت الآية بالتعريض بالخمر وأن فيها ضرراً، في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة: ٢١٩]، ثم بالحرمة المقيدة، بالنهي عن قرب الصلاة في حالة السكر، وهذا يضيق وقت شرب الخمر، في قوله

تعالى ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[النساء: ٤٣]، ثم بالحرمة المطلقة للخمر سائر الأوقات[١]، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة: ٩٠ ـ ٩١].

٢ ـ إيجاب الصلاة، حيث نزل بالتدرج، فأول ما فرضت كان عدد ركعاتها أقل ثم زيدت، قالت عائشة رضي الله عنها: (أول مافرضت الصلاة ركعتين ركعين، فزيد في صلاة الحضر، وأُقرّت صلاة السفر)[٢].

٣ ـ إيجاب بالصيام، حيث نزل بالتدرج، فأولاً: أتى وجوب صيام يوم واحد هو عاشوراء، ثم صيام رمضان لكن على التخيير مابين الصيام أو الصدقة، ثم نزل الحكم الشرعي بوجوب الصوم على كل قادر عليه.

٤ ـ وجوب قتال المشركين: أتى الأمر بالقتال متدرجاً، فقد كان الأمر بكف اليد عن المشركين، ثم أتى الأمر بقتال من قاتل المسلمين، ثم نزل الحكم بمقاتلة المشركين كافة.

إعمال السلف لقاعدة التدرج:

نقل عن السلف إعمالهم لقاعدة التدرج في التربية والإصلاح، ومن ذلك:

---

(١) انظر: ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤ هـ)، تفسير القرآن العظيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠٤ م، ١/ ٢٢٣، ١/ ٤٤٣، ٢/ ٥٢٧.

(٢) متفق عليه.

١ ـ حين ألح ابن عمر بن عبدالعزيز على أبيه في إصلاح الأمور عند توليه الخلافة، قال له: يابني إن الله ذم الخمر في آيتين وحرمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة، فيدفعوه وتكون فتنة»[١].

٢ ـ سُئل مالك بن أنس عن رقيق الاعاجم، يجلبون إلى بلاد الإسلام في شهر رمضان، ولا يفقهون في الدين شيئاً، ويرغبون في الاسلام، فهل يرغمون على الصيام؟ فقال مالك: «أرى أن يطعموا، ولا يمنعوا الطعام، ويرفق بهم حتى يعلموا ويعرفوا السلام»[٢].

* * *

ثالثاً ـ فقه القاعدة

١ ـ التدرج مفتاح التربية:

التدرج أحد أهم مفاتيح التربية، بل لا يتصور فكر تربوي لإصلاح أحوال الأفراد والمجتمعات يصح أن يطلق عليه تربوي بدون مراعاة مبدأ التدرج .

التدرج من السنن الكونية:

التدرج من سنن هذا الكون ، ولا يتصور استمرار شيء يتعارض مع

---

(١) الشاطبي، الموافقات، ٢/ ٩٤، نقلا عن د سامي السويلم، فقه التدرج، ١٣ .

(٢) ابن رشد، البيان والتحصيل، ١/ ٢٩١، نقلا عن دسامي السويلم، فقه التدرج، ١٣ .

السنن ، وهو مشابه لقاعدة الواقعية في هذا، فالواقعية أيضاً هي انسجام التربية مع النواميس الكونية في هذه الحياة . لذا نحتاج إلى مراعاة دائمة لشأن الانسجام بين التربية وبين نواميس الكون التي اعتبرها الشارع .

لماذا يهمل المربون قاعدة التدرج؟!

أما أهم أسباب إهمال بعض من يتصدى للتربية لقاعدة التدرج فهو راجع لسببين :

السبب الأول: ماقد يتبادر للأذهان من وجود تعارض بين التدرج في التربية وبين تحقيق قاعدة الشمولية فيها، حيث قد يظن أن التدرج فيه تضييع لمبدأ شمولية التربية . وهذا سببه خطأ في التصور ، فإن التدرج لا يقتضي التبعيض للدين الذي هو مخالف للشمولية، بل يعني استكمال التربية شيئاً فشيئاً، وهذا أمر مختلف عن التبعيض، فالإيمان بكل الشريعة أمر لازم، أما تطبيقها فشيء آخر، فالمؤمن مسلم لله وعازم على تطبيق الشرع في حياته كلها، لكن بالتدرج، وليس منتقياً من الشرع بهواه[1].

والسبب الثاني: عدم التفريق بين التربية وبين التبليغ للأوامر الشرعية، والفرق بينهما كبير للغاية، فإن التكاليف الشرعية معلومة، وكل أحد يمكنه سردها للناس وتبليغها لهم، أما تربية الناس على التكاليف الشرعية فهو شيء آخر تماماً، وهو علم وفن مستقل له أحكامه وشروطه وآدابه ووسائله . والخلط بين الأمرين كثير وكبير، وهو مما يؤدي لفشل العملية

---

(١) انظر: د. سامي السويلم، التدرج في الاقتصاد ، ١٤ .

التربوية أو عـدم الانتفاع بالوعظ، لذا يتجرأ عـلى التربيـة أقـوام مسـتدلين بأحاديث التبليغ المطلق للدين ومافقهوا الفرق بينهما.

والسببان السابق ذكرهما من مظاهر الجهل بالفكر التربوي الإسـلامي، وهذا مايدفعـنا للحث على مزيد من التفقـه في هـذا العلـم، ونشـره بـين المهتمين بالتربية، فإنما تُـؤتى التربيـة الإسـلامية مـن تصـدي الجهلـة لهـا، وتسطيحهم لهذا الفكر العميق المتزن ، باجتهادات لاترقى للشريعة المنزلـة من عند الحكيم الخبير سبحانه وتعالى .

قال ابن تيمية : «وكذلك التائب من الذنوب والمـتعلم والمسترشـد؛ لايمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويذكر لـه جميـع العلـم ، فإنـه لايطيق ذلك ، وإذا لم يطقه لم يكن واجباً عليه في هذه الحال»[1].

واختم بكلام لابن القيم في التدرج يكتب بماء الذهب ، قال : «العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا، فإنهم لا يقدرون على تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم، فترك الدنيـا فضيلة وترك الذنوب فريضـة، فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يُقِمِ الفريضة؟!»[2].

منهج التدرج من تحقيق الربانية في التعليم والتربية:

إن التدرج هو من تحقيق الربانية في التعليم والتربية، ومن ذلـك قولـه

---

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، ٢٠ / ٦٠ .

(٢) ابن القيم، الفوائد، ١٦٩ .

تعـــالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]. قال القرطبي: «والربانيون واحدهم رباني، منسوب إلى الرّبّ، والرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره، وكأنه يقتدي بالرب سبحانه في تيسير الأمور، روي معناه عن ابن عباس»(١). وقيل الرباني: هو العالم الحكيم(٢). وقال مجاهد رحمه الله: الربانيون فوق العلماء(٣). وما قاله مجاهد رحمه الله يفيد بأن ما لدى الرباني من الفهم والعمل يميزه عن بقية العلماء.

وهذا لبّ التدرج في التربية، قال الشاطبي محذراً من مخالفة مسلك التدرج: «ويتصور ذلك فيمن يتبجح بذكر المسائل العلمية لمن ليس من أهلها، أو ذكر كبار المسائل لمن لا يحتمل عقله إلا صغارها، على ضد التربية المشروعة، فمثل هذا يوقع في مصائب»(٤).

وقد علق ابن القيم على قصة غناء الجاريتين في حضرة النبي ﷺ: «فقد أقر النبي ﷺ الصديق أن الغناء مزمور الشيطان...، فعلم أن هذا من الشيطان، وإن كان رخص فيه لهؤلاء الضعفاء العقول من النساء والصبيان، لئلا يدعوهم الشيطان إلى ما يفسد عليهم دينهم، إذ لا يمكن صرفهم عن

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، سورة آل عمران، (٧٩).

(٢) انظر: الشوكاني، فتح القدير، سورة آل عمران (٧٩).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، سورة آل عمران، (٧٩).

(٤) الشاطبي، الموافقات، ١ / ٨٧.

كل ماتتقاضاه الطباع من الباطل، والشريعة جاءت بتحصيل المنافع وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فهي تحصل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وتعطل أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، فإذا وصف العمل بما فيه من الفساد مثل كونه من عمل الشيطان، لم يمنع ذلك أن يدفع مفسدة شراً منه وأكبر»[1].

والوصية في شان التدرج متداولة لدى السلف ، في جميع مناحي الخير ومن ذلك طلب العلم ، ومن ذلك مارواه لنا يونس بن يزيد قال: قال لي ابن شهاب: يا يونس لا تكابر العلم، فإن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي[2].

٢ ـ العوامل المؤثرة على استمرار التدرج والتطور:

إن الاستمرارية في السير من الأولويات التي تقدم على تحقيق إنجاز تربوي كبير لكنه قد يؤدي الى التوقف بعده، وقد سبق تناول شيء من ذلك في قاعدة العبودية.

---

(١) ابن القيم، الكلام على مسالة السماع، نقلاً عن د. مسفر القحطاني، سؤال التدبير، نشر الشبكة العربية، بيروت، ط١، ٢٠١٤، ص: ٢٠٠.

(٢) يوسف بن عبدالبر (٤٦٣ هـ)، جامع بيان العلم وفضله، ابن الجوزي، تحقيق الزهيري، باب كيفية الرتبة في أخذ العلم، ١/ ٤٣١.

فما هي أهم العوامل المؤثرة على استمرارية السير الجاد؟

العامل الأول ـ العزيمة على الرشد:

إن البداية مؤشر على النهاية، فمن بدأ بجد وعزم كان حريّاً به أن يُختم له بما يتمنى، وكل من بدأ في سيره فاتراً ضعيفاً، فهو عرضة للوقوف أو للسقوط في أي مرحلة.

وليس القصد إرهاق النفس بالتكاليف في أول الأمر، بل المراد فهم الغاية من التربية والتزكية، قال ابن عطاء السكندري في حكمه: «من علامات النُجح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات»[1]. ومن حكم ابن عطاء كذلك: «من أشرقت بدايته، أشرقت نهايته»[2].

وأوصى الشيوخ معاشر الشباب بذلك، قال الجنيد: «كان السري[3] يقول لنا ونحن حوله: أنا لكم عبرة، يا معشر الشباب اعملوا فإنما العمل في الشبوبية»[4]. ومن أرجى الأمور في تحصيل ذلك سؤال الله علو الهمة، وقد أخبر النبي ﷺ: (إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها)[5] وهذا مما ينبغي على المربين الاهتمام به؛ فإن علو الهمة مفتاح لما بعده.

---

(١) ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية ، ٥١.

(٢) ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، ٥١.

(٣) السري السقطي هو خال الجنيد رحمهما الله.

(٤) أبونعيم، حلية الأولياء، ١٠ / ١٢٦.

(٥) معجم الطبراني، صححه الألباني في صحيح الجامع، برقم: ١٨٨٦.

لكن من المهم التفريق بين أمرين: علو الهمة مع حسن التخطيط لتربية النفس، وبين الاندفاع والحماس العشوائي! فإنه ما ملّ من ملّ، وترك من ترك، إلا لعدم التفريق بين علو الهمة وبين إرهاق النفس بالتكاليف الثقيلة عليها في أول الطريق.

العامل الثاني ـ العناية بالأساسيات:

إنه كلما مضى المسلم في طريق تربية النفس احتاج إلى تقوية الأساسات والدعائم الإيمانية التي تتحمل عناء ذلك الحِمل التربوي، ومن أمثلة تلك الأساسات التي لا يصح إهمالها أو التشاغل عنها: الأذكار والأوراد التي في الصباح والمساء، فينبغي توليتها مزيداً من الاهتمام كلما تقدم به السير، لأنها عون على الطريق، وتجد القرآن يأمر بها المؤمنين حال القتال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥] قال المفسرون: لأنه يعين على الثبات عند الشدائد. قال محمد ابن كعب القُرَظي: «لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص للرجل يكون في الحرب!»[1].

وذكر الإمام ابن تيمية أن أذكار الصباح غذاؤه وعونه على المشاق، فكان يقول: «هذه غدوتي، ولو لم أتغذّ هذا الغذاء سقطت قوتي»[2]. بل إنه

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، سورة الأنفال، آية: ٤٥.

(٢) ابن القيم، شمس الدين محمد بن قيم الجوزية (٧٥١ هـ)، الوابل الصيب من الكلم الطيب، تحقيق بشير عيون، مكتبة المؤيد، بيروت، ط ٣، ١٩٨٩م، ص: ٨٦.

كلما ارتقى احتاج تعميق المقامات الأساسية في نفسه، مثل الالتجاء إلى الله والافتقار إليه في إصلاح نفسه والناس، والذكر الكثير لله، ومداومة التوبة والاستغفار، وحذر ابن القيم ، فقال : «يحتاج هذا السالك في نهايته إلى أمور من البصيرة والتوبة والمحاسبة أعظم من حاجة صاحب البداية إليها»[1].

٣ ـ أهمية المحافظة على المستوى التربوي:

الموضوع الثالث في فقه هذه القاعدة يتناول المحافظة على المستوى الذي بلغه المتربي، فإن الوصول للمرتبة التالية أو الأعلى في التربية مطلب مهم، لكن لا يقل عنه في الأهمية المحافظة على المرتبة التي بلغها، وأن لا ينتقل منها إلّا إلى ما هو أعلى منها، فإن احتمال النزول عن المستوى وارد، وخير مثال أن من حفظ القرآن ونال هذا الشرف الكبير، إذا غفل عن تعهده تفلت منه ونسيه، فينزل عن مرتبة حفاظ كتاب الله . وهذا المثال من أوضح الأمثلة المشاهدة في النزول عن المراتب الإيمانية .

وقد قال النبي ﷺ لسيدنا أبي ذر رضي الله عنه : (إنك أمرؤ فيك جاهلية)، فقال له أبو ذر رضي الله عنه: أعلى كبر سني يا رسول الله؟! قال: نعم)[2] فلم يشفع كبر السن وقدم إسلام أبي ذر ألَّا يصاب بخصلة من خصال الجاهلية، وهو الذي قال عنه النبي ﷺ إنه: أصدق الناس لهجة رضي الله عنه. لذا لا ينبغي أن يأمن أحد من أن يصاب بآفة في تربيته أو

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ١/ ١٣٨.

(٢) متفق عليه.

أخلاقه مهما كبر سنه، أو علا شأنه.

التحذير من الغفلة عن إمكانية النزول:

إن الغفلة والتناسي لهذا المعنى الهام في التربية هو الذي أخر أناساً كانوا في المقدمة ، وقد قالوا قديماً: «أغبى الناس من ضلّ في آخر سفره وقد قارب المنزل»[1].

٤ ـ بين التدرج والتنطع:

الموضوع الرابع في فقه القاعدة يتناول التفريق بين موضوعي التنطع والتدرج، فإن التنطع قد يشتبه بموضوع التدرج في بعض الأذهان ، والفرق بينهما كبير، فإن باعث التنطع هو الغلو والتكلف وهذا معيق للسير والارتقاء، لذا فهو لا يتوافق مع مبدأ التدرج .

ولا يزال الإنسان يتنطع ويتشدد على نفسه حتى يدع العمل كله ويدع السير من أصله، فالتنطع من المداخل التي يدخل بها الشيطان على الناس، ويجرهم لما لا يحمد مآله وعاقبته، حيث يزين لهم بعض الأعمال التي في ظاهرها الحرص على الطاعة، لكن حقيقتها غير ذلك!

وقد حذر الغزالي من يطلب الورع في الدقائق ويتنطع في ذلك، قال رحمه الله: «والورع حسن والمبالغة فيه أحسن ولكن إلى حد معلوم، فقد قال ﷺ: (هلك المتنطعون)[2]، فليحذر من أمثال هذه المبالغات فإنها وإن

---

(١) ابن القيم، الفوائد، ١٨٩.

(٢) رواه مسلم.

كانت لا تضر صاحبها، ربما أوهم عند الغير أن مثل ذلك مهم ثم يعجز عما هو أيسر منه، فيترك أصل الورع وهو مستند أكثر الناس في زماننا هذا إذ ضيق عليهم الطريق فأيسوا عن القيام به فأطرحوه، فكما أن الموسوس في الطهارة قد يعجز عن الطهارة فيتركها...»[1]. وكم شوهد من أشخاص تشددوا في بعض المسائل اليسيرة وأولوها من العناية ما لا تستحق، أو شدد على نفسه وعلى من يربيهم في دقائق الأمور حتى ملّت النفوس وكلّت، وتركت السير في طريق التربية والتزكية. وهذا التنطع من مداخل الشيطان على الصالحين، التي تؤدي بهم إلى الملالة وترك الأعمال، ومن قلة الفقه أن يُعد التنطع من الحرص على القيام بالأوامر الشرعية![2]

التدرج لا يعني أن يحوز الكمال في المستوى لينتقل لما بعده:

إن قاعدة التدرج لا تعني أن يقضي المرء حياته كلها في مرحلة لايتركها حتى يحوز الكمال فيها، فهذا أمر يطول، وأيضا فأمر الكمال في كل مرتبة ليس محدوداً بحد متفق عليه، ولكن المراد بالتدرج أن يحقق الحد المعقول من كل مستوى تربوي بحيث يكون له نصيب وافر منه ويحققه في نفسه ثم ينتقل لما بعده ، وهذا يشبه ماسبق ذكره في تحقيق الحد الأدنى من الشمولية ، والقصد من هذا التنبيه لفت نظر المربين إلى أهمية الحذر من الفكر المثالي ؛ بصوره وتطبيقاته المختلفة ، لكن مؤداه واحد ، وهو الانقطاع

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين ، ٢/ ١١١.

(٢) ينظر في هذا الموضوع ، كتاب تلبيس إبليس للإمام ابن الجوزي .

عن تزكية النفس وعن العمل الصالح .

٥ ـ الانتقال بين المقامات والمستويات التربوية بالوثب بدل الخطوات:

الموضوع الخامس في فقه هذه القاعدة يتناول الاستثناء الذي يدخل عليها، حيث يوجد في كل زمان نفر يقفزون ويثبون في صعودهم للمراحل والمقامات، بدلا من الترقي مرحلة مرحلة ودرجة درجة، وهذا مشاهد في قصة سحرة فرعون، حيث انتقلوا في لحظات من سحرة مشركين بالله، إلى مقام المؤمنين الصابرين المحتسبين، فقالوا لفرعون: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه: ٧٢]. وهذا الموقف لا يقدر عليه إلا من جاهد نفسه وزكاها سنوات، لكن السحرة بلغوه في لحظات، وهذا من فضل الله تعالى عليهم. ومثل هذا ما حدث من بعض الصحابة: فإن أحدهم يسلم اليوم ثم يلقي نفسه في معركة طاحنة يبتغي الشهادة، أو يصدع بالحق نصرة للدين، لايبالي بما يصيبه.

وينبغي الانتباه إلى أن للفروق الفردية في أصل معادن الناس أثراً في هذا الأمر ولا شك، والفاروق رضي الله عنه من الأمثلة الظاهرة في هذا، وكيف أنه كان يطوي المنازل التربوية، ويسبق من أسلم قبله بسنوات!

وقد قال ﷺ: (خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام: إذا فقهوا)[1].

---

(١) متفق عليه.

قال ابـن القيـم: «وقـد يعـرض له أعلى المقامات والأحوال في أول بداية سيره، فينفتح عليه مـن حـال المحبة والرضا والأنس والطمأنينة ما لم يحصل بعد لسالك في نهايته..، فليس في ذلك ترتيب كلي لازم للسلوك»[1]. لكن يبقى أن هذا استثناء من الأصل [2].

وألفت نظر القارئ الكريم إلى أن بعض التفاصيل التي تـرد في ثنايـا هذه القواعد قد لاتعني جميع القراء، لكنها قد تكون مهمة للمربين، لأثرهـا على فهم بعض الظواهر المتكررة في المشهد التربوي، والتي قد تكون غامضة الأسباب، أو للتفريق بـين الظـواهر المتشـابهة في ظاهرهـا لكنهـا مختلفـة في حقيقتها.

* * *

رابعاً ـ تحقيق القاعدة وتنزيلها

١ ـ تشبيه التطور التربوي بالتدرج الحسي يقرب الفكرة إلى الأذهان:

إن غاية الأمثال تقريب المعاني الذهنية بذكر مايشابهها مـن الأشـياء الحسية، قال تعالى في شأن الأمثال:

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ١/ ١٣٨.

(٢) قال الجنيد رحمه الله: «قد يُنقل العبد من حال إلى حال أرفع منها، وقد بقـي عليـه من التي نقل عنها بقية، فيُشرف عليها من الحالة الثانية فيصلحها!».

انظر: الهروي، منازل السائرين، ٦.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. ومن ذلك تشبيه السير في المراتب التربوية بالسير في الطريق الحسي المعتاد، فإن هذا التشبيه يُسهل فهم أمر السير المعنوي، بل إن قدر التشابه الموجود لو أدركه الإنسان لهان عليه السير، بل ولتلذذ بسيره واستمتع به كما يستمتع من يعرف الطريق الحسي، عكس الذي يمشي على غير هدى ودراية فإن الوحشة والخوف يلازمانه، ولا ينفك من تعجب ودهشة من كل مايراه في سيره، وقد يؤدي به هذا الحال إلى التأخر في السير والبطء فيه، وقد يعود من حيث أتى!

قال ابن القيم موضحا كيفية ترتيبه للمقامات التربوية: «ونذكر لها ترتيباً غير مستحق، بل مستحسن، بحسب ترتيب السير الحسي، ليكون ذلك أقرب إلى تنزيل المعقول منزلة المشهود بالحس، فيكون التصديق أتم ومعرفته أكمل وضبطه أسهل، فهذه فائدة ضرب الأمثال، فاعلم أن العبد قبل وصول الداعي إليه في نوم الغفلة قلبه نائم..، فأول مراتب هذا النائم اليقظة والانتباه من النوم»[1]. ثم شرع ابن القيم في ذكر المقامات بعد مقام اليقظة كما هو حال من يسير في الطريق، حيث يبدأ نهاره بالاستيقاظ من النوم ثم يبدأ الاستعداد للسير، لذا أتت بعض المقامات الأهم متأخرة عن مقامات دونها في الأهمية، كمقام الإخلاص فقد تأخر إيراده عن مقامات أقل منه في المرتبة.

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ١ / ١٤٠ ـ ١٤١.

النبي ﷺ يضرب المثل بالسير في السفر:

وقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب مع أصحابه في أكثر من مناسبة، ومن ذلك قوله رسول الله ﷺ: (من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة)[1]. و أدلج بإسكان الدال ومعناه سار من أول الليل، والمراد التشمير في الطاعة[2]. وكذلك تشبيه النبي ﷺ حال الإنسان مع الدنيا: (إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)[3]. فصورة السير على الأرض في السفر تقرب معاني التربية للذهن، لأن صورة الراكب يتخيلها كل أحد، ومر بهذه التجربة كل إنسان .

٢ ـ من المقاربات في السير التربوي:

هناك مقاربات في ارتباط السير المعنوي في التربية بالسير الحسي، ومن ذلك:

المقاربة الأولى ـ مشقة السير في طريق التربية تزول بالاعتياد:

إن السير في مدارج التربية مثل السير الحسي، فإن المشقة في السير الحسي تزول كلما اعتاد المرء السير، وفي السير التربوي تخف المشقة كلما قطع المرء شوطا أكبر، لذا قالوا: «من يتعبد يزدد قوة، ومن يكسل يزدد

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن وحسنه الأرنؤوط.

(٢) انظر: النووي، رياض الصالحين، ١٣.

(٣) رواه ابن ماجه.

فترة!»[1]. فأمر مجاهدة النفس شاق في أول الأمر، ثم يسهل مع الوقت، ثم ينقلب إلى حلاوة يجدها العبد في قلبه، حتى يصل إلى حالة لو أراد الرجوع للتقصير فإن نفسه لا تطاوعه، وقد وصف الكثير من السلف هذا اليُسر الحاصل من واقع ما جربوا، فقال أحدهم: «كابدت الصلاة عشرين سنة وتنعمت بها عشرين سنة»[2].

المقاربة الثانية ـ الفتور حال السير:

إن المرء قد يفتر ويتوقف عن السير في طريق التربية والتزكية، لكن فتوره أمر وقتي، كحال المسافر والراكب الذي يستجم ويستريح في الطريق، ثم يتابع سيره وارتقاءه، فالفتور أمر عارض وليس هو الأصل، حتى قيل في تعريفه إنه: «ما يتروح به قلوب المجتهدين وقتاً دون وقت ثم تعود على الحال»[3]. وأجمل ما قيل في ذلك كلام لابن الجوزي: «العارف بالله في السير لا يفتر، ولا ينكر أن يقوى طبعه عليه في حال، غير أنه لا يصير أسيراً، إنما يميل يسيراً!»[4].

وابن القيم يذكر أعجب من ذلك بأن وقوف المشمر سير، لأنه يَستجِم به، قال في المدارج: «فإن قلت كل مُجد في طلب شيء لابد وأن يعرض له

---

(١) من كلام وهب بن منبه، انظر: أبونعيم، حلية الأولياء، ٤ / ٥٨.

(٢) من كلام عتبة الغلام، انظر: أبونعيم، حلية الأولياء، ١٠ / ١٠.

(٣) السراج، اللمع، ٥٢٥.

(٤) ابن الجوزي، ذم الهوى، ٢٤٤.

وقفة وفتور، ثم ينهض إلى طلبه؟! قلت: لابد من ذلك، ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليُجِم نفسه ويعدها للسير، فهذا وقفه سير، ولا تضره الوقفة، فإن لكل عمل شِرة، ولكل شِرة فترة»[1]. وهذا من الأبواب الهامة في مسايسة النفس حال تربيتها، فالاستجمام منه اليومي، ومنه الشهري، ومنه السنوي: فخلال اليوم إذا وجد المرء من نفسه مللاً أو إعراضاً عن الطاعة ينبغي أن يسايسها بالإراحة لها، وهذا يشمل كل أنواع الاستجمام والترويح المباح، وهكذا في كل شهر وفي كل سنة، لكن بأوقات استجمام أكبر تتناسب والوقت الذي كدّت به النفس واجتهدت بالسير، لذا فإن من المهم أن يفقه كل إنسان كيف يتعامل مع نفسه ويسايسها لتكمل المسير، فكل إنسان أدرى بطاقته وحاجته ، وليس كل الناس سواء .

وفقه الاستجمام مما ينبغي تنزيله على حال المجتمع؛ فالمجتمع يحتاج إلى استجمام وإراحة، وقد يصيب عموم الناس الفتور، لذا كان النبي ﷺ يراعي نفوس اصحابه، ولا يثقل عليهم، رغم مقامهم العالي في التربية، وطلبهم للمزيد ، ولنتأمل كيف أمرنا الشرع بأن تكون أيام العيد أيام فرح وأكل وراحة بعد موسمي الصيام والحج !

المقاربة الثالثة ـ معرفة المنزلة بعد مفارقتها:

من المقاربات ما بين السير التربوي والسير الحسي أن المرء لا يعرف منزلته حتى يتجاوزها، بالصعود أو النزول، فالمرء قد لا يعرف أين موقعه

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين ، ١ / ٢٩٢.

حتى ينتقل لغيره ، فإن تجاوزه إلى الأعلى ح فإنه سينظر من أعلى إلى منزلته القديمة ويرى كم من الخير أصاب فارتقى، وإن تجاوزه إلى الأدنى ؛ فإنه سيرفع رأسه لينظر إلى مكانته القديمة فيراها أعلى مما هو عليه، وهذا الحال يُشبه حال من صعد أعلى الجبل، فنظر من أعلاه إلى سفحه، فيرى المنازل والمراحل التي كان بها ثم قطعها وتجاوزها، ثم إذا نزل إلى سفح الجبل فلن يخفى عليه أي علو كان هو فيه.

ومن روائع الإمام ابن الجوزي ماوصف به حال السائرين ،قال : «من الصفوة أقوام منذ تيقظوا ما ناموا، ومنذ سلكوا ما وقفوا، فهمهم صعود وترقّ، كلما عبروا مقاماً إلى مقام رأوا نقص ماكانوا فيه فاستغفروا.»[1].

٣ ـ أهمية تحديد مستوى المتربي والمتلقي للوعظ:

إن من أساسيات تحقيق قاعدة التدرج معرفة مستوى المتربي أو مستوى المتلقين للوعظ، إذ إنه يُمهد لإنزال كل شخص منزلته التربوية التي يستحقها، ثم البناء عليها والارتقاء بعد ذلك. وهذه المسألة من مفاتيح التوفيق في تربية الناس، ولقد كان من آداب المربين في السابق أنه إذا علموا من بعض المتربين ضعفاً في مراغمة النفس وقهرها أن يرفقوا به ويوقفوه على حد الرخصة، أي لايطلبوا منه العزائم، ففي ذلك خير كثير، ثم إذا ثبت هذا المسترشد يُدرج بالرفق إلى أوطان العزيمة![2]

---

(١) ابن الجوزي، صيد الخاطر، ٤٣٥.

(٢) انظر: السهروردي، عوارف المعارف، ملحق بكتاب إحياء علوم الدين للغزالي،=

لذا ينبغي على المربي أن يفرق بين ماهو أكمل وأفضل ، وبين ماهو مناسب للمتربي أو لمتلقي الوعظ ، وهذا التفريق يظهر فقه المربي والواعظ بالشريعة ، فالورع مثلاً من الفضائل بلاشك ، لكنه لايصلح للمتربين ولعامة الناس ، وكان الإمام أحمد عندما يسأل عن دقائق مسائل الورع، يستقصي عن السائل من هو؟ ولذلك عندما سألته امرأة عن مسألة من دقائق الورع، سألها الإمام أحمد من تكون؟ فلما أخبرته أنها أخت بشر بن الحارث الحافي أجابها عن مسألتها، وقال لها: من بيتكم يخرج الورع![1].

وخطورة إهمال ذلك أنه قد تصيب الإنسان نفرة من العمل الصالح، يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: «فرب عمل صالح يدخل بسببه على رجل ضرر أو فترة، ولا يكون كذلك بالنسبة إلى آخر»[2].

الترويح المجتمعي وعلاقته بالمستوى التربوي للمجتمع:

ومعرفة المستوى التربوي العام للمجتمع مهم ، فالبعض يغفل هذه

= دار القلم، لبنان، ط الثالثة ، ٥/ ٢٠٩ .

(١) من أهم أبواب الورع؛ البعد عن الخلاف الفقهي، والبعد عن مافيه شبهة، لكن الخلاف الفقهي درجات، والشبه كذلك درجات ، لذا كان بعض الأئمة لايجيب العوام عن مسائل دقائق الورع ، ولايدعوهم للأخذ بالأشق من أقوال الفقهاء في مسائل الخلاف، بل كان العلماء يأخذون بالورع في خاصة أنفسهم فقط . وفقه الورع والإفتاء به ، والتربية عليه مما ينبغي للمربين التفقه فيه . وينظر في هذا الموضوع الكتب التي تناولت آداب وفقه الفتوى .

(٢) الشاطبي، الموافقات، ٤/ ٩٨.

الحقيقة حال وعظه أو تربيته لعموم الناس ، فهو يطلب منهم مالايمكن طلبه إلا من مجتمع لايوجد فيه إلا أمثال بشر الحافي والجنيد وسفيان الثوري! وهذا وإن لم يتلفظ به المربي إلا أنه يمكن استشفافه من نقده لمجتمعه ، أو من مطالباته الإصلاحية في جانب التربية ، ومن ذلك أن الناس يلزمهم ساعات للترويح تتناسب مع هممهم وطاقتهم ، فلا يطيق كل البشر ما يطيقه البعض، والأصل ان أصحاب الهمم العالية في كل مجتمع هم القلة وليسوا الكثرة، لذا تعجب من استنكار البعض على المجتمع ترويحه لنفسه في حضور الأشياء المباحة، مثل مباريات كرة القدم ونحوها، ويراها من إضاعة الأعمار والأوقات، والبعض يتكلف في حساب الساعات المهدرة من الأمة في كل مباراة! ولو فقهنا التدرج على حقيقته لما طالبنا المجتمعات المسلمة اليوم بمثل هذا الورع في المحافظة على الوقت، لكنها **فوضى الفكر التربوي وعشوائيته** إن صح التعبير، التي تفيتنا الحكمة فيما نطلبه من الناس .

أهمية التدرج في اختيار الأنسب من العبادات:

ومن فقه التدرج أن يرشد المربي من يربيهم إلى ماينا سبهم من الأعمال وينفعهم،حتى لو كان الأكمل والأفضل سواه ، وهذه من قواعد التربية المهمة . ومن ذلك أن قراءة القرآن هي خير من مطلق الذكر، لكن الذكر قد يكون في حق من لا يفهم معاني القرآن أو من لم يملأ قلبه بالإيمان أفضل وأنفع لقلبه، قال ابن تيمية رحمه الله: «فأكثر السالكين إذا قرؤوا القرآن لايفهمونه، وهم بعد لم يذوقوا حلاوة الإيمان الذي يزيدهم بها القرآن إيماناً، فإذا أقبلوا على الذكر أعطاهم الذكر من الإيمان مايجدون

حلاوته ولذته، فيكون الذكر أنفع لهم حينئذ من قراءة لايفهمونها، ولا معهم من الإيمان مايزداد بقراءة القرآن»[1]. ويقاس على ذلك إرشادهم لتلاوة الآيات التي يدركون معانيها، كالبدء بتلاوة وتدبر القران من سورة تبارك الذي بيده الملك حتى المعوذتين .

التفريق بين الحال العابر وبين المستوى التربوي:

إن من المهم أن يفرق المربي بين الحال العابر الذي قد يصله المتربي عند قيامه بعبادة ما، وبين مستواه التربوي الحقيقي، فالأول مثل خشوع المتربي أثناء دعاء خاشع في قنوت الوتر ، أو إخباته أثناء أدائه للعمرة. ولدى المربين الأوائل تفريق في المصطلح، فيسمون المرتبة التي بلغها المتربي، المقام، لأنه بلغها وأقام بها، أما المنزلة العارضة فإنهم يسمونها: الحال، لأنه يحل بها ثم يرتحل[2]، وقد فسر الجنيد الحال بأنه: «الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم!»[3]. والذي يهمنا أن الحال هو أمر وقتي عارض لا يستمر، ولا يبنى عليه في التدرج التربوي.

وهذا أيضاً متصور في تربية المجتمعات، فلا يصح أن نبني على حال الناس في العشر الأواخر في رمضان، فهذا حال عابر، لا يمكن الاعتماد عليه فيما نطالبهم به من عبادات بعد رمضان!

---

(١) ابن تيمية، الفتاوى، ١١ / ٤٠٠.

(٢) انظر: السهروردي، ٥ / ٢٢٩.

(٣) السراج، اللمع، ٦٦.

من مهام المربي التوجيه إلى قاعدة التدرج:

وختاماً فإن من مهام المربي أن يناصح ويوجه من يربيهم في التزام منهج التدرج، وذلك بأن يرشدهم إلى ألَّا يُشغلوا أنفسهم بمرتبة أو منزلة قبل أن يحصلوا ما قبلها، حتى لا يضيع الأولى والأهم[1].

٤ـ مراحل التربية يُبنى بعضها على بعض:

إن التربية بناء هرمي الشكل، يُبنى بعضه على بعض، ومن المهم تقريب هذا التشبيه للمتربين، فإن ضعف اللبنات الأولى أو حجر الأساس يؤثر على البناء كله، مهما طال وشمخ في أعيننا.

لذا فمما ينبغي التنبه له أن تجاوز المرحلة التربوية لايعني عدم الحاجة إلى العناية بها وتفقدها في نفسه، وكذلك الحال مع المراحل الأساسية التي هي أساس البناء التربوي، ومثال ذلك البكاء عند قراءة القرآن الكريم، فهذا مقام تربوي لا يتحقق بدون المقام الذي قبله وهو الخشوع، ولا يمكن الخشوع بدون المداومة على التلاوة وترقيق القلب بالقرآن، وهذا مقام آخر، يقتضي حب التلاوة والتلذذ بها، فمن يصل لمقام الخشوع والبكاء ثم يدع المداومة على التلاوة فلن يخشع قلبه أو تدمع عينه بعد ذلك.

قال ابن القيم: «واعلم أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ويفارقه وينتقل إلى الثاني كمنازل السير الحسي هذا محال، ألا ترى أن اليقظة معه في كل مقام لا تفارقه، وكذلك البصيرة والإرادة

---

(١) انظر: الغزالي، الاحياء، ١/ ٧٩.

والعزم، وكذلك التوبة فإنها كما أنها من أول المقامات فهي آخرها أيضاً، بل هي في كل مقام مستصحبة..، وكذلك الصبر فإنه لا ينفك عنه في مقام من المقامات، وإنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له، ومثال ذلك أن الرضا مترتب على الصبر لتوقف الرضا عليه واستحالة ثبوته بدونه، فإذا قيل إن مقام الرضا..، بعد مقام الصبر، لا يعني به أنه يفارق الصبر وينتقل إلى الرضا، وإنما يعني أنه لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله مقام الصبر، فافهم هذا الترتيب في مقامات العبودية»[1].

وهذه المعاني رغم سهولتها وبدهيتها إلا أنها مما يُنسى أو يُهمل لأسباب عديدة ، والذكرى تنفع المؤمنين دائماً .

وأيضاً مما ينبغي للمربي ملاحظته؛ مبدأ تراكم الأعمال ، أي أن الأعمال في حقيقتها مثل الأساس الذي يبنى عليه مابعده ، فتراكمها يقوي ذلك الأساس ، يقول الإمام الغزالي: «إن الطاعة الواحدة يكون لها أثر، لكن ليس كأثر اجتماع الطاعات.»[2] وقس على هذا في سائر أمور التربية.

* * *

خامساً ـ أثر غياب القاعدة

إن ما ذُكر سابقا في تحقيق القاعدة مهم، ومتى أهملنا العمل به

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ١ / ١٣٣.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين ، ١/ ٤٩٢.

فيمكن لنا تصور الآثار المتوقعة من غياب القاعدة ، ويضاف لها هذه الآثار:

١ ـ إن من أهم آثار غياب قاعدة التدرج التربوي لدى المُربي: محاولته حمل وترقية المتربين إلى مقامات تربوية عالية، ولما ينالوا شيئاً من التربية الأساسية بعد، وكذلك طلبه من المتربين أموراً لا تتناسب ومرحلتهم التربوية، وكذلك يفعل الواعظ بأن يحدث العامة بمقامات في التربية والعمل لم يحوزوا ماقبلها. أو يورد لهم من القصص عن السلف مالايتصور بلوغه إلا من خاصة الخاصة !

وهذه تؤدي إلى أمرين: نفور المتربي، وسأم المربي وإحباطه لأنه لا يجد النتيجة التي كان يأملها.

ومثل هذا يقال عن المجتمع، فلن ينجز شيئا من يستعجل تربية المجتمع وإصلاحه، ثم يتذمر من عدم استجابة الناس له، إن أسوأ ما يوصل المربين للإحباط هو وضع خيالهم المتفائل في تجاوب الناس معهم في مواعظهم. وقد غاب عنهم أن تربية المجتمعات أصعب من تربية الأفراد، وأنه سيتفاعل مع الموعظة بعد انتهائها نسبة قليلة من المستمعين ، والحذر من الحكم بناء على التأثر الوقتي زمن الموعظة .

٢ ـ ومن أهم آثار غياب قاعدة التدرج التربوي لدى المتربي: طلبه لمراتب ومقامات تربوية لم يُحصّل ما قبلها، كطلب البكاء عند قراءة الإمام في الصلاة، ولما يتحقق عنده الخشوع في الصلاة، فإما أن يتكلف ويتصنع ذلك،

وإما أن ييأس ويدع العمل، وآفته أنه لم يفقه أمر التدرج بها، وهنا دور المربي في التوجيه والإرشاد.

* * *

القاعدة الثامنة
الواقعية

أولاً- المراد بالقاعدة

الواقعيـة يراد بها؛ التعامل مـع الحقـائق كـما هـي، وعـرض الآراء والأحداث والظروف دون نظر مثالي[1].

أما الواقعيـة في التربية فهي: تنزيـل الأهـداف التربويـة إلى الواقـع بالمعيار المعقول الذي يمكن تحقيقه ، بما يتوافق مع ظـرفي الزمـان والمكـان، ومع القدرات الشخصية للمتربي.

أي أن الواقعيـة في التربيـة هي اعتبار لأثر واقع الناس حال تربيتهم ووعظهم ، وهذا يشمل مراعاة التركيبة البشرية والظروف المحيطة .

الفرق بين قاعدة التدرج وقاعدة الواقعية:

إن هناك فرقاً بين التدرج في التربية وبين الواقعية في التربية، فالواقعية متعلقة بالمرحلة التي هو فيها، وكيفية إدراكها وتحقيقها، أما التدرج فهو متعلق بالرابط بين المرحلة التي هو فيها والمرحلة التي تليها.

---

(١) قاموس المعاني، www. almaany. Com.

ففي حالة فهم قاعدة التدرج في التربية مع غياب قاعدة الواقعية يعي المرء أهمية قطع مرحلة تربوية بعد مرحلة، لكن لا يريد المُربي أو المتربي أن يقضي الوقت الكافي لنيل التربية اللازمة لتحقيق المرتبة التربوية المطلوبة في نفسه، بل يستعجل النتائج ويستطيل الطريق ويريد تحقيق الكثير في زمن قليل لايسع لمثل هذا الفعل، رغبة منه في الانتقال للمقام والمرحلة التي بعدها، فيرهق نفسه حتى تَكل وتتوقف، فهو قد أدرك معنى التدرج لكن غابت عنه معاني الواقعية .

أما في حالة الفهم لقاعدة الواقعية مع غياب قاعدة التدرج يعي المتربي عامل الوقت والقدرات والامكانيات، فيعطي الوقت اللازم لكل مرحلة، لكنه ينظر إلى منازل ومقامات تربوية وإيمانية بينه وبينها مراحل ومقامات، ويريد أن يقفز إليها وهو بعد ماحقق هذه المقامات التي قبلها، وهذا لعدم فهم قاعدة التدرج .

الواقعية في التربية والمعاصرة:

الواقعية في التربية تتضمن مراعاة العصر ومتغيراته حال التربية، ويشمل ذلك المواكبة الدائمة للتغيّرات الحاصلة في المفاهيم والأفكار على كل جيل، فلا يتصور أن يقوم بالتربية من هو بعيد عن أفكار الجيل الذي يعظه ويربيه، ولا يتصور أن ينجح فيها من هو بعيد عن مجتمعه، ولايدرك أهم مشاكله وهمومه .

وإن المعاني السابقة تدور على ما يسمّى بفقه الاستطاعة أو الممكن،

وهو مراعاة لكل ما يتعلق بالواقعية.

* * *

ثانياً ـ الأصل الشرعي للقاعدة

يُستدل للواقعية بعموم النصوص التي أتت بمراعاة القدرة البشرية، ومراعاة الفروق بين عباد الله ، سواء لأسباب أصلية أو عارضة، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[البقرة: ٢٨٦] وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن: ١٦]. وقوله تعالى مذكراً العباد بحدود طاقتهم: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[النساء: ١٢٩]، فقد أشارت الآية القرآنية إلى أن هناك حدوداً في قدرة البشر على العدل، بسبب الضعف الأصلي في تركيبة البشر.

وقد أتت القاعدة الشرعية الكبرى في ذلك، في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج: ٧٨].

وأتى القرآن الكريم بأحكام راعى فيها تفاوت أحوال الناس وقدراتهم، منها قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾[الفتح: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ٩١]. وقد سماهم الله ﴿مُحْسِنِينَ﴾ رغم تخلفهم عن الجهاد

مراعاة لظروفهم[1]. وأتت الشريعة بمراعاة الفروق بين البشر: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾[آل عمران: ٣٦].

لذا كان دعاء النبي ﷺ فيما يتعلق بالعدل بين أزواجه: (اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما لا أملك)[2]، فالعدل الممكن هو ما يتعلق بالماديات، أما ما يتعلق بالميل القلبي فلا يمكن العدل فيه، لذا كان من مراعاة الشارع لواقع البشر عدم إلزامهم بالعدل القلبي.

ومن أدلة السنة قول النبي ﷺ: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم)[3]. وقوله ﷺ: (إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[4].

وهذا كله يؤكد مبدأ مراعاة الشرع للواقع حال التكليف ، وهذا مالابد من اعتباره حال التربية .

* * *

ثالثاً ـ من فقه القاعدة

قبل الدخول في فقه القاعدة ، ألفت انتباه القارئ الكريم إلى التشابه

---

(١) انظر، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة التوبة، آية: (٩١).

(٢) رواه النسائي وأبوداود والترمذي وابن ماجه.

(٣) البخاري.

(٤) رواه ابن ماجه في سننه، وابن حبان في صحيحه.

بين هذه القاعدة وقاعدة التدرج من جهة ارتباطهما الوثيق بموضوع السنن الكونية، فلا يمكن أن نفهم الواقعية إذا لم نفهم السنن الكونية وأثرها على الحياة وعلى الإنسان، وهذه من المواضيع التي ينبغي على المربي والمصلح إدراكها .

١ـ من فقه الواقعية مراعاة خصائص البشر وفطرتهم:

إن تعامل المربي مع المتربين ينبغي أن يُراعى فيه خصائصهم البشرية، وهذا يقتضي إدراكه لخصائص البشر وتركيبتهم، ومن أهمها:

أ ـ النقص وعدم الكمال.

ب ـ قابلية الوقوع في الخطأ.

ج ـ تقلبات أحوال النفس البشرية ، وتأثير عوامل مثل الملل والمزاجية.

د ـ حاجة النفس البشرية الدائمة للترويح.

هـ ـ النسيان والغفلة.

و ـ حب فطري في النفس البشرية لزينة الحياة الدنيا من مال وشهوات، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

فمراعاة الخصائص البشرية تعني أن نضع نصب أعيننا هذه الخصائص البشرية حال تربيتنا وتوجيهنا للناس، ونقيض ذلك المثالية أن نطلب من الناس التطهر والتخلص من الصفات السلبية السابقة، ومن طلب ذلك

فقد طلب المستحيل من العنصر البشري، وعاكس السنن والفطرة .

إنكار النبي لأي عبادة أو تصرف فيه تحميل النفس ما لا تطيقه:

لقد أنكر النبي ﷺ أي عبادة من جنس الرهبانية، أو فيها تحميل للنفس بما لا تطيق ، ومن الأمثلة على ذلك:

أ ـ حين رأى النبي ﷺ حبلاً في المسجد، فسأل عنه؟ فقيل له: إنه لزينب رضي الله عنها ليعينها على الوقوف عند صلاتها بالليل، فأنكر ذلك وأمر بإزالته، وقال: (حُلُّوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا كلّ أو فتر قعد)[1]؛ فأي شيء يتعدى الطاقة البشرية العادية كان النبي يأمر بإزالته.

ب ـ حين زار النبي ﷺ رجلاً من المسلمين فوجده قد خَفَتَ ـ أي ضعف وسكن ـ فصار مثل الفرخ، فسأله هل كنت تدعو بشيء؟ فأخبره الرجل أنه كان يدعو الله أن يعجل له العذاب في الدنيا! فأنكر النبي ﷺ عليه، وقال له: (سبحان الله: لا تطيقه أو لا تستطيعه!) ثم أمره أن يقول: (اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)[2].

ج ـ من أمثلة مراعاة النبي ﷺ لخصائص النفس البشرية وعدم تحميلها ما لا تطيق، أمر النبي ﷺ للصحابة بالفطر في السفر، بل وغضبه ممن خالفه، حيث كان الحرّ شديداً والصوم لا يُطاق ، لكن بعض الصحابة رأى النبي

---

(١) رواه البخاري.

(٢) الحديث في مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا.

صائماً فأحب الصيام، فأفطر النبي ﷺ أمام الناس، ولما علم أن البعض لم يُفطر غضب النبي ﷺ من ذلك وقال: (أولئك العصاة، أولئك العصاة)[1]!

وفي حادثة أخرى قال ﷺ حين رأى رجلاً يظلل عليه من شدة التعب: (ليس من البر الصيام في السفر)[2]، لأنه كما سبق تقريره في قاعدة العبودية: أن من تمامها اتيان الرخص الشرعية .

وهذا الأمثلة تدل على أن تحميل النفس ما لا تطيق من الأعمال أو ما يؤول إلى الهموم والأمراض مخالف لمقاصد الشرع وللتيسر والسماحة الذي أتت به الشريعة.

من فقه الواقعية ـ مراعاة الفطرة:

الفطرة هي الخلقة الأصلية للبشر، أي هي الأصل الذي جُبل عليه البشر من خير وشر في أصل خلقتهم الأولى، وإن مما جُبل عليه البشر: الاستعجال، قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾. وكذلك حب النساء والولدان والأموال، لذا فإن مخالفة الفطرة مخالفة للواقعية، وهي التي تقود إلى الرهبانية، التي هي من صورة المثالية. إن الإسلام لا يدعو إلى كبت الغرائز الفطرية، إنما يدعوا إلى تنظيم إشباعها، والتحكم فيها، وتوجيهها بما يحقق مصلحة الفرد والجماعة[3].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) فواز الصعيدي، أساليب التربية النبوية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ٢٠١.

أما مبدأ الرهبانية فقد ابتدعه قوم من بني إسرائيل بقصد التقرب الى الله، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[الحديد: ٢٧]، وقد بينت الآية أن الرهبانية ابتدعت من قبل البشر، وأن الله تعالى لم يأمرهم بها، وأنهم بعد ذلك ماقدروا أن يقوموا بها حق القيام، لمخالفتها للفطرة.

وقد منع النبي ﷺ أي صورة للرهبنة، فلما جاءه النفر الثلاثة الذين عزم كل منهم على أمر يخالف الفطرة ويقترب من المثالية، من الصيام الدائم، وقيام الليل كله، وترك النكاح، وهي من أعمال الرهبان ! مما أغضب النبي ﷺ، لأن هذه المثالية تخالف الحنيفية السمحة التي جاء بها النبي ﷺ[1]، وكذلك حين كان يأتيه بعض الصحابة ويرغبون في أن يلزموا أنفسهم بأعمال وعبادات كثيرة، كان النبي يأمرهم بالقليل الذي يمكنهم أن يداوموا عليه، كما في قصة عبدالله بن عمرو رضي الله عنه وستأتي لاحقاً.

إن هذه الأمور المثالية في العبادة والزهد قد تكون بعيدة عن تفكير الناس اليوم، لكن قد يأتي الشيطان للناس بأمور من المثالية أقل من ذلك مما يتناسب مع عزم الناس اليوم، لكنها من جنس المثالية المذمومة ، التي تؤدي بهم إلى الانقطاع عن الأعمال في نهاية المطاف .

٢ ـ من فقه الواقعية ـ اعتبار تفاوت قدرات الناس وقابلياتهم:

إن من فقه قاعدة الواقعية اعتبار التنوع والتفاوت الكبير بين الناس

---

(١) الحديث في البخاري.

حال التربية، وذلك التفاوت المعتبر في الجوانب كلها، عزمهم، وجدهم، وقوتهم، وطموحهم، فأنت تجد اختلافاً في تركيبة وطبع الإخوة الأشقاء في البيت الواحد، فما بالك بأشخاص مختلفين في تركيبتهم ونشأتهم وبيئتهم؟! لذا لايصح مطالبة الناس بالوصول إلى نفس المرتبة من الإيمان أو السلوك أو العطاء، ونقصد بالمطالبة: المطالبة بالنتائج، أما التوجيه والنصح بعمل الخير فهو عام ولا شك، يقول الشاطبي رحمه الله: «فصاحب هذا التحقيق الخاص هو الذي رزق نوراً يعرف به النفوس ومراميها وتفاوت إدراكها وقوة تحملها للتكاليف، وصبرها على تحمل أعبائها أو ضعفها، ويعرف التفاتها إلى الحظوظ العاجلة أو عدم التفاتها، فهو يحمل على كل نفس من أحكام النصوص ما يليق بها، بناء على أن ذلك هو المقصود الشرعي في تلقي التكاليف»[1].

ومن أمثلة مراعاة النبي ﷺ لذلك أنه حين يسأله بعض الصحابة عن أمور من العزائم يجيب كل أحد بجواب مختلف، فقد طلب من بعض الصحابة ألَّا يسألوا أحداً شيئاً، لكن هؤلاء نفر قليل جداً من صحابته، فليس كل أحد يطيق ذلك، وقد خصهم النبي بذلك لمعرفته بقدرهم على القيام بهذا الأمر، لذا لم ينكر على أبي بكر لما تصدق بكل ماله يوم العسرة، وأنكر ذلك على غيره، بل وردّها عليه وأعرض عنه! وأنكر على معاذ حين أطال الصلاة بنفر من الصحابة وأمره بالتخفيف، بينما كان النبي يطيل بمن

---

(١) الشاطبي، الموافقات، ٤ / ٩٨.

معه، فالمسجدان متشابهان في الظرفين: الزماني والمكاني، لكن يختلفان في نوعية المصلين وتحملهم، لذا أمره النبي بالتخفيف.

مراعاة الفروق الفردية من الواقعية:

إن من الواقعية مراعاة الفروق الفردية بين المتربين، ويشمل هذا قدرتهم على الفهم أو قدرتهم على القيام بالتكاليف، وقد بين ذلك ابن مسعود رضي الله عنه: ما أنت محدث قوماً حديثاً لاتبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة[1].

وبوّب البخاري لذلك باباً، هو: «باب من خصّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألَّا يفهموا»[2]. لذا كان النبي ﷺ يقبل من بعض الصحابة مالا يقبل من غيرهم، مثل قبوله الصدقة بجميع المال من أبي بكر رضي الله عنه .

مراعاة ذلك في المجتمع:

إذا كنا نطلب مراعاة الفروق الفردية في تربية الأفراد، فمن باب الأولى المطالبة بمراعاة ذلك لدى التربية أو الوعظ العام للناس ، ومن ذلك أن قابلية أي مجتمع قد لا تتفق مع مجتمع آخر، وأن توقع استجابة الناس كلهم لنمط تربوي واحد لا يمكن تصوره إلا في ذهن لم يفقه التربية وهذا الأمر مما ينبغي أن يلاحظه خطباء الجمعة والوعاظ في المساجد وغيرها.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) انظر: د. علي الزهراني، الأساليب التربوية المستقاة من خلال تراجم البخاري، بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى، جمادى الثانية، ١٤٢٤ هـ، ص: ٤٣٠.

مراعاة أصحاب القدرات الخاصة:

هذا الموضوع مما يدخل في المستثنيات من كل قاعدة، فلا نغفل أنه في كل مكان وزمان يخرج نوادر من الناس، يمتازون بقدرات واستعدادات خاصة، وهذه القدرات الخاصة تفرض على المربي استثناء من القاعدة، وكما في أنظمة التعليم يوجد اهتمام بأمثال هؤلاء النوادر، فالحال هنا مشابه، ولا ينبغي تضييع طاقة هؤلاء بتكليفهم بالسير بسير أوسط الناس، بل لا بد من إعطائهم بالقدر الذي يتوافق مع قدراتهم.

٣ ـ الواقعية وفقه التوازن:

إن المراد بالتوازن هو: عدم طغيان جانب على آخر. أو: إعطاء كل أمر حقه.

ويمكن أن يقال إنه: فهم المعادلة بين الأحكام الشرعية والواقع، وفق معايير خاصة [١].

وفقه التوازن خلاصته ما جاء في وصية النبي ﷺ: (صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقاً)[٢]، وذلك في قصة سلمان الفارسي مع أبي

---

(١) انظر: د. معاذ أبوالفتح البيانوي، فقه الموازنات الدعوية، دار اقرأ، الكويت، ط ٣، ٢٠٠٨م، ص: ٣٧.

(٢) رواه البخاري من حديث ابن عمر.

الدرداء رضي الله عنهما .

فالتوازن منهج ضروري، لا بد من مراعاته لتستمر الحياة السوية للإنسان، وهو سر استمرار الحياة.

ويمكن اعتبار إغفال التوازن من المنعطفات الخطيرة في حياة المتربي، لأن عقول وأهواء الناشئة لاتميل إليه، وهنا دور المربي في التوجيه والنصح.

ولأهميته يستحق مبدأ التوازن في التربية أن يفرد بقاعدة مستقلة، لكثرة المعاني والمفاهيم والتطبيقات التي يحتويها، لكن تم إدراجه في قاعدة الواقعية لأن كثيراً من تلك المفاهيم تم تناولها في هذه القاعدة.

العلاقة بين قاعدة الواقعية وقاعدة التوازن:

إن العلاقة بين قاعدة الواقعية وقاعدة التوازن تكمن في كون التوازن من لوازم وضروريات تحقيق قاعدة الواقعية، فإن من تطبيق الواقعية مراعاة متطلبات الناس في معاشهم، فلا يطلب منهم ما يؤثر على معاشهم أو أبدانهم أو حقوق أهلهم في يومهم أو مستقبلهم، لأن هذا يخل بحياتهم كلها.

وكذلك فإن التوازن من ضروريات الاستدامة على العمل، وهو مقصد شرعي . وقد سبق وبينا أن الغرض من القواعد الخادمة للتربية أن مراعاتها تحقق قواعد التربية والتزكية الأساسية، لذا فإن قاعدة التوازن

خادمة ومكملة لقاعدة الواقعية، التي هي بدورها خادمة للقواعد الأربعة الأساسية.

مسايسة النفس لتحقيق التوازن:

إن مسايسة النفس مطلوبة لتحقيق التوازن، ومن جميل ذلك ماحكاه ابن الجوزي في مسايسته لنفسه، قال: «فإني لأكره لنفسي من جهة ضعف قلبي ورقته أن أكثر زيارة القبور، وأن أحضر المحتضرين، لأن ذلك يؤثر في فكري، ويخرجني من حيز المتشاغلين بالعلم إلى مقام الفكر في الموت، ولا انتفع بنفسي مدة!»[1].

فبين ابن الجوزي أنه يأخذ من التذكير قدراً لا يؤثر في انشغاله بالعلم، وهذا من فقه التوازن السابق ذكره.

أمثلة على توجيه النبي ﷺ أصحابه إلى التوازن:

كان رسول الله ﷺ يعالج أي نزعة عند أصحابه فيها ميل عن التوازن، ومن أمثلة ذلك:

١ ـ عندما أراد سعد التصدق بماله وهو مريض أرشده النبي ﷺ إلى الثلث وأخبره بأن الثلث كثير[2].

٢ـ وفي قصة كعب بن مالك حين أتته البشارة بتوبة الله عليه وأراد

---

(١) ابن الجوزي، صيد الخاطر، ١٧٠.

(٢) متفق عليه، انظر فتح الباري، ٥/ ٣٦٣.

الصدقة بماله كله، رده النبي إلى الصدقة التي لا تضر بصاحبها[1]. فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يحث أصحابه على المبادرة إلى النفقة، لكن يضبطها بضابط التوازن ، وهو الخشية من الافتقار أو أن الورثة يسألون الناس بعد موت عائلهم .

٣ ـ في الحديث المشهور عندما أراد ثلاثة من الصحابة أن يقوموا بالعبادات بكيفية فيها مخالفة لمنهج التوازن، ردهم النبي ﷺ الى التوازن الذي يتوافق مع الشرع.

التوازن مهم للاستمرار :

إن من مهمات المربي أن يُفهّم من يربيهم أمر التوازن، ويسددهم عند الخطأ في القيام به ، وإننا لو تأملنا في حال الشباب والناشئة خاصة ؛ فإننا سنجد لديهم حماسة في اتجاه أحد التكاليف وقد يصحب ذلك إهمال لما سواه، مما يؤدي إلى ضياع كثير من المصالح التي راعاها الشرع، ومن ذلك أن الشاب قد ينشغل بأمور التربية والتزكية ويُفرّط في أمر دراسته أو تعليمه، وهذه سيؤثر على مستقبله التعليمي ومن ثَمَّ المهني، وقد يندم على ذلك مستقبلاً ويؤثر ذلك على تربيته لنفسه . ومن الأمثلة أن المرء قد يصحو من غفلة طويلة، فيتزهّد ويتعبّد، وتؤدي المبالغة في ذلك إلى التفريط في عمله أو وظيفته، وبذلك يُضيّع حق نفسه أو من يعول .

---

(١) القصة في البخاري.

وكل ما سبق ليس من الإسلام في شيء، بل المؤمن القوي أحب إلى الله، والله يحب إذا عمل أحدنا عملاً أن يتقنه. وهنا يظهر أهمية وجود المربي الحكيم، الذي يفهم معنى التوازن، فيرشد ويوجه الناس في مثل هذه المنعطفات الخطيرة، لأن البعض بعد تفريطه في أمور دراسته أو وظيفته أو إهماله لشؤون أسرته ينتبه من تلك السقطة الناتجة عن سوء فهم للتديّن والإسلام، فيلحقه ندم على ذلك وقد يؤدي به إلى سلوك منعطف آخر يريد به تعويض مافاته!

هل هناك اليوم غلو في العبادة؟!

قد يتبادر للذهن هذا السؤال: هل حال الناس اليوم أقرب للغلو والتشدد أم التفريط والتساهل؟ وواقع الحال يشهد بالتساهل، لكن قد يكون من أسباب هذا التساهل والتفريط أن المرء شدد على نفسه في فترة ما، فأعقب ذلك نفوره من الطاعة، فإن الإثقال على النفس من مداخل الشيطان التي تؤدي بصاحبها لترك العمل، حيث إن أكثر مداخل الشيطان هي من أبواب الخير،ومن واجب المربي أن ينبه المتربي إلى هذا الأمر(١).

٤ ـ المثالية ومضادتها للواقعية:

الموضوع الرابع في فقه هذه القاعدة يتناول التفريق بينها وبين أهم عائق يحول بيننا وبين الواقعية؛ ألا وهو المثالية، ولا تكاد الواقعية تتضح بشيء أكثر من بيان مفهوم المثالية، فإنها بضدها تتضح الأشياء. فالواقعية قرينة

---

(١) ينظر في ذلك كتاب إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم رحمه الله.

للبشرية، ومتناقضة مع المثاليـة التي تُبنى على النظريات والتخيلات لا على الواقع .

إن المثالية صفـة ألصق مايكون بالملائكة الكرام، لذا متى طلب المربي من البشر شيء من المثالية فكأنه يطالبهم بالتحلي بمواصفات الملائكة الكرام، وخطورة ذلك أنه مدعاة للإحباط، ومن ثَمَّ ترك العمل.

مظاهر المثالية:

إن من مظاهـر المثاليـة نسيان المربي بشرية من يربيهم، فهم بشر بكل ما يحملونه من المشاعر والهموم اليومية، وكذلك ألَّا يراعي تعقيدات الزمـان أو المكان الذي يعيش بـه هو ومن معـه، فيطلـب تحقيـق نـماذج الشخصـية المثالية وأنماطاً حياتية مثالية، يرسمها في خيالـه مما يقرؤه في كتب التزكية أو سير السلف، وقد يطالب المتربين بمقامات عالية لا يطيقها من في مسـتواهم الحالي، وتكون تلك هي مقاييس التربية عنده، مما قـد يـؤدي إلى ضـجر مـن حوله وسأمهم .

من مسوغات المثالية :

ومن الخطأ أن يسوغ المربي طلبه المثالية بأنه يهدف لرفع الهمم، والحث على بلوغ معالي الأمور، وهذه مغالطة واضحة، فـإن بلـوغ معـالي الأمـور لا يكون بمخالفة القواعـد الشرعيـة والسنـن الكونيـة، ولاسبيل لـذلك في موضوع التربية إلا بالتدرج والواقعية، وسبب هذا الفهم القاصر للتربية هـو عدم فهم قواعد الفكـر التربوي الإسلامي، وهذا المسوغ المُدعى لا يصمـد

أمام الأصول الشرعية المتعلقة بمراعاة قاعدة الواقعية والمصالح الشـــرعية المتحققة منها.

مثارات المثالية في النفوس:

إن أهم مثارات أوبواعث المثالية مايلي:

١ ـ غياب المفهوم الزماني والمكاني عند تنزيل النصوص الشرعية أو مواقف السيرة:

تشتمل النصوص الشرعية ومواقف السيرة عـلى الكثـير مـن المفـاهيم التربوية، وغياب المفهوم الزماني والمكاني أو السياق الـذي ورد بـه الـنص أو القصة يؤدي إلى عدم القدرة على تنزيل تلـك المفـاهيم عـلى الواقـع الـذي نعيشه بالشكل المناسب.

ومـن صـور ذلـك: أنه يقـرأ عن الجدية في حياة النبي ﷺ وأصحابه، ولا يجمع ذلك مع بقية النصوص التي تناولت تفاوت حالات رسول الله ﷺ بتفاوت المواقف والظروف والأشخاص، ويشمل ذلك ما ينقل عن حالة أصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

ومن الأمثلـة على ذلك أيضاً: أن مفهوم الزهـــد أو بسـاطة العـيش مفهومان نسبيان يختلفان من زمـن لآخـر، لذا يختلـف تنـزيلهما مـن زمـان لآخر ومن مكان لآخر، حيث إن هنـاك فرقـاً بـين أسـاليب العـيش السـابقة البسيطة وبين الحياة المعاصرة المعقدة، فإن أفخم حياة قبل قرن مـن الزمـان قـد تعد اليوم من الحياة البسيطة العادية التي يمتلكها أكثر الناس، وذلك بسـبب

تغير ظروف الحياة ومقاييس الرفاهية في العيش، وهكذا.

٢ ـ القراءة الانتقائية أو المجتزأة في سير السلف:

فأمر التربية والاقتداء لا يكفي فيه أن يقرأ المرء موقفاً أو جزءاً من سيرة رجل صالح، بل ينبغي على المقتدي والمربي خاصة أن يحيط بجوانب هذه الشخصية ليقتدي بها بمعقولية وتوسط، لأن من طبيعة النفس أنها تتعلق بالجوانب الإيجابية، وتُغفل الجوانب السلبية، وعادة يعمد كُتاب التراجم إلى إظهار الجانب الإيجابي في المترجم له، لذا لا يرى في الغالب في الشخصيات التي قرأ تراجمها إلا الجانب الإيجابي أو الجانب العبادي والروحاني! ومن صور هذه الانتقائية والاجتزاء، عدم التفريق بين حال السلف في المسجد وحالهم خارج المسجد! والفارق كبير في حقيقة الأمر، أو يقرأ في الجانب العبادي أو العلمي ويظن أن حياتهم كانت كلها هكذا، ويغفل أن هؤلاء كانت لديهم انشغالاتهم ومسؤولياتهم الاجتماعية، فكان منهم التاجر والمزارع والمجاهد والقاضي، وكلهم لديه مسؤولية تجاه أهله ومن يعول!

ومن الأمثلة التي تصلح للاستشهاد بها هنا؛ كتابات ابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر ، فمن يقرأ لابن الجوزي في كتابه هذا سيلاحظ مقالاته في الزهد في الدنيا وتركها وذم أهلها، وقد يختمها ابن الجوزي بتمنيه الخروج من الدنيا وما فيها ! ثم يقرأ خاطرة أخرى لابن الجوزي ويجد روحاً أخرى؛

تحثه على التزود من الدنيا بما يحتاجه المرء في حياته اليومية ولغده! فيحدث هذا لدى القارئ دهشة وحيرة، لايدري أي الحالين أسلم وأكمل، ثم عندما يقرأ في سيرة ابن الجوزي ونمط معيشته اليومية، يجده أقرب للاعتدال والتوسط، وإلى ترويح النفس ومراعاتها منه إلى الجفاف والشدة، فلم يُرد ابن الجوزي من مقالاته جفاف الطبع ونبذ الدنيا، لكن لعلها طريقة الوعاظ وأسلوبهم، أو تأثره لصورة ترف رآها، أو مشاهدته لتعلق بعض أهل الدين بالدنيا، مما جعله يذم الدنيا وأهلها.

وهناك مثال أعم لموضوع الاجتزاء، موضوعه النظرة المجتزأة للمجتمع كله أو حتى لمدن كاملة، مثل أن يظن المربي والواعظ أن كل افراد المجتمع المسلم في البصرة أو الكوفة كانوا من أشباه محمد بن المنكدر أو بشر بن الحارث الحافي، وينسى أنهم أعلام وأفراد محدودون في ذلك المجتمع، وإلا لكان الأعلام المترجم لهم من العباد تصل أعدادهم الى الملايين! وإن من يقرأ بتوازن في تاريخ المدن الكبرى مثل البصرة أو الكوفة أو دمشق يجد أن هناك مظاهر للترف واللهو التي لم تخل منها مدينة عبر التاريخ! إن التغافل عن الصورة التاريخية المستمرة للمدن الإسلامية أدخلت البعض في تصورات مثالية للمجتمع المسلم لايمكن تحقيقها على الواقع .

٣ ـ مثار أو باعث يعود الى رغبة المربي في الوصول بمن يربيهم إلى تحقيق شخصية متكاملة ومتميزة، تكون أقرب مايمكن من الكمال البشري، مما يدفع المربي إلى الحث على بلوغ هذه المثالية في خطابه التربوي

ولعله لايشعر، وهذه النزعة التي دافعها الحرص على تربية جيل رباني غفل فيها المربي عن مآلات هذا الخطاب على النفس البشرية.

وهذا الحث من المربي هو من أهم الأسباب التي تدفع بالمتربين لتقلد نزعة المثالية في تربيتهم لأنفسهم،وهذا يجعلهم عرضة للإصابة بالإحباط بسبب تخلفهم عن المقامات العالية المثالية التي رسمها لهم ذلك المربي الحالم . ومما ينبغي أن ننتبه له أن الخطاب التربوي قد يتضمن بمنطوقه أو مفهومه مايجعل المثالية شرطاً للخيرية أو لتحمل هم الدين، بينما لو تأملنا في الشرع فلن نجد أصلاً شرعياً ظاهراً لذلك ، فإن خدمة الدين ونصرته يقوم بها كل مسلم أيا كانت مرتبته التربوية ، كل بقدرته وطاقته.

٤ ـ عدم الاستفادة من علمي النفس والاجتماع: إن علم النفس الإنساني الذي موضوعه نفس الإنسان وذاته، لهو من العلوم التي ينبغي على المربي الاطلاع عليها، خاصة في شقه علم النفس التربوي، ومثله علم الاجتماع، فإنه يكشف للمرء جوانب هامة في كل مجتمع، ولو وعاها فسيكون أكثر واقعية وعقلانية فيما يطالب به مجتمعه، ويضاف إليهما علم النفس الاجتماعي الذي يعنى بدراسة السلوك الاجتماعي للفرد كاستجابة لمثيرات اجتماعية، أي أثر المجتمع على سلوك الفرد الاجتماعي.

* * *

رابعاً ـ تحقيق القاعدة وتنزيلها

١ ـ كيفية تحديد الواقعية في التربية :

إن من أهم الأسئلة التي ينبغي الإجابة عنها ؛سؤال كيفية تحديد الواقعية في التربية ؟ لأن هذا التحديد هو الذي يخلق توازناً بين مرب أو واعظ تلبسته المثالية، فهو يرى أن هذه الواقعية المُدّعاة هي ثمرة ضعف الهمة، وبين مرب أو واعظ آخر على النقيض من الأول؛ يرى أن هذه الواقعية ليست إلا أحلاماً ومثاليات لايمكن تحقيقها!

تفاوت الناس في كل بيئة تربوية:

يتفاوت الناس من بيئة لأخرى، وكذلك في كل بيئة تتفاوت قدرات الأشخاص من شخص لآخر، ففي كل مجتمع هناك فئات من الناس: فئة الأعلى همة وطاقة، وفئة الأقل طاقة وهمة، وهاتان الفئتان تشكلان معاً نسبة أقل من الفئة الثالثة، وهي فئة المتوسطين في همتهم وعزمهم، وهم الأكثر عادة .

ولنتأمل كيف أمر النبي ﷺ معاذاً أن يصلي من قصار السور في مسجد في المدينة المنورة في زمن النبوة والوحي؟! بينما كان النبي يصلي في مسجده بسور طوال، تتناسب مع من يصلي خلفه من كبار الصحابة ، فرغم توافق الزمان والمكان، إلا أن اختلاف الأشخاص جعل مراعاة تفاوت قدراتهم واجبة.

إن التربية العامة للناس من خلال التوجيهات العامة والوعظ العام

ينبغي أن يكون بحسب قدرات أواسطهم،وليس باعتبار أعلاهم قدرة ولا أقلهم، أما النصح والتوجيه الخاص للشخص المحدد فيكون بحسب حاجته وقدرته .

طرق إدراك الواقعية:

إن من أهم المواضيع التي ينبغي مدارستها، كيفية إدراك الواقعية في التربية؟ ولذلك طرق، من أهمها:

الطريق الأول ـ التجربة والممارسة:

إن فقه الواقعية يُدرك بالدرجة الأولى عن طريق التجربة والممارسة، ولأجل ذلك كانت أهمية الاستماع لخبرات المربين المتمرسين؛ فغاية فقه الواقعية معرفة التربية الملائمة في كل زمان ومكان، ومن المشاهد أن كل من لا يأخذ التربية عن مربين مجربين ينتهي به الحال إلى التخبط في تجارب مريرة وأفكار تربوية خاطئة، والمؤسف أكثر أنَّ مَنْ تحمَّل تبعاتِها مَنْ يربيهم!

وقد نصح موسى عليه السلام نبينا محمد ﷺ مستنداً إلى تجاربه مع الناس، ففي حديث الإسراء قال موسى لنبينا محمد عليهما الصلاة والسلام حين فرضت الصلاة: (إني جربت الناس من قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك)[1]. فاستند موسى في نصحه للنبي، عليهما الصلاة والسلام، على تجاربه الطويلة في تربية بني إسرائيل، مما جعله يطالب النبي في كل مرة بالرجوع وطلب التخفيف

---

(١) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج.

في عدد الصلوات .

ويرى الإمام الشاطبي أن من شرط العالم في الفن ثلاثة أمور، وذكر أولها عمله بما علم، وقال في الثانية: «أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم، لأخذه عنهم وملازمته لهم، فهو الجدير بأن يتصف بما اتصفوا به من ذلك». ثم قال: «وحسبك من صحة هذه القاعدة أنك لا تجد عالماً اشتهر في الناس الأخذ عنه إلا وله قدوة أشهر في قرنه بمثل ذلك، وقلما وجدت فرقة زائغة ولا أحداً مخالفاً للسنة إلا وهو مفارق لهذا الوصف».

ثم قال: «والثالثة: الاقتداء بمن أخذ عنه، والتأدب بأدبه، كما علمت من اقتداء الصحابة بالنبي، و اقتداء التابعين بالصحابة، وهكذا في كل قرن»[1].

الطريق الثاني ـ النظر في المآلات:

إن النظر في المآلات مهم ومؤثر، لأنه يُعين على تصوّر النتيجة، وهو عنصر مؤثر في اختيار أسلوب ووسائل التربية المناسبة للمتربين.

والمراد باعتبار المآل لدى الفقهاء: الحكم على مقدمات التصرف بالنظر إلى نتائجه[2].

---

(١) الشاطبي، الموافقات، ١/ ٦٦ـ٦٧، نقلاً عن د. أحمد زايد، تأصيل فقه الدعوة عند الإمام الشاطبي، ١٦٨.

(٢) عبد الرحمن السنوسي، اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات، دار ابن الجوزي، السعودية، ط الاولى، ١٤٢٤ هـ، ص: ١٩.

والمقصود من النظر في مآل العملية التربوية: معرفة ماذا ستؤول إليه أو ينتج عنها، نظراً إلى حال المتربي وظروفه وواقعه . أي دراسة أثر التصرف على الفرد أوالمجتمع .

وللشاطبي رحمه الله كلام نفيس في وصف حال العالم الرباني، قال: «ومن خاصته أمران: أحدهما أنه يجيب السائل على مايليق به في حالته على الخصوص، وإن كان له في المسألة حكم خاص..، والثاني: أنه ناظر في المآلات قبل الجواب على السؤالات»[1]. وذكر الشاطبي أن من لم ينل مرتبة الرباني يجيب السائل بالكلية لا بالخصوص، وأنه أيضاً لا يبالي بالمآلات! أي أن البعض يمكن أن تعرف بالتجربة ومن معرفة قدرات الشخص أنه لو أقدم على ذلك البرنامج فلن يستمر، وقد يؤدي به إلى الملالة، بينما يتحمل شخص آخر مثل هذا البرنامج بل و أكثر من ذلك .

الطريق الثالث ـ القراءة في العلوم الإنسانية المساعدة:

إن التربية علم وفن قائم بذاته، منه ما هو فطري ومنه ما هو مكتسب، والمكتسب ليس مقصوراً على ما تناولته كتب التربية والتزكية الإسلامية فقط، بل هناك علوم إنسانية تساعد المربي على إتقان دوره التربوي؛ ولا يصح تجاهل هذه العلوم والتخصصات، لأنها روافد هامة في فهم النفس الإنسانية، التي هي موضوع التربية. لذا فإن من المهم أن يطلع

---

(١) الشاطبي، الموافقات، ٤/ ٢٣٢.

المربي على الكتابات التي تناولت الخصائص النفسية والسلوكية لكل مرحلة عمرية، وخصوصاً المرحلة التي يعني بها المدرس أو المربي، لأن الله خلق ابن آدم على فطرة، ولهذه الفطرة قواسم مشتركة يشترك بها الخلق في كل مرحلة عمرية، والاطلاع على البحوث المعاصرة في هذا الجانب تنير الطريق للمربي ليفهم النفسيات التي يربيها.

٢ ـ إعمال المبادئ التي اعتبرها الشارع حال تربية الناس :

إن من أهم الصفات التي كسب بها النبي ﷺ قلوب الناس، تعامله المشفق ورفقه بمن يربيهم، فقد قال الله تعالى عنه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[آل عمران: ١٥٩]. فتجد رحمة النبي ﷺ وحسن تعامله ﷺ مع ذلك الرجل الذي وقع على زوجته في نهار رمضان، ولم يجد ما يكفّر به ولا يقدر على الصيام! ثم لما أعطاه مايكفّر به، تشوّفت نفس الرجل إلى ذلك الطعام، فقال الرجل: ما بين لابتيها أهل بيت أحوج إليه منا؛ فضحك النبي حتى بدت نواجذه، وأعطاه الكفّارة، أي أنه أذنب ورجع من عند النبي بطعام له ولزوجه[١] .

ولما ضعف الصحابي حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه وأفشى عزم النبي غزو قريش تفهم النبي ﷺ سبب ذلك، وهو خوف حاطب على أهله بمكة، فعفا عنه تفهماً لحاله، وتقديراً لسابق فضله[٢].

---

(١) أصل الحديث رواه مسلم.

(٢) القصة في البخاري، كتاب المغازي.

من أهم المبادئ التي اعتبرها الشرع حال التربية:

إن هناك مبادئ وأسساً ذكرها الشارع تلميحاً أو تصريحاً تدور مضامينها على معانٍ متعلقة بالبشر، ولها ارتباط وثيق بأمر التربية، مثل الفتور أو الوقوع في الذنوب، ومن تطبيقات الواقعية اعتبار كل ما اعتبره الشارع في تعامله مع المكلف ومحاسبته له، ومن أمثلة ماينبغي مراعاته:

أ ـ مطالبة المربي بإدراك تركيبة ابن آدم الأصلية وما جُبلت عليه، ومن ذلك فهم طبيعة الصراع الذي يدور بين المرء ونفسه، وأن يتقبل أنها قد تطغى عليه أو تغلبه بين حين وآخر، لأن حب الدنيا مغروس فيه، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾[آل عمران: ١٤]، وانظر كيف فصّلها الشارع لنا؟!

ب ـ مطالبة المربي بإدراك أن الوقوع في الذنوب والأخطاء أمر طبيعي ولا بد منه، بل وقد قال النبي ﷺ: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا وتستغفروا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم غيركم، يذنبون ويستغفرون الله فيغفر لهم)[1].

ج ـ مطالبة المربي بإدراك أن الفتور من جبلة الآدميين، فإن النبي ﷺ ذكر حال العاملين، فقال: (إن لكل عمل شرة ولكل شرة فترة)[2]،فالفتور والضعف أو الملل والسأم حال التربية أمر طبيعي يتوافق والفطرة البشرية.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الإمام أحمد، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط.

وهنا تبرز حكمة المربي في كيفية تعامله مع الأثر الناشئ عن العوامل الثلاث السابقة، وقد تم تناول شيء من ذلك في هذه القاعدة.

٣ـ مراعاة عامل الوقت أو الزمان:

تتكرر شكوى المربين والمعلمين والوعاظ من عدم تحقق الأهداف التربوية، أو من عدم اكتساب المتربين للمعاني التربوية المستهدفة، رغم أنه تم الوعظ في شأنها مراراً وتكراراً، وهذا مردَّه إلى أمور من أهمها:

الأمر الأول ـ الخلط بين التلقين والتفهيم:

إن من أهم الأسباب عدم التفريق بين وظيفة التربية، ووظيفة التبليغ! فالبعض يخلط بينهما، ويعتبر التبليغ هو التربية، بينما التبليغ هو أحد وسائل التربية، وهو من أسهل الوسائل، إن بعض المربين يتعامل مع التربية وكأنها اختبار لجودة المتربي في الحفظ أو امتحان لحسن الاستماع والإنصات من قبل من يربيهم.

قال أبو خليد: أقمت على مالك فقرأت الموطأ في أربعة أيام، فقال مالك: علمٌ جمعَهُ شيخٌ في ستين سنة أخذتموه في أربعة أيام، لا فقهتم أبداً[1]. ومراد مالك رحمه الله أن الآخذ لا يمكن أن يقال عنه أنه قد فقه الموطأ بمجرد أنه سمعه كاملاً.

الأمر الثاني ـ احتياج المتربي إلى الوقت كي يروِّض نفسه ويربيها:

إن الفهم أو تحديد الهدف التربوي لا يمثل إلا المرحلة الأولى من عملية

---

(١) أبونعيم، حلية الأولياء ٦ / ٣٣١.

التربية، والمرحلة الأهم هي أن يستطيع المتربي حمل نفسه على تحقيق الهدف التربوي، وتحقيق الهدف أو المقام التربوي في النفس قد يستغرق وقتاً أطول مما قد يتخيل المربي، وخصوصاً الجوانب القلبية منها، كالخشوع والخوف والرجاء، ومن السطحية أن يظن البعض أن شهود المتربي لجنازة، أو ذهابه للعمرة قد أكسبه العديد من المعاني التربوية دفعة واحدة .

إن غياب الفرق بين التلقين والتفهيم، جعل بعض المربين والوعاظ يكرر المواعظ والنصح، مستعجلاً التغيير لدى من يربيهم، ظناً منه أن التكرار سيعجل بالثمرة التربوية المرجوة.

* * *

خامساً ـ أثر غياب القاعدة

١ ـ زرع بذرة الصورية:

إن المقصود بالصورية هنا: الاهتمام بتحقيق ظاهر الأعمال دون حقائقها، أو التشبه بزي وأفعال الصالحين وسَمْتِهم الظاهر، دون تحقيق صلاح الباطن. والصورية بذرة خبيثة ثمرتها الرياء!

أما مثار الصورية ؛ فهو طلب المربين المثالية من الناس ، فإنهم بذلك يدفعونهم لتكلف الظهور بحال أفضل مما هم عليه في حقيقة الأمر .

وكم شوهد من تصنع وتكلف من المتربين ثم ما لبث أن أتبعه ملل وترك لطريق التربية، لأن ما بني على خطأ لن يستمر . وإن التزام القاعدة الأولى؛

أي التمسك بغائية طلب رضى الله ،هو العاصم من هذا الانحراف التربوي الكبير .

٢ـ مشهد المُنبتَّ:

أتى في الأثر ذكر المسافر المنبتّ في سيره، وهو الذي فقد الحكمة والدراية بالسير، فلا يتوقف مراعاة لراحلته، ففي الأثر المروي عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[1]. وهذا الأثر على رغم ضعفه من حيث الإسناد ،إلا أنه صحيح المعنى . وفيه من المعاني التربوية الشيء العظيم، وهو ضرب المثل بحال الرجل الذي يقطع الصحراء مستعجلاً، غير مراع لتعب دابته وجهدها، فتهلك الدابة قبل وصوله لمقصوده، فلا هو الذي قطع الأرض، ولا هو الذي حافظ على دابته، والنفس البشرية هنا هي الدابة، والمنبتُّ هو الذي لا يراعي أمر الواقعية في تربية نفسه.

٣ ـ استعجال المربي في تحقيق الهدف التربوي:

إن بعض المشاكل التربوية التي نعاني منها ناتجة عن رغبة المربي في تسريع العملية التربوية، غافلاً عن أهمية مراعاة الزمن في تنزيل المفاهيم

---

(١) رواه البزار ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «وفيه يحيى بن المتوكل أبو عقيل وهو كذاب». مجمع الزوائد: ١/ ٦٢، ورواه البيهقي في سننه الكبرى: ٣/ ١٨، ورمز إليه السيوطي بالضعف في الجامع الصغير ١/ ٣٨٤، حديث: ٢٥٠٩. وضعفه الألباني، انظر: ضعيف الجامع، ٢ / ٢٠٢، والسلسلة الضعيفة، ١/ ٢٩.

التربوية وتحقيقها في النفوس.

وأعجب من هـذا أن يعيب المربي أو الواعظ عـلى المتربـين كسـلهم وضعف استيعابهم!

ومن مظاهر هـذا الاسـتعجال مـا يسـمى بـبرامج تربويـة وإيمانيـة «مكثّفة أو مركّزة»؛ تتوالى فيهـا المواعظ والـدروس التربويـة ممـا لا يطيقـه الشيوخ فما بالك بالشباب؟! وتكمن المشكلـة في أن من أعدّ هـذه الـبرامج الإيمانية أو التربوية لم يفرّق بينها وبين الـدورات العلميـة التـي يُقصـد منهـا الثقافة والمعرفة بالدرجة الأولى، وقد لاتحتـاج وقتـاً لـترويض الـنفس عليهـا. وهذا فرق مهم ينبغي مراعاته دائماً، مع عدم التسليم بصحة هـذا المـنهج في التعليم كذلك !

٤ ـ القياس على النوادر من البشر:

إن من آثار غياب هذه القاعدة أن يُجعل أحد النوابغ أو النـوادر مـن البشر قاعدة يقاس عليها، مع أن القاعدة المعتبرة ؛ هـي: عـدم الاعتبـار أو القياس بالنادر. فـلا يصح أن يُجعل رجل أعطـاه الله قـدرة فائقـة أو مميـزة، معياراً في التربية، فيحث المربي الناس على أن يفعلوا مثـل ذاك «النـادر» وأن يسابقوه وينافسوه ! غير منتبه للأثر السلبي الذي قد يترتب عـلى ذلـك في النفوس، للفارق بين القدرات، مما يؤدي لإحباط وتخاذل في النفوس، الذي يجر لترك العمل.

إن شحذ الهمـم يحتاج إلى حكمة ، وقد أشار إلى ذلك بعض السلف

لما رأى حال مسعر بن كدام[1] وشدة زهده واجتهاده في العبادة، فقال: «إن لم يدخل الجنة إلا مثل مسعر، إن أهل الجنة لقليل»[2]. وهذا لئلا يصاب البعض بإحباط أو ترك للعمل لأن مايطيقه مسعر رحمه الله لايطيقه غيره.

٥ ـ طلب المدينة الفاضلة:

من أخطاء المربين؛ طلبهم لتحقيق المدينة الفاضلة[3]، وأصل الخطأ كما تم ذكره سابقاً هو في تصور إمكانية تحقق ذلك ابتداء، ومن تفكر علم إنه على مر التاريخ لم يوجد مثل هذه المدينة الفاضلة!

ولقد ذكرت سابقا أن مطالعة التاريخ والقراءة في تواريخ الحواضر الإسلامية الكبرى كالحجاز ودمشق والبصرة ، والقاهرة ، ومعرفة أحوال الناس فيها وتفاوت مراتبهم في التربية والتدين والعبودية، يجعل الإنسان يخرج من هذه الخيالات، ويكفيه شر جلد الذات ، وهذا الكلام مما يسمع من أهل الوعظ كثيراً، لكنه أخطر حين يُنظّر له أهل التربية !

* * *

---

(١) من المحدثين والعباد الكبار، قال عنه الإمام أحمد: الثقة كشعبة ومسعر. انظر: محمد حسن عقيل، نزهة الفضلاء، ١/ ٥٧٧.

(٢) محمد حسن عقيل، نزهة الفضلاء، ١/ ٥٧٧.

(٣) وهذا شبيه بتلك المدينة الفاضلة التي يحكمها الفلاسفة، وكانت حلماً خيالياً نادى به أفلاطون!

القاعدة التاسعة

التحفيز

أولاً ـ المراد بالقاعدة

التحفيز في اللغة من الحفز، والحفز حثك الشيء من خلفه أو دفعك إياه من خلفه [1].

والتحفيز: مجموعة الدوافع التي تحثنا لعمل شيء ما . أو شعور داخلي لدى الإنسان يولد لديه الرغبة لاتخاذ نشاط أو سلوك يحقق به أهدافاً محددة .

أما التحفيز في الفكر التربوي الإسلامي، فيمكن تعريفه بأنه: الأساليب التي ينتهجها المربي في حث الناس للمسارعة إلى تحقيق العبودية لله بجميع أنواعها[2].

---

(١) انظر مادة (حفز): الفيروز آبادي، القاموس المحيط ؛ الرازي، مختار الصحاح.

(٢) انظر : أحمد رجاء الحافظي، التحفيز التربوي في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص: ٩.

وعكس التحفيز التثبيط، والتثبيط هو التعويق ؛ ثبّطه عن الأمر عوّقه، وثبّطه أبطأه، وتثبّط: توقّف[1]. وقد جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[التوبة: ٤٦].

المراد بهذه القاعدة التربوية توضيح أهمية التحفيز ومكانته في الفكر التربوي الإسلامي، وتوضيح شيء من الأساليب المتنوعة للتحفيز، والممارسات العملية له، مما قد لايظن أن له علاقة بالتحفيز ابتداء، والتحذير من التثبيط الذي قد يقع فيه المربي والواعظ والمعلم وهم لايشعرون، مع بيان أهمية التحفيز في تحقيق المقصد العام للشارع باستمرارية العمل واستدامة التربية والتزكية.

* * *

ثانياً ـ الأصل الشرعي للقاعدة

يأتي التحفيز والتشويق بألفاظ عديدة في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾[الحديد: ٢١]، وقوله تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾[ال عمران: ١٣٣]. وذكر بعده الله عز وجل صفة من يستحق هذه الجنة: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي

---

(١) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة (ثبط).

ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ .. ﴾[آل عمران ١٣٤ ـ ١٣٥] . فبدا بالتشويق إلى الجنة قبل ذكر التكليف .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه: (ألا هل مشمّر للجنة ؟ فإن الجنة لاخطر لها، هي ورب الكعبة؛ نور تتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة خضيرة، وحبرة ونعمة في محلة عالية بهية ! قالوا: نعم يارسول الله، نحن المشمرون لها، قال: قولوا: إن شاء الله)[1]. والحديث مثال على التشويق والتحفيز .

و قال ﷺ محذراً الصحابة من التنفير: (إن منكم منفرين) ومعلوم أن التنفير نقيض التبشير، الذي هو من صور التحفيز والتشجيع على أعمال الخير، التي هي في حقيقتها دلالة الناس للطريق إلى ربهم !

وقال ﷺ في النهي عن التثبيط؛ قال ﷺ: (إذا قال الرجل: هلك الناس، فهو أهلكهم)[2].

وتروى الكاف بالضم وبالفتح، وبالفتح يكون المعنى:أنه هو حكم عليهم بالهلاك، وهذا فيه تثبيط وتخذيل لهم، بتيئيسهم من رحمة الله وفضله .

---

(١) رواه ابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، وضعّفه الشيخ الألباني .

(٢) رواه مسلم .

أما بضم الكاف، فالمعنى حينها: أنه أي القائل، أشدهم هلاكاً. وهذا معاملة له بالمثل .

وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ مرّ على رهط من أصحابه وهم يضحكون، فقال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً؟! فأتاه جبريل فقال: إن الله يقول لك: لم تقنط عبادي؟! قال: فرجع إليهم فقال: سددوا وأبشروا!)[1].

وفي حديث آخر يصف لنا أثر وقع تلك الموعظة على الصحابة، قال أنس: فغطى أصحاب رسول الله وجوههم، ولهم خنين[2]. قال النووي: والخنين هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت بالأنف،وفي رواية: (فما أتى على أصحاب رسول الله يوم أشد منه) .

وفي حديث الفسيلة العظيم، يشجع النبي ﷺ على العمل والعطاء حتى في حال قيام الساعة، قال ﷺ: (إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألَّا يقوم حتى يغرسها فليفعل)[3] . وهذا تحفيز مطلق على العمل مهما تكن الظروف .

* * *

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط . انظر: زوائد ابن حبان للهيثمي، تحقيق الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٣، ٢ / ١١١٩.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٢٥١٢). وصحح إسناده شعيب الأرنؤوط.

ثالثاً ـ من فقه القاعدة

١ ـ التحفيز في الشرع يأتي بالجزاء الدنيوي العاجل والأخروي المؤجل:

إن غاية التحفيز في الفكر التربوي الإسلامي؛ هو الحث على الأعمال الصالحة، وخلق الدافعية للاستمرار في طريق التربية، سواء من قبل المربين، أو من ذات الإنسان .

ومما ينبغي معرفته عن التحفيز التربوي في الفكر الإسلامي؛ اشتماله على نوعي التحفيز، الدنيوي والأخروي، وهذا من تماماً مراعاته لتكوين النفس البشرية . قال عز وجل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]. فالحياة الطيبة في الدنيا هي عاجل أجر المؤمن، وكذلك أتى عاجل البشرى في الذكر الحسن له في الدنيا، كما جاء في الحديث .قيل يا رسول الله: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: (تلك عاجل بشرى المؤمن)[1]. حتى في إعطاء الغنائم للمجاهد في سبيل الله، فهو نوع من التحفيز الدنيوي بالإضافة الى ماوعد به من الأجر الأخروي العظيم والكرامة والمنزلة العظيمة للشهداء .

الترغيب والترهيب:

من أعظم وسائل التحفيز في التربية الإسلامية، أسلوب الترغيب والترهيب، فالشرع يرغب الناس في كل خير، بذكر حب الله له، وأثره على

---

(١) رواه مسلم.

نفوسهم، والجزاء العظيم لمن قام بهذا العمل، وفي المقابل، في الأعمال المذمومة؛ يرهب منها، بذكر بغض الله لها، وأثرها الخبيث على النفس والمجتمع، ثم بذكر العذاب المترتب عليها . وفي هذا المنهج ألف الإمام المنذري، كتابه: الترغيب والترهيب، وهو كتاب يجمع كل مارغَّب فيه الشارع وحثَّ عليه، وكل مارهَّب منه وحذَّر، وهو كتاب عظيم في هذا الباب[1].

٢ـ فقه التحفيز حسب المناسبة والمصلحة:

ينبغي أن يكون تعامل المربي تابعاً لمصلحة التربية، ومن مصالح التربية المحافظة على التحفيز لدى النفس البشرية ، وفي كل موقف وظرف توجد عوامل محفزة ومشجعة للنفس البشرية، ينبغي أن يدركها المربي ويحث عليها، دون تردد أو مزيد احتياط، ومثال ذلك حين مشى أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنه يوم أحد متبختراً، أشار النبي ﷺ إلى جواز تلك المشية حال الحرب، وقال ﷺ: (إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع)[2]، وأكد ﷺ هذا المعنى في الحديث الآخر: (فأما الخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل بنفسه عند القتال)[3]. ولو تأملنا في الموقف فسنجد أن النبي ﷺ لم يخش من

---

(١) للشيخ الألباني رحمه الله جهد عظيم في إخراج صحيح الأحاديث الواردة في كتاب المنذري، وأسماه: صحيح الترغيب والترهيب .

(٢) رواه الطبراني في الكبير، ٦٥٠٨، وقال الهيثمي: فيه من لم أعرفه. انظر: الهيثمي مجمع الزوائد، ٦/ ١٥٧.

(٣) رواه أحمد والنسائي والترمذي.

أن تصبح هذه المشية بذرة للكبر في نفس هذا الصحابي، ولم يبالغ النبي ﷺ في الاحتياط من ذلك، وإلا لأمره بالكف عن تلك المشية، ولكنه ﷺ تعامل مع الموقف بحكمة ووضعه في مكانه الصحيح، وهذا يرشدنا إلى ترك المبالغة في سد الذرائع خشية أمراض القلب.

ويستفاد مما سبق، التنبه إلى أهمية الفقه في إعمال القواعد التربوية، وحسن تنزيلها في مواضعها، والحذر من إحلال أصل أو مبدء تربوي في موضع أصل تربوي آخر، وهذا مثل إعمال مبدأ التربية الوقائية في موضع تربوي يقتضي إعمال مبدأ التحفيز !

والمثال الآخر مارواه لنا ابن عمر رضي الله عنهما في خبره هو ونفر من الصحابة حين فروا من إحدى المعارك واستحوا أن يقابلوا الناس، فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ **في سرية، فلما لقينا العدو انهزمنا في أول عادية،فقدمنا المدينة في نفر ليلاً، فاختفينا، ثم قلنا:لو خرجنا إلى رسول الله ﷺ واعتذرنا إليه، فخرجنا، فلما لقيناه: قلنا: نحن الفرارون يارسول الله!** قال ﷺ: (بل أنتم العكارون وأنا فئتكم)[1]. والعكارون: أي العائدون إلى القتال والعائدون إليه، أي الكرارون[2]. وهنا درس عظيم من المربي الأول ﷺ، فرغم فرارهم من مواجهة العدو، إلا أنه لما رآهم، سماهم: «الكرارون»، شحذاً لهمتهم، ومراعاة لمعنوياتهم، ورفقاً

---

(١) رواه أحمد والترمذي وأبوداود، وصحح إسناده أحمد شاكر رحمه الله .

(٢) انظر: العظيم آبادي ، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ٧ / ٣٠٦ .

بضعفهم البشري، وجعلهم إنما انحازوا إليه ﷺ، وفي كل ماسبق تحفيز وأي تحفيز، كما قال تعالى ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾[الأنفال: ١٦] فكان النبي ﷺ هو فئتهم التي انحازوا إليها، والقصة مليئة بالعبر التربوية(١).

٣ـ من التحفيز المحافظة على استقرار وثبات القواعد الشرعية في النفوس:

هناك منحيان للتحفيز؛ الأول: التحفيز بمعني الحث أو التشويق للفعل، والمنحى الثاني: وهو أدق وأغمض، ويتعلق برسوخ القواعد واستقرارها.

فإن من أخطاء التربية والوعظ خلخلة وهز رسوخ وثبوت القواعد الشرعية بمعارضتها بالنصوص الموهمة التعارض،أو ضربها بالمرويات عن السلف، ومعلوم أن الشريعة لايناقض بعضها بعضاً، ولا يتصور أن يناقض نص قاعدة شرعية بنيت على النصوص المتواترة والقطعية أو ماتكاد تبلغ ذلك .

وبالنظر فإن أسباب هذا التعارض المتوهم، يمكن حصرها في الأسباب التالية:

١ـ إن التعارض بسبب خطأ في الفهم، وهذا كثير، إما بسبب تفسير

---

(١) تروى هذه القصة كذلك في شأن خالد بن الوليد ومن تبقى من الجيش بعد معركة مؤتة، استقبلهم الناس في المدينة بالإنكار عليهم، وقال لهم ﷺ: بل هؤلاء الكرارون، وهذا الحديث مرسل، وليس في مصادر السنة المعتمدة، وقد أبطله الشيخ الألباني.

الآية على غير وجهها الذي نزلت عليه أو عدم فهم المراد بها ابتداء، ومثله يقال في الأحاديث النبوية .

٢ـ إن الحديث المعترض به على الأصل أو القاعدة الشرعية غير ثابت لدى المحققين من أهل العلم، وهذا إما لجهة عدم ثبوت إسناده،أو لملاحظة على متنه، مثل الشذوذ أو النكارة[١].

وقد يتنبه الناس إلى موضوع عدم ثبوت الإسناد، أما عدم صحة المتن فقد يغفل عنها من لم يفقه الشرع[٢].

٣ ـ إن الاعتراض على القاعدة الشرعية دليله رأي أو اجتهاد منسوب لأحد السلف، وسبق معنا أن السلف والتراث المنقول عنهم ليس حجة في ذاته، بل بالدليل المعضد لكلامهم .

من القواعد الشرعية الثابتة في معاملة الله لخلقه:

قبل ضرب الأمثلة لماسبق من أسباب، أورد بعضاً من القواعد الشرعية الثابتة في معاملة الله لخلقه، ومنها: أن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً ولايبالي، وأنه سبحانه يفرح بتوبة العبد أياً كان ماعمله، وأنه تعالى لايكلف عباده

---

(١) ينظر في هذا الموضوع : للإمام ابن القيم؛ المنار المنيف في الصحيح والضعيف، تحقيق عبدالفتاح أبوغدة، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية؛ وكتاب: د.مسفر غرم الله الدميني، مقاييس ابن الجوزي في نقد متون السنة ، نشر دار المدني ، وللدميني أيضا مقاييس نقد متون السنة .

(٢) انظر، الدميني، مقاييس ابن الجوزي في نقد متون السنة، ٨٣ .

مالايقدرون عليه ومالاتطيقه نفوسهم، وأنه يتجاوز لهم عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، وأنه تعالى كريم؛ يثيب على الحسنة عشرة أمثالها . وأمثال ذلك من قواعد التعامل بين الله وبين خلقه عز وجل، التي تكرم الله بها على عباده .

من الأمثلة على معارضة هذه القواعد:

معارضة القاعدة الشرعية بشيء من السنة ؛ ومن ذلك الأثر الذي يورده بعض المربين والوعاظ في مجرى التخويف من ذنوب الخلوات، وهو عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: (لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاً، فيجعلها الله هباء منثوراً) قال ثوبان: يارسول الله صفهم لنا، جلّهم لنا، ألا نكون منهم ونحن لانعلم ! قال: (أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها) . والحديث رواه ابن ماجه في سننه . ولنا حديث عنه من جهة إسناده ومن جهة متنه، فمن جهة إسناده فقد صححه بعض أهل العلم[1]، أما من جهة متنه فقد رده بعض أهل التحقيق لنكارته، أي مخالفة مافي متنه للأحاديث الثابتة، فالحديث فيه معنى مخالف لقواعد الشريعة، فإن القاعدة الشرعية القطعية القرآنية فيها؛ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود: ١١٤]. ولايوجد في الشرع مايدل على أن السيئات تذهب

---

(١) الحديث رواه ابن ماجة (٤٢٤٥) . وقد صححه البوصيري في مصباح الزجاجة، وصححه الألباني في الصحيحة .

بالحسنات فهذا أصل لادليل عليه، ومخالف للقطعيات ! خاصة وإن الحديث ذكر عنهم أنهم من أهل قيام الليل، وهذا لايتصور من منافق . والحقيقة الشرعية في ذهاب الحسنات أنها لاتذهب إلا بالكفر، قال تعالى: (وقدمنا إلى ماعملوا من عمل ....) ولابن تيمية كلام مهم في مسألة الحسنات والسيئات، قال: «وأما الحسنات فلا تُذْهب ثوابَها السيئاتُ مطلقاً، فإن حسنة الإيمان لاتذهب إلا بنقيضها وهو الكفر»[1].

وأما معارضته لصحيح وصريح السنة؛ فإن هذا الحديث يخالف الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه، وهو أصح من حديثنا هذا ولاشك، وفيه إن الله يقول للعبد المذنب يوم القيامة؛ (أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم)[2]. ويخالف أيضاً الحديث الصحيح: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين) [3].

لذا ذهب العلماء إلى رد الحديث من جهة متنه لنكارته [4] . وأيا كان الحال في ثبوت سند هذا الحديث أو عدمه، وأيا كان التوجيه العلمي لهذا

---

(١) مجموع الفتاوى، ٢٠ / ٩٣.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

(٤) انظر بحث الشيخ خباب بن مروان الحمد للحديث، منشور في صفحة الشيخ على الشبكة الالكترونية. وممن ذهب أيضاً إلى نكارة متن الحديث الشيخ الدكتور سلمان العودة، في بحث له منشور الكترونياً على موقع الألوكة .

المعنى في المتن، فإن من الفقه والحكمة ألَّا يحدث المربي الناس بما لايعقلونه أوما قد لاتبلغه عقولهم . خاصة إذا خشي منه أن يؤثر على استقرار قاعدة شرعية هامة ومستقرة، هي أن الحسنات يذهبن السيئات، وأن الإنسان لازال يذنب ويستغفر حتى يقول الله له: (اعمل ماشئت فقد غفرت لك) . فالواعظ والمربي لاينبغي أن يغفل عن مآل مايذكره للناس من مواعظ، وأثرها على استقرار القواعد الشرعية التي ينطلق منها الناس في تعاملهم مع ربهم عز وجل .

ومثال آخر؛ هو مراعاة عدم معارضة الحديث للقواعد الشرعية الواردة في القرآن الكريم، مثل قاعدة رفع الحرج، ومن تطبيقاتها أن الله عز وجل لا يؤاخذنا بما جهلناه، فلم ندركه أو لم نعلمه، وهذا معلوم من قوله عز وجل: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ . وهذا يشمل جميع الأعمال والقربات .

وهناك حديث قد يعارض في ظاهره هذه القاعدة، وهو مايروى عن النبي ﷺ: (يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل)[1] وأتى الحديث أيضاً في روايات أخرى بهذا اللفظ: (الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل على الصفا)[2] . وهذه الحديث ينبغي توجيهه إلى مراقبة

---

(١) رواه أحمد . والحديث رغم شهرته إلا أن في إسناده مقال، وممن حسن إسناده من المعاصرين الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣).

(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٣٠) .

النفس ومحاسبتها، لكن لايذكر للناس من باب التخويف المطلق والغير منضبط، وأقصد بذلك ألَّا يؤدي إلى لبس في أصل وقواعد تعامل الله مع عباده، فمن الأصول المعتبرة أن الله عز وجل لايؤاخذنا بمانسيناه أو جهلناه، لذا كان الاستغفار الذي علمه النبي ﷺ لأبي بكر الصديق مؤكداً لهذا المعنى: (قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم)[1].

٤ ـ قاعدة: لا يترك العمل الصالح لأجل عيب يطرأ عليه:

إن من تمام الوعي لفنون التحفيز، أن يحث المربي الناس على عدم التوقف عن عمل ما بسبب نقص يطرأ عليه، وإن قاعدة: «**لا يترك العمل الصالح لأجل عيب أو نقص يطرأ عليه**»، تشمل جميع الأعمال والقربات، التي يقوم بها المسلم، لأن الآفات والعيوب تدخل على سائر الأعمال، ولو ترك العبد العمل لأجل ذلك فإن الشيطان يظفر بأمنيته، فلاتكاد تخلو النفس عند القُربات من النقص أو العيب.

وقد كتب أحدهم إلى السهروردي (٦٣٢ هـ) يستفتيه في مثل هذه الأعراض، قال: «يا سيدي، إن تركتُ العمل أخلدتُ إلى البطالة، وإن عملتُ داخلني العُجب، فأيهما أولى؟ فكتب إليه السُّهرَوَردي[2]: اعمل

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٥١).

(٢) عمر بن محمد بن عمّويه السُّهرَوردي (٦٣٢ هـ)، صاحب كتاب عوارف المعارف. انظر ترجمته في: البداية والنهاية: ١٣/ ١٧٨، السبكي، طبقات الشافعية، ٥/ ١٤٣، ابن الملقن، طبقات الأولياء، ٢٠١.

واستغفر الله من العُجب[1]». ويصدّق هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود: ١١٤].

وأهمية ما سبق هي توضيح دور المربي والواعظ في تقوية قلب المسلم أمام الخواطر الشيطانية التي تدخل عليه من باب الحذر من الرياء أو من باب وجود العيب في العمل نفسه، كقلة حضور القلب في الصلاة، فإن هذا الباب يؤدي ويؤول الى السلبية والقعود عن الأعمال. خصوصاً وأن الكمال البشري غير متصور في غير الأنبياء، وكذلك لايتصور الكمال في الأعمال البشرية .

٥ـ قاعدة في ترك التفريع في الصفات المذمومة:

إن مما يشمله فقه التحفيز؛ التوجيه والتذكير بالأهداف الأساسية في التربية، وترك التشاغل بالأمور الثانوية، ومن ذلك عدم تشتيت المتربين في أمور غير مهمة، أو أمور ثانوية تشغل عن مهمات الأمور، وهذه القاعدة تصلح للتنزيل في أكثر الصفات المذمومة، وهذا أصل مهم في التربية؛ أنه لاينبغي التنقيب أو الانشغال بالصفات المذمومة والتفريع فيها، لأنها لا تنتهي ولا تنقضي .

ولابن القيم محاورة جميلة مع شيخه ابن تيمية في هذه المسألة حين سأله عن قطع الآفات والانشغال بتنقية الطريق منها، فبين ابن تيمية اختياره منهج الإعراض وعدم التنقيب، وشبهها بحال بئر نجس ينبغي أن تسقف

---

(١) ابن الملقن، طبقات الأولياء، ٢٠٢.

عليه وتعبره دون تنقيب فيه! فذكر له ابن القيم تشبيه بعض أهل التربية التفتيش عن الآفات؛ بأنه مثل مسافر قضى وقته وهو يفتش في جوانب الطريق عن الأفاعي والعقارب ليقتلها، وكان الأولى به أن يسير ولا يلتفت لها![1].

وماسبق يلخص منهجاً تربوياً رفيعاً في الإعراض عن دقائق الآفات التي لاينبغي التشاغل بها، فإن عرضت مثل تعرض الأفعى في طريق المسافر قتلها وأكمل سيره .

ويصلح مثالاً لهذا ما ذكر سابقاً في قاعدة الإخلاص، في ترك التشقيق والتفريع في أمر الرياء، لذا قالوا: «إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء»[2]. فالإخلاص هو الأصل، والرياء فروعه وأشكاله لاتنتهي ولاتنقضي، والأولى الانشغال بتحقيق الإخلاص في الأعمال .

وممن أُخذ عليه انتهاج مسلك التشقيق والتفريع؛ الإمام الحارث المحاسبي (٢٤٣ هـ)[3] رحمه الله، وقد انتقد منهجه هذا بعض الأئمة، منهم

---

(١) انظر: ابن القيم، المدارج، ٢ / ٢٥٦.

(٢) من كلام أبوسليمان الداراني، انظر: القشيري، الرسالة القشيرية، ٢١٠.

(٣) الإمام الحارث بن أسد المحاسبي، من أوائل من كتب في التربية والتزكية، ومن الرواد في ذلك رحمه الله، وكتبه الثلاثة مشهورة وهي: الرعاية لحقوق الله، ورسالة المسترشدين، والتوهم: من المراجع الهامة الأصلية في التربية، عاصر الإمام أحمد بن حنبل، وهو شيخ الجنيد بن محمد. توفي سنة (٢٤٣ هـ). انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٢ / ١١٠، نزهة الفضلاء، محمد عقيل موسى، ٢/ ٨٧٦.

أبو زرعة الرازي، فقد قال منكراً تشقيقاته: «هل بلغكم أن مالكاً والثوري والأوزاعي صنفوا في الخطرات والوساوس؟! ما أسرع الناس على البدع»[1].

ومما يستفاد من إنكارهم عليه؛ أن نقد الفكر التربوي أمر مطلوب، ولانتوقف عنه بدعوى أن القائل مجتهد، أو أنه لاينبغي التشنيع على العاملين في التربية، أو على المربين الكبار في قدرهم، فإن شأن الفكر التربوي مثل أي علم آخر لن ينضج إلا بما نضجت به سائر العلوم؛ من نقد وبحث ومراجعة، ووضع المعايير والموازين للقبول والرد [2].

* * *

رابعاً ـ تحقيق القاعدة وتنزيلها

إن المراد بالتحفيز يتجاوز المفهوم المحدود للتشجيع، فإن كان التشجيع المباشر هو الصورة المتبادرة للذهن عند الحديث عن التحفيز، فإن هناك صوراً وأساليب للتحفيز لاتقل أهمية عن التشجيع المباشر، وكلها تؤدي دوراً في ذلك، وهو ماسنتناوله في تحقيق القاعدة .

١ ـ التأمل في المآلات:

إن التأمل في المآلات من أهم الأصول الهادية إلى التصرف التربوي

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٢ / ١١٢.

(٢) لازال لدينا تقصير في نقد الكتابات في الفكر التربوي الإسلامي، وهو مما ينبغي أن يلتفت له المهتمون بالتربية الإسلامية .

الأمثل، والموعظة الأنسب، واعتبار المآلات يقي من كل ما يؤدي إلى تخذيل الناس أو تحبيطهم، سواء بقصد أو بدون قصد .

توجيه النبي ﷺ المواعظ إيجابياً:

لقد ورد عن النبي عدة أحاديث كان يُبيّن للصحابة فيها مراده من الموعظة، وأن مقصوده العمل، لا التأثر السلبي المؤدي إلى ترك الضروريات الحياتية، وهذا قريب من فقه الموازنة السابق ذكره، ومن تلك الأحاديث:

١ ـ روى ابن حبان في صحيحه من حديث ابن عباس قصة خروج النبي ﷺ مع أبي بكر وعمر إلى أبي أيوب الأنصاري وإطعامه لهم، وفي آخره: (فلما أكلوا وشبعوا، قال النبي ﷺ: خبز ولحم وتمر وبسر ورطب، ودمعت عيناه، والذي نفسي بيده إن هذا هو النعيم الذي تسألون عنه، قال الله جل وعلا: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ فهذا النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة، فكبر ذلك على أصحابه، فقال: بل إذا أصبتم مثل هذا فضربتم بأيديكم فقولوا: بسم الله، فإذا شبعتم فقولوا: الحمد لله الذي هو أشبعنا وأنعم علينا وأفضل، فإن هذا كفاف بهذا)[1]. فلما رأى النبي ﷺ الأثر الذي أحدثته موعظته في الصحابة، نبه إلى أن المراد من ذلك التذكير بفضل الله ونعمه، ووجوب شكره تعالى على ما أنعم به وتفضل، وليس القصد كف اليد عن الطعام أو تركه، لأنه مما لابد للمرء منه!

---

(١) الهيثمي، زوائد ابن حبان، ٢/ ١١٤٢، وقال المحقق شعيب الأرنؤوط : ضعيف عن ابن عباس، صحيح عن أبي هريرة .

أثر كتاب الرعاية للحارث المحاسبي:

ومن آثار غياب فقه مراعاة المآلات، مارُوي عن مساجد في العراق كانت تَعُجّ بأصوات القُرّاء في الليل، ثم بعد أن خرج كتاب «الرعاية»[1] للإمام الحارث المحاسبي خلت تلك المساجد من أهلها، وهذا لتعمقه في المحاسبة على دقائق الخطرات والوساوس المتعلقة بالإخلاص والرياء[2]، مما لا تحتمله أكثر النفوس، فكان نتيجة ذلك ترك الناس للعمل. فلم يكن أثر كتاب الرعاية أن جوّد الناس أعمالهم وأخلصوا في نياتهم، بل تركوا العمل! وهذا يدل على خطأ في منهج الوعظ.

وقد علق ابن القيم على الأثر السلبي للتفريع في أمر الوساوس والخطرات، قال: «ولهذا لما ظهرت «رعاية» أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي واشتغل بها العباد عطلت منهم مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة! والطبيب الحاذق يعرف كيف يطبّ النفوس، فلا يعمر قصراً ويهدم مصراً!»[3].

لذا فإن من المعايير التربوية المهمة: أن ظهور أثر سلبي للمواعظ أو

---

(١) الرعاية لحقوق الله، كتاب في التربية والسلوك، مطبوع في مجلد، يحتوي على دقائق في محاسبة النفس ومراقبتها، وقد حققه عبدالقادر أحمد عطا، ونشرته دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) تكلم المحاسبي في الرعاية عن الإخلاص والرياء وتفريعاته مطولاً، من الصفحة ١٥٣ حتى ٢٤٣، تحت عنوان: كتاب الرياء.

(٣) ابن القيم، مدارج السالكين، ١/ ٤٧٣.

الوسائل التربوية؛ مثل نفرة الناس أو مللهم أو تركهم العمل بعد مدة، يدلنا على وجود خطأ منهجي أو موضوعي فيها، حتى لو كانت مشتملة على حق وصدق، فإن الغاية من التربية هي الإصلاح والتزكية، وإذا تحقق العكس فهذا دلالة وأمارة على خطأ ما .

توخّي المقامات المسيِّرة:

لقد نبه ابن القيم المربين إلى أن من المقامات ما قد يُظن أنها من كمال التربية، وحقيقتها أنها خلاف ذلك، فقد علق ابن القيم على منزلة الحزن في المدارج بكلام نفيس، نفى فيه أن يكون الحزن مقاماً يُحمد عليه صاحبه لذات الحزن، لأنه لا ينفع العبد، قال: «وسرّ ذلك إن الحزن مُوَقِّف غير مُسَيِّر، ولا مصلحة فيه للقلب، وأحب شيء إلى الشيطان أن يحزُن العبد ليقطعه عن سيره ويوقفه عن سلوكه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[المجادلة: ١٠] فالحزن ليس بمطلوب ولا مقصود ولا فيه فائدة، وقد استعاذ منه النبي فقال: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن) فهو قرين الهم!»[1].

لذا لابد أن نتأمل في مآل مواعظنا وكلماتنا؛ إلى أين تؤدي بالسامعين؟! وهذا قريب مما نراه اليوم من حال بعض اليائسين من صلاح أحوال الأمة، سواء حال الأفراد أو المجتمعات، فإن شأن هؤلاء التحسر في حزن وشفقة

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين: ١ / ٥٠٦، وانظر أيضاً: مدارج السالكين، ١/ ١٤٢.

لأوضاع الأمة، ويظنون أن هذا الحزن أوالتعاسة من الاهتمام بأمر المسلمين، والحق أن هـذا مثـل الحزن والبكـاء في المواعظ، فإذا لم تكن الدموع محركة نحو العمل لتغيير حال الأمة، وإصلاح النفس، والقيام بنصرة الدين وخدمته فإنها لاتغني شيئاً.

٢ـ التغافل وإقالة ذوي الهيئات عثراتهم:

وهذا منهج تربوي فريد من نوعه، وهو من أساليب التحفيـز الغـير مباشرة، فهو يراعي جانباً مهماً في النفس الإنسانية؛ هو مزيج مـن الكرامـة والحياء والعزة، لذا أوصى النبي بعدم خدش تلك المعاني لدى المخطئ، قال رسول الله ﷺ: (أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود)[1].

ولو تأملنا في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين أفشـى سر النبـي ﷺ إلى قريش، يوم فتح مكة، وتعامل النبي ﷺ معـه، لفهمنـا أبعـاد هـذا التعامـل التربوي الفريد من نوعه، ولوجدنا منهجاً سـامياً في التغـاضي عـن الـزلات والأخطاء، وفي هذا تشجيع وتحفيز لصاحبها لإصلاح نفسـه ومراجعتهـا، وهو أفضل من توبيخ أو عقاب قـد يـؤدي إلى نكـوص وتحبـيط لايمكـن علاجه.

ويتضح هـذا المنهـج أكثـر إذا جمـعنـا مـع ماسـبق تنبيـه النبـي ﷺ لأصحابه حين حدّ رجلاً في شرب الخمر، فقـال بعـض الصـحابة للرجـل:

---

(١) أحمد والنسائي . وفي رواية أخرى؛ بلفظ: (زلاتهم).

أخـــزاك الله! فحـــذرهم النبـــي ﷺ: (لاتكونـــوا عـــون الشـــيطان عـــلى أخيكم)[1].

أما التغافل فهو الإغضاء وغض الطرف عن الزلل والأخطاء، ويروى عن الإمام أحمد: أن تسعة أعشار حسن الخلق في التغافل . ويروى عن بعض السلف قولهم: من المروءة التغافل عن زلل الإخوان . وهذا خلق نبوي كريم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾[التحريم: ٣].

إن من أهداف التربية الإسلامية تخليص المجتمع من التثبيط المباشر وغير المباشر، والحث على التحفيز المباشر والضمني، وكل ما سبق لتحقيقه يتطلب نفوساً كبيرة، لاتحملها النوازع البشرية على التشفي من المخطئ والمذنب، بل تشجيعه وحثه لكي يصلح من حاله ويعاود السير .

٣ـ تشجيع العطاء بجميع مستوياته:

من صور التحفيز العملي؛ حثّ المربي الناس على العطاء بما في استطاعتهم، فهذا اذكاء لروح العطاء لدى جميع الناس دون استثناء، وهو من منهج النبي ﷺ،ومن أمثلة ذلك أنه حين قدم قوم فقراء على المدينة، قام النبي ﷺ وحث الناس على الصدقة، ولم يستثن في تحفيزه أحداً، قال ﷺ لجموع المسلمين: (تصدق رجل من دينار من درهمه، من ثوبه، من صاع

---

(١) البخاري.

بره، حتى قال ولو بشق تمره)[1]. فبادر الناس كل بما يقدر عليه من عطاء، فتفاوتوا في قدر العطاء بحسب غناهم وفقرهم، وتساووا جميعاً في أصل حب العطاء عندهم .

وهذا التحفيز نلمسه كذلك في حديث: سبق درهم ديناراً، فقد قال ﷺ لأصحابه ذات مرة: (سبق درهم مئة ألف درهم) . قالوا يارسول الله وكيف ؟ قال ﷺ: (رجل له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به، ورجل له مال كثير فأخذ من عرض ماله مئة ألف درهم فتصدق بها)[2]. فتأمل كيف استثارهم بهذه المعلومة الجديدة على أسماعهم، ثم كيف شجعهم على حب البذل، ولو كان بالقليل، مادام هو مايستطيعه الإنسان .

لذا جاءت الوعيد الرباني لمن يلمز الضعفاء والمساكين في بذلهم للقليل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩].

* * *

خامساً ـ أثر غياب القاعدة

إن من أهم آثار غياب القاعدة:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه النسائي .

١ـ الوقوع في الوعظ الغير ممنهج أو الذي لم يتبصر صاحبه في مآلاته وآثاره على السامعين، مما قد يؤدي إلى التحبيط والتثبيط .

٢ـ فقدان معاني الرفق لدى المربي والواعظ ، فإن من بواعث التحفيز الرفق بالناس، والرحمة بهم، كل هذه المعاني تتجلى في التحفيز وقد تنتفي عند انتفائه .

٣ ـ التحفيز بأشياء فيها مبالغات، أو قد لاتتفق مع الشرع، مثل ما يروى عن كثرة تلاوة بعض العباد أو طول قيامهم وسهرهم ، وهذا قد يؤدي إلى عكس المراد منه في نفوس المستمعين .

❊ ❊ ❊

القاعدة العاشرة
الذاتية

أولاً ـ المراد بالقاعدة

الذاتية لغة: من الـذات، وهـي: الـنفس، وذات الشـيء: عينـه أو نفسه[1].

والمراد بالقاعدة: أن الجهد الفردي للمـتربي هـو الأسـاس في التربيـة والتزكية، أما المربي فإن جلّ عمله تبيين الطريق والإعانة على سلوكه.

فأساس الارتقاء في التربيـة هو ما يقوم به المؤمن من أعمال صالحة، سواء كانت قلبية أم بدنية، ومصداق ذلك في قول الله عـز وجـل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[الأعلى: ١٤ ـ ١٥]. فمرد النجاح والفلاح في مجمله يبنى على عمل المرء نفسـه، مـن حيـث اهتمامـه بإصـلاح نفسـه وتزكيتهـا بالعبادة.

* * *

(١) قاموس المعاني، www. almaany. Com.

ثانياً ـ الأصل الشرعي للقاعدة

من الأصول الشرعية للقاعدة من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[النجم: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾[فصلت: ٤٦].

وقول الله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦]. وقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ومن الأصول الشرعية للقاعدة من السنة: ما قاله النبي ﷺ لبني هاشم: (يا بني هاشم، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم!)[1]. وقد أمر النبي ﷺ ربيعة بن كعب الأسلمي حين طلب مرافقته في الجنة بعمل يقوم به الرجل مع نفسه، ويلزم للقيام به ذاتية قوية، وهو كثرة السجود، فقال له النبي ﷺ: (أعني على نفسك بكثرة السجود!)[2].

* * *

ثالثاً ـ من فقه القاعدة

١ ـ فلسفة الذاتية:

إن الذاتية ثمرة عزم صادق لدى الإنسان، يثمر عنه قرار لإصلاح

---

(١) رواه أحمد والترمذي.

(٢) رواه مسلم.

النفس وتزكيتها. فهي من ذات المكلف في أول الأمر ونهايته، وإنه مهما أحاط بالمرء من مربين أو أصحاب خير وفضل، فإنه يختار طريقه بمفرده. لذا فلابد أن ندرك أنه لايقدر أحد على أن يغرس الذاتية في أحد، وإنما دور المربي أن يوضح وينصح ويرشد فقط لاغير، وإن هذه الآية الكريمة تلخص المشهد التربوي كله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس: ٧ـ ١٠].

حقيقة الذاتية في التربية:

إن حقيقة الذاتية في التربية: رغبة ذاتية لدى المرء في تربية نفسه وتزكيتها بعزم ومجاهدة لها.

ويلخص مفهوم الذاتية الذاتية دعاء النبي ﷺ: (اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد)[1].

فأساس الذاتية قرار داخلي عند المرء يقوده لطلب الرشد واغتنام كل برّ، وهو السبب الأهم في اكتساب الذاتية، والباقي هو مايهيئه ويرشده إليه الوسط التربوي المحيط به، وهو شيء يسير، فالدور الحقيقي والأهم ينبع من ذات المتربي، وبقية الأمور مكملة ومساعدة فقط.

الذاتية والعصامية:

إن الذاتية مقاربة لصفة العصامية، فالعصامي من يكون مجده بنفسه، وهذا حال الذاتي في تربية النفس.

---

(١) رواه النسائي.

وقد وصف النابغة الذبياني حال عصام الجرمي الذي كان من عامة الناس فوصل باجتهاده إلى مكانة رفيعة:

نفس عصام سوّدت عصاما ... وعلمته الكرّ والإقداما

فصيرته ملكاً هماما ... حتى علا وجاوز الأقواما[1]

وعصام هذا هو مضرب المثل في الذاتية، وفي التربية يمكننا القول: إن نفس عصام وذاتيته ربّت عصاماً وزكّته!

فقد ينشأ المرء في بيئة غير مُعينة على التربية والتزكية، أو لا يتيسر له قدر كاف من التعليم، لكنه بذاتيته يتجاوز من تيسر لهم كل ماسبق، لذا تجد البعض ينشأ في الدول الغربية بعيداً عن المجتمع المسلم، ولديه من التربية والتزكية ما لا تجده في آخر نشأ في بيئة إسلامية تتوفر فيها كل العوامل التربوية المساعدة!

حديث استفت قلبك وعلاقته بالذاتية:

جاء في الحديث المشهور عن النبي ﷺ: (استفت قلبك واستفت نفسك...، البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ماحاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك)[2]. وفي الحديث إشارة إلى دور الذاتية

---

(١) صار عصام مضرب المثل، فيقال عصامي، وعكسه عظامي، أي مجده موروث وليس مكتسباً، ونقل أن الحجاج كان يسأل من يفتخر عنده: أعصامي أم عظامي؟!

(٢) رواه أحمد عن وابصة بن معبد رضي الله عنه، والحديث حسنه النووي والمنذري، والألباني.

في الاختيار، كيف أن خيرية المرء النابعة من ذاتيته ترشده إلى الخير والورع وترك الشبهات، مهما يسمع من آراء الناس أو فتاواهم . وهذه لا تتم إلا لمن عالج هوى نفسه، وأزال الران عن قلبه، فصار شفافاً يُميّز بين الحق والباطل، والحلال والحرام عندما تشتبه الأمور[1].

٢ ـ الذاتية صانعة القدوات:

الذاتية أساس التميز بين الناس:

إن المتربين وإن اشتركوا في طلب ذات الغاية، واشتركوا كذلك في التلقي من نفس المربين، واستمعوا لنفس الواعظين؛ إلا أن التميز الحاصل بينهم يكون بقدر ذاتيتهم، وذلك لأن؛ «من أهمته نفسه تبين ذلك عليه»[2].

الذاتية صانعة للقدوات:

إن أهمية الذاتية تبرز عندما يضعف الناس أو يتهاونون، أو عندما ينزل بلاء فيُحبطون، عندها تظهر أهمية ومكانة ذوي الذاتية العالية في تصدرهم كقدوات للناس . بل إن ذوي الذاتية العالية لا يزيدهم تخلي الناس أو تخاذلهم عن واجباتهم الدينية إلا شعوراً بالمسؤولية، حتى أسس المربون القدامى قاعدة في المتوقع من حال أهل الذاتية، فقالوا: «ينبغي للرجل المسلم أن يزيده ما يرى في الناس من التهاون في أمر الله جداً واجتهاداً»[3].

---

(١) انظر: الغزالي، الإحياء، ٢/ ١٥٧.

(٢) أبونعيم، حلية الأولياء، ٧/ ٢١٦.

(٣) من كلام يزيد الضبعي رحمه الله، انظر: أبونعيم، حلية الأولياء، ٣ / ٨٣.

إن تلك المواقف تظهر قيمة الذاتيـة،ودورها كصانعة للقدوات،فقد يقف الناس عن السير، لكن يبقى القدوة سائراً ولو وحده، وكانت وصيتهم فيما بينهم، أن: «اسلكوا سُبـل الحـق، ولاتستوحشوا من قلة أهلها»[1]. فقد يصيب أحدهم وحشة التفرد لتخلي الناس عن المبادئ أو عن القيم، ولكن لايزيده ذلك إلا حرصاً وعزماً[2].

٣ـ ارتباط الإنسان بصحبة تعينه وتدله على الخير لا ينافي الذاتية:

لاتتناقض الذاتية مع لزوم الصحبة المعينة، قال الله تعـالى آمـراً نبيـه الكريم ﷺ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾[الكهف: ٢٨]. بل المراد أن تكون للمرء أوقاتاً ينفرد بنفسه يراقبهـا ويحاسـبها، ولـه ورد مـن القـرآن والأذكار يتلوه، وله سريرة من عمل صالح لا يطلع عليه أحد يداوم عليـه، فالأمر لا يعدو الموازنة بين الأمرين .

* * *

رابعاً ـ تحقيق القاعدة وتنزيلها

كيف تُأسس الذاتية في المتربين:

إن أهم ما يمكن تناوله في تحقيق قاعدة الذاتية هو موضوع: تأسيس

---

(١) من كلام سفيان بن عيينة رحمه الله، انظر: أبونعيم، حلية الأولياء، ٧/ ٣٠٦.

(٢) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ١ / ٢٢.

وتنمية الذاتية في نفس المتربين والناس، خاصة وقد بينا سابقاً أن الذاتية قرار داخلي لدى كل إنسان، أي لا يملك أحد زرع الذاتية قسراً، فالذاتية عزم على الرشد وهذا من الهداية التي يمنّ الله بها على من يشاء من عباده: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾، وسبق أن ذكرنا أن الذاتية مهما تحدثنا بها أو قرأنا عنها إلا أنها في نهاية الأمر سلوك عملي أكثر منها أمر نظري، فقد تلاقي من لم يسمع بالذاتية قط، لكنه يملك منها ما لا يملكه من قرأ فيها كتباً، وهذا قريب من قول الصحابة رضي الله عنهم: كنا نؤتى الإيمان قبل القرآن! أي أن العزم على الإيمان والقيام بمقتضياته من الأعمال الصالحة موجود سلفاً عندهم قبل تنزل التكليف الشرعي.

١ ـ إعطاء الفرصة للمتربي لتنمية الذاتية في نفسه:

إن إعطاء المربي الفرصة للمتربين لينمّوا ذاتيتهم هو من تمام فقه المتربي لدوره الحقيقي والصحيح في التربية، فإن تعويد المتربين على القيام بتربية أنفسهم وتنميتها هو الأسلوب الأرقى والأنجع .وإن دور المربي الحقيقي هو في تفهيم المتربين فلسفة الذاتية، أما الميل إلى أسلوب التلقين والتوجيه للمتربين فهو سهل ويحسنه كل أحد .

إن من وسائل تنمية الذاتية ترك الفرصة للمتربين لتربية ذواتهم، ولا مفر من الخطأ أوالتقصير، لكن ذلك هو السبيل للتربية على الذاتية، وعلى العناية بالنفس والقلب والجوارح، فهو يتعلم كيف يصلح تقصيره وكيف يستغفر من ذنوبه ويزكي قلبه وجوارحه، أي أنه يتعلم تحمل مسئولية

نفسه [1]، وسبيل تحقيق ذلك إعطاء الفرصة للمتربي ليخلو بنفسه ويجربها، بتخفيف الارتباط اليومي بالرفقة الصالحة .

تحذير المربين من ممارسة الوصاية التربوية:

ينبغي أن نتذكر دائماً أن دور المربي مقتصر على الدلالة إلى الطريق إلى الله والإعانة على السير فيه، لكنه ليس وسيطاً بين المتربي وبين الله عز وجل ! فمهمة المربي الحقيقية هي إيقاظ الناس من غفلتهم، وتنبيههم لأهمية محاسبة النفس والاستعداد للقاء الله تعالى، ثم إعانتهم على سلوك الطريق إلى الله وتشجيعهم على مجاهدة أنفسهم ومغالبتها، وأهم التحفيز يكمن في ضربه القدوة في الاجتهاد في أعمال الخير.

إن من الأساليب الخاطئة في التربية أن يقوم المربي بدور الوصي على المتربين، فلا يترك الفرصة لهم لتربية أنفسهم وتزكيتها، إننا بحاجة إلى نشر ثقافة «رفع الوصاية عن المتربين»، لأنها من أهم مايعين على تحقيق الذاتية.

٢ ـ تفهيم المتربي أساسيات تربية النفس:

إن من أهم وسائل تحقيق قاعدة الذاتية هو مايتعلق باكتساب المتربي لمهارات التربية الذاتية، ومن المفاهيم المعينة على اكتساب تلك المهارة:

أ ـ تفهيم المتربي كيف يخطط لتربية نفسه:

إن تفهيم المتربي كيف يخطط لتربية نفسه من أهم الواجبات التربوية

---

(١) انظر في الموضوع كتاب: التربية الذاتية للأهدل.

على المربي، ويتأتى ذلك بإشرك المتربي في تربية نفسه، ابتداء من حلقات النقاش التي توضح كيف توضع البرامج والخطط التربوية الفردية للنفس، وكيف تتم بالتدرج، ثم يكون المتربي مسؤولاً عن نفسه بالدرجة الأولى، ودور المربي يُقْصَرُ على النصح والمشورة لا غير .

ب ـ تفهيم المتربي كيف يتغلب على المصاعب والمشكلات:

إن من أهم تطبيقات الذاتية أن نصل بالمتربي إلى القدرة على إصلاح عيوب نفسه، وحل مشاكله وتجاوز العقبات، لذا من الافضل أن نسمع منه اقتراحاته لحل المشكلة بدلاً من أن نقترح عليه، وأن نعوده أن يفكر هو بالحل وينفذه، كلما كان دورنا معه استشاريا أكثر تمكن من تعزيز ذاتيته أكثر.

٣ ـ مجاهدة النفس:

إن مجاهدة النفس ركيزة أساسية في الذاتية، لابد منها في بداية التربية وفي نهايتها، وهي أول وأهم مايكوّن الذاتية في النفوس، ويلزمها إرادة وعزم من لدن المتربي ابتداء، ثم عون من يحيطون به، بإرشاده إلى برامج فردية يومية وأسبوعية مناسبة له.

فن مجاهدة النفس ومغالبتها:

إن من السلف من تجاوز مجاهدة النفس ومغالبتها إلى معنى أعظم، هو مخاصمتها ومجافاتها، وكأنها ليست هو، فأصبح بينه ونفسه علاقة تحدٍ وحذر، جعلته يجاهدها ويخشاها كما يخشى الشيطان، فليس لها إليه سبيل،

وبهذا المعنى ارتجز عبدالله بن رواحة رضي الله عنه مخاطباً نفسه حين خافت الموت في المعركة:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... لتنزلنه أو لتكرهن

إن أجلب الناس وشدو الرّنّه ... ما لي أراك تكرهين الجنة

وقال أيضاً:

يا نفس إلَّا تقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صَليت

وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلي فعلاهما هديت[1]

وحدَّث أحدهم عن مجاهدته لنفسه، فقال: «دعوت نفسي إلى الله فأبت عليّ واستصعبت، فتركتها ومضيت إلى الله»[2].

٤ ـ التربية الوقائية:

إن منهج التربية الوقائية مهم ونافع جداً في التربية، لأنه يحمي النفس من الوقوع في الفتن أو مايؤثر على التربية ابتداء، وهذا أيضاً مما يكون دور المربي فيه التوضيح والبيان، لأنه يعتمد على وعي المتربي وحرصه على نفسه، ومثاله: التربية على البعد عن مواطن الاختلاط المحرم بالنساء، لما فيها من تعرض لفتنتهم، أو البعد عن صحبة السوء لأنها تجر صاحبها إليه وهكذا، وقد

---

(١) عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٩م، ص: ٢٧٣.

(٢) من كلام أبي يزيد البسطامي رحمه الله، انظر: أبونعيم، حلية الأولياء، ١٠ / ٣٧.

كان حذيفة يقول: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»![1].

وهذا يقتضي أن يعي المتربي أنه بتحوطه من تلك الأماكن يقي نفسه شراً أكبر، وإن حرم المتع أو الفوائد المحققة في الذهاب إليها. إن حرص المربين على تحقيق التربية الوقائية لا يتعارض مع التربية على الذاتية، لكن شريطة ألَّا تكون التربية الوقائية نوع من الوصاية التي تحيط بالمتربي حتى لا يزل أو يُخطئ، فإن هذه الوصاية تضعف الذاتية. ومما ينبه إليه أن التربية الوقائية في معرفة الشر لتوقيه لا تعني الاستغراق في بيان تفاصيل الشرور، وإنما هي قواعد عامة في الوقاية والحماية، وقد تم توضيح ذلك سابقاً في قاعدة عدم التفريع في الصفات السلبية.

التوقي من الخواطر السيئة والرديئة:

ومن تطبيقات الوقاية في تربية النفس، حفظ القلب والعقل من الخواطر الرديئة بأنواعها، فإن تلك الخواطر «هي بذرُ الشيطان والنفس في أرض القلب، فإذا تمكن بذرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى حتى تصير إرادات، ثم يسقيها بسقيه حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال، ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم»[2].

---

(١) متفق عليه.

(٢) ابن القيم، طريق الهجرتين، ٢٧٤.

ومن أهم مايعين على مدافعة تلك الخواطر: «العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره إلى قلبك وعلمه بتفصيل خواطرك، الثاني: حياؤك منه. الثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خُلق لمعرفته ومحبته»[1] . ويشمل هذا جميع الخواطر الرديئة، مثل الحقد أو الحسد أو الرياء أوالشهوات المحرمة.

٥ ـ التربية على مبدأ: العلم يراد به العمل:

إن من القواعد الهامة في التربية، قاعدة: «العلم يراد به العمل»؛ وهي من أهم عوامل تعزيز الذاتية، لأن حقيقة الذاتية حمل النفس على القيام بالتكاليف، ومتى فقد هذا المعنى فستتحول الكلمات التي يسمعها أو يقرؤها إلى مجرد ثقافة ومعلومات نظرية لا تثمر عملاً صالحاً، قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾[محمد: ١٩] فكانت ثمرة العلم العمل. وكان منهج الصحابة تعلم عشر ـ آيات من القرآن فإذا فقهوها وقاموا بها تعلموا غيرها، حتى قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً[2]. وحكى ابن مسعود رضي الله عنه منهجهم في العلم والعمل، فقال: «كان الرجل منا إذا علم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن»[3].

---

(١) ابن القيم، طريق الهجرتين، ٢٧٤.

(٢) أصل هذا الأثر رواه عبدالرزاق والبيهقي والحاكم في المستدرك.

(٣) رواه الطبري في تفسيره، وصحح إسناده أحمد شاكر.

وكان السلف يوصون بذلك، فهذا أيوب السختياني يقول: أوصاني أبو قلابة: «إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عبادة، ولا يكن همك ماتحدث به الناس»[1].

العمل هو الغاية من العلم:

وحين تكلم أحدهم أمام الإمام أحمد عن معروف الكرخي (٢٠٠هـ)[2] رحمهما الله، فقال: إنه قصير العلم! فقال له الإمام أحمد: «أمسك، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف !»[3]. أي مابلغه معروف من العبادة والزهد . أما سفيان الثوري فيقول: «ما بلغني عن رسول الله حديث قط إلا عملت به ولو مرة!»[4]. وغياب هذا المبدأ عن المسلم يحوله إلى شخص نظري يجمع المعلومات، ولا يكترث بالعمل والتزكية .

٦ ـ التربية على الخلوة بالنفس:

إن الخلوة بالنفس هي السبيل لإنجاز كثير من الأهداف الشخصية، بدءاً بالعبادة ومروراً بطلب العمل، وانتهاء بالتأمل ومراجعة النفس. والمقصود بالخلوة بالنفس ليس البعد الجسدي عن الناس فقط، بل القصد

---

(١) أبونعيم، حلية الأولياء، ٢/ ٢٨٣.

(٢) معروف بن فيروز الكرخي (٢٠٠هـ)، قال عنه الذهبي: بركة العصر. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٣٩، حلية الأولياء ٨/ ٣٦٠.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٩ / ٣٤٠.

(٤) محمد عقيل موسى، نزهة الفضلاء، ١/ ٥٨٤.

الانفراد بالنفس، وهذه الخلوة قد تكون في البيت وقد تكون في المسجد، فليس المكان هو جوهر الخلوة، بل المهم ماتحققه الخلوة.

وللخلوة أثراً كبيراً في تربية المرء لنفسه وتزكيتها، حتى قالوا: «ما نفع القلب مثل عُزلة، يدخل بها ميدان فكرة»[1]. لذا فإن تخصيص وقت للنفس كل يوم، وكل أسبوع من الأولويات، مهما قل هذا الوقت .

تعويد النفس على الخلوة النافعة:

إن تعويد النفس على الخلوة النافعة من أهم ما يعين على تحقيق الذاتية، وهذا لما في الخلوة من فوائد عظيمة تعود على صاحبها إذا أحسن استغلالها، ويكفي في ذلك ما قاله النبي ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لاظل إلا ظله: (ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)[2].

يقول ابن تيمية رحمه الله مؤكداً مبدأ الخلوة بالنفس كوسيلة للذاتية: «ولا بد للمرء من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبته نفسه وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذه يحتاج فيها إلى انفراد بنفسه، إما في بيته، كما قال طاووس: نعم صومعة الرجل بيته، يكف فيها بصره ولسانه. وإما في غير بيته.»[3].

---

(١) من حكم ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، ٤٨.

(٢) رواه البخاري.

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٠/ ٤٢٥.

وحكى لنا ابن الجوزي كيف أن الله رعاه منذ صغره، وحبب إليه الخلوة، قال: «ولولا خطايا لا يخلو منها البشر لقد كنت أخاف على نفسي من العجب، غير أنه عز وجل صانني وعلمني وأطلعني من أسرار العلم على معرفته، وإيثار الخلوة به، حتى لو أنه حضر معي «معروف» و «بِشر»[1] لرأيتهما زحمة!»[2].

* * *

خامساً ـ أثر غياب القاعدة

١ ـ ضعف المرء متى صار وحده:

إن غياب الذاتية يجعل الباعث أو المحرك على التربية والتزكية يأتي من خارج النفس والذات، لذا إن انقطع هذا الدعم والتوجيه الخارجي ضعف المرء وانقطع عن العمل. وعلامة ذلك ألَّا يكون للمرء أعمال خاصة ينفرد بها سواء في تربيته لنفسه أو عبادة ربه. لذا عندما يخرج من هذا الوسط التربوي المحفز يبدأ الفتور والضعف لديه .

٢ ـ فقد القدوات، وظهور الإمّعات:

إن من الظواهر المشاهدة عند غياب الذاتية خروج جيل من

---

(١) أي: بشر بن الحارث الحافي، ومعروف الكرخي رحمهما الله، وهما من العباد والزهاد الكبار، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١١/ ٢١١.

(٢) ابن الجوزي، صيد الخاطر، ٢٧٦.

الإمّعَات، إن أحسن الناس أحسنوا، وإن أساء الناس أساؤوا، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: (لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم)[1]، وبلا شك إنه سيقابل هذا فقد القدوات أو ندرتهم في المجتمع، فلن يحسن إذا أساء الناس إلا من لديه ذاتية تتغلب على الظروف والمواقف.

٣ ـ كثرة الوعظ لا تنفع من ليس عنده ذاتية:

إن كثرة الوعظ لاتفيد من ليس عنده الذاتية: «فإن العاقل إذا لم ينتفع بقليل الموعظة، لم يزدد على الكثير منها إلا شراً»[2]، فإن القلب يزداد تبلّداً تجاه المواعظ. وهذا الطبع مؤداه إلى قسوة القلب، حيث يتعود المرء اللامبالاة بما يسمع من مواعظ أو ترغيب بالأعمال الصالحة، وقد ذكر المربون الأوائل أن من غفلة العبد: «بحثه عن علوم رِضَى نفسهِ بتعليمها دون استعمالها والوصول إلى حقائقها»[3].



---

(١) رواه الترمذي في سننه، وقال: حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه، وضعفه الألباني.

(٢) من كلام سفيان بن عيينة رحمه الله، انظر: أبونعيم، حلية الأولياء، ٧ / ٢٧٧.

(٣) من كلام ذي النون، انظر: أبونعيم، حلية الأولياء، ٩ / ٣٦١.

خاتمة

انتهى بعون الله وتوفيقه هذا الجهد في تقعيد الفكر التربوي الإسلامي، راجياً الله أن يكون هذا التقعيد عوناً في تقريبه للمهتمين به، وإن كان هناك من توصية في نهاية الكتاب، فهي دعوة جميع المربين والمعلمين والواعظين والآباء إلى القراءة المتمعنة في الفكر التربوي الإسلامي، والكتب والبحوث في ذلك لاتحصى، وعلى رأسها ماجاء في تفسير الآيات الكريمة والأحاديث النبوية التي في شأن التربية.

هذا وما أصبت فمن الله، وما أخطأت فمن نفسي والشيطان

ربي اغفر لي ولوالدي، وللمسلمين والمسلمات

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين



فهرس المراجع

* **كتب التربية والسلوك:**

ـ **المحاسبي، أبوعبدالله الحارث بن أسد البصري (٢٤٣هـ):**

ـ رسالة المسترشدين، تحقيق عبدالفتاح أبوغدة رحمه الله، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط ٥، ١٩٨٣م.

ـ الرعاية لحقوق الله، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

ـ **أبو نصر السراج؛ عبدالله بن علي (٣٧٨هـ)**، اللمع، تحقيق عبدالحليم محمود، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ٢٠٠٢.

ـ **أبوطالب المكي؛ محمد بن علي بن عطية (٣٨٦هـ)**، قوت القلوب في معاملة المحبوب، تحقيق د. محمود الرضواني، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط الأولى، ٢٠٠١م.

ـ **القشيري، أبوالقاسم عبدالكريم بن هوازن (٤٦٥هـ)**، الرسالة القشيرية، تحقيق معروف زريق وزميله، دار الخير، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

ـ **الهروي، الإمام عبدالله الأنصاري (٤٨١هـ)**، منازل السائرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.

ـ **الغزالي؛ أبوحامد محمد بن محمد (٥٠٥هـ):**

ـ إحياء علوم الدين، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٥م.

ـ أيها الولد المحب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٨٤م.

ـ **ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي البغدادي (٥٩٧هـ):**

ـ صيد الخاطر، تحقيق عبدالقادر عطا، مكتبة الكليات الازهرية، مصر.

ـ تلبيس إبليس، دار الكتب العلمية، لبنان، ط٢، ١٩٨٧م.

ـ ذم الهوى، صححه أحمد عبدالسلام عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٩٣م.

ـ **السهروردي؛ عمر بن محمد بن عمّويه السُّهرَوردي (٦٣٢هـ)**، عوارف المعارف، ملحق بكتاب إحياء علوم الدين للغزالي، دار القلم، لبنان، ط الثالثة.

ـ **ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبدالحليم (٧٢٨هـ):**

ـ مجموع الفتاوى، جمع عبدالرحمن بن قاسم، لايوجد معلومات للطبعة.

ـ العبودية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط الخامسة، ١٣٩٩هـ.

ـ التحفة العراقية في أعمال القلوب، تحقيق سليمان الحرش، دار الهدى للنشر، الرياض، ط الأولى، ١٩٨٧م.

ـ **ابن قدامة المقدسي؛ أحمد بن محمد بن عبدالرحمن (٧٤٢هـ)**، مختصر منهاج القاصدين، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٥.

ـ **ابن القيم؛ شمس الدين محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ):**

ـ الفوائد، تحقيق عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط ٤، ١٩٨٧م.

ـ مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى.

ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، تحقيق سعيد اللحام وزميله، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين، تحقيق سيد إبراهيم صادق، دار الحديث، القاهرة.

ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب، تحقيق بشير عيون، مكتبة المؤيد، بيروت، ط ٣، ١٩٨٩م.

ـ ابن عطاء الله السكندري (٧٠٩هـ)، الحكم العطائية، إعداد ودراسة محمد عبدالمقصود، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة.

* * *

*** كتب في فنون متفرقة:**

ـ يوسف بن عبدالبر (٤٦٣هـ)، جامع بيان العلم وفضله، دار ابن الجوزي، تحقيق الزهيري، باب كيفية الرتبة في أخذ العلم.

ـ ابن الأثير، مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، نحقيق طاهر الزاوي وزميله، المكتبة العلمية، بيروت.

ـ موفق الدين ابن قدامة المقدسي، محمد بن عبدالله بن أحمد (٦٢٠هـ)، المغني، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

ـ **العز بن عبدالسلام، عز الدين بن عبدالسلام السليمي (٦٦٠هـ)**، الفوائد في اختصار المقاصد أو القواعد الصغرى، تحقيق إياد الطباع، دار الفكر، بيروت، لبنان، إعادة الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

ـ **النووي، أبوزكريا يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ)**:

ـ رياض الصالحين، تحقيق شعيب الأرناؤوط، نشر عبدالله بن إبراهيم الأنصاري.

ـ شرح صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١م.

ـ **القرافي؛ شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبدالرحمن الصنهاجي (٦٨٤هـ)**، كتاب الفروق، تحقيق د محمد سراج وزميله، دار السلام، القاهرة، ط ١، ٢٠٠١م.

ـ **الفيومي؛ أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (٧٧٠هـ)**، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٤.

ـ **ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ)**:

ـ تفسير القرآن العظيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠٤ م.

ـ البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم وزملائه، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٨٥م.

ـ **الشاطبي؛ أبوإسحق ابراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي (٧٩٠هـ)**:

ـ الموافقات في أصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، عناية: عبدالله دراز، ط الثانية، ١٩٧٥م.

ـ الاعتصام، ضبطه وصححه أحمد عبدالشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٨م.

ـ **الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر (٨٠٧هـ):**

ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.

ـ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط وزميله، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

ـ **السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (٩١١هـ)**، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٩٨٣م.

* * *

*** كتب التراجم والطبقات:**

ـ **أبونعيم، أحمد بن عبدالله الاصفهاني (٤٣٠هـ)**، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٨م.

ـ **القاضي أبي الحسين؛ محمد بن محمد بن الحسين؛ ابن القاضي أبي يعلى (٥٢٦هـ)** طبقات الحنابلة، تحقيق أسامة بن حسن وزميله، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.

ـ **الذهبي؛ محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ)**، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط السادسة، ١٩٨٩م.

ـ **ابن الملقن: أبي حفص سراج الدين عمر بن علي (٨٠٤هـ)**، طبقات الأولياء، تحقيق عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٩٩٨م.

* * *

*** المراجع المعاصرة:**

ـ أحمد زايد، تأصيل فقه الدعوة عند الإمام الشاطبي، دار الأندلس الخضراء، جدة،

ط الأولى، ٢٠٠٤ م.

ـ أحمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٤م.

ـ البورنو، د محمد صدقي، موسوعة القواعد الفقهية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

ـ سعيد إسماعيل علي، الخطاب التربوي الإسلامي، كتاب الأمة، قطر، العدد ١٠٠، (مايو) ٢٠٠٤م.

ـ سعيد حوى، المستخلص في تزكية الأنفس، دار السلام، مصر، ط الرابعة، ١٩٨٨م.

ـ سعيد بن ناصر الغامدي، حقيقة البدعة وأحكامها، دار الرشد، الرياض، ط الاولى، ١٩٩٢م.

ـ ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق محمد الميساوي، البصائر للإنتاج العلمي، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

ـ عبد الإله الأحمدي، المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة، دار طيبة، الرياض، ط ١، ١٩٩١م.

ـ عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٩م.

ـ عبدالهادي حسن وهبي، في ظلال المحبة، دار ابن القيم، السعودية.

ـ عبدالرحمن المالكي، مهارات التربية الإسلامية، من إصدارات سلسلة كتاب الأمة، الإصدار رقم (١٠٦)، قطر، ٢٠٠٥م.

ـ عبدالرحمن السنوسي، اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات، دار ابن الجوزي، السعودية، ط الاولى، ١٤٢٤هـ.

ـ د. عبدالعزيز المعايطه، ود. عبداللطيف الحليبي، مقدمة في أصول التربية، مكتبة الفلاح، الكويت، ط ١، ٢٠٠٥م.

ـ علي الزهراني، الأساليب التربوية المستقاة من خلال تراجم البخاري، بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى، جمادى الثانية، ١٤٢٤م.

ـ فواز الصعيدي، أساليب التربية النبوية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى.

ـ محمد أحمد الراشد، العوائق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٣، ١٩٨٩م.

ـ محمد سعد اليوبي، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار الهجرة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

ـ محمد عقيل موسى، نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، دار الأندلس، جدة، ط ١، ١٩٩١م.

ـ محمد الوكيلي، فقه الأولويات، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، فيرجينيا، ط ١، ١٩٩٧م.

ـ محمد الروقي، نظرية التقعيد الفقهي، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م.

ـ معاذ أبوالفتح البيانوي، فقه الموازنات الدعوية، دار اقرأ، الكويت، ط ٣، ٢٠٠٨م.

ـ الندوي، علي أحمد، القواعد الفقهية، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م.

ـ نسرين عطية الزهراني، أسلوب التدرج في التربية الاسلامية، رسالة ماجستير، كلية التربية بجامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٣١هـ.

ـ يعقوب الباحسين، المعايير الجلية في التمييز بين الأحكام والضوابط والقواعد الفقهية، مكتبة الرشد، الرياض.

ـ يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١١، ١٩٨٣م.

* * *

*** المراجع الالكترونية:**

ـ المصحف الشريف، نشر بيت التمويل الكويتي.

- جامع البيان عن تأويل آي القرأن، الإمام ابن جرير الطبري، ملحق مع المصحف الالكتروني، نشر بيت التمويل الكويتي.
- القرآن العظيم، الإمام ابن كثير، ملحق مع المصحف الالكتروني، نشر- بيت التمويل الكويتي.
- الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبي، ملحق مع المصحف الالكتروني، نشر بيت التمويل الكويتي.
- تفسير فتح القدير، الإمام الشوكاني، ملحق مع المصحف الالكتروني، نشر بيت التمويل الكويتي.
- محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، نسخة الكترونية، ملحق مع المصحف الالكتروني، نشر بيت التمويل الكويتي.
- معجم المعاني الألكتروني www. almaany. Com.
- موقع شبكة السنة وعلومها alssunnah. Com.
- ويكبيديا Wikipedia. Org.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
أولاً: مفاهيم أساسية في الموضوع	٩
التزكية، التربية، التعليم، التربية الإسلامية	٩
ثانياً: لمحة عن التقعيد	١٣
ثالثاً: لمحة عن هذا الكتاب	١٧

الفصل الأول

القواعد الأساسية في التربية والتزكية

* تمهيد	٢٧
* **القاعدة الأولى: غاية التربية نيل محبة الله ورضوانه**	٣١
أولاً: المراد بالقاعدة	٣١
ثانياً: الأصل الشرعي للقاعدة	٣٢
ثالثاً: فقه القاعدة	٣٣

الموضوع	الصفحة
١ ـ مركزية هذه الغاية في التربية الإسلامية	٣٣
٢ ـ وضوح الغاية من التربية أساس نجاحها	٣٤
٣ ـ الصدق في محبة الله وأهميته في التربية الاسلامية	٣٦
٤ ـ ثمار محبة الله ورضوانه وآثارها على تربية النفس	٣٨
رابعاً: تحقيق القاعدة وتنزيلها	٤٣
١ ـ إيقاظ القلوب من الغفلة	٤٣
٢ ـ طرق نيل محبة الله ورضوانه	٤٥
٣ ـ السعي لتحقيق الاستقامة، وليس لنيل الكرامة	٥٠
خامساً: أثر غياب القاعدة	٥٢
* **القاعدة الثانية: العبودية**	٥٥
أولاً: المراد بالقاعدة	٥٥
ثانيا: الأصل الشرعي للقاعدة	٥٧
ثالثاً: فقه القاعدة	٥٩
١ ـ مفهوم العبودية وحقائقها	٥٩
الحقيقة الأولى: للعبودية مقاصد شرعت لأجلها	٥٩
الحقيقة الثانية: سر الاستفادة من العبادات الظاهرة في تزكية النفس وتربيتها	٦٠
الحقيقة الثالثة: العبادات في الإسلام هي روافد تربوية	٦١
الحقيقة الرابعة: أن النية تحوّل المباحات والعادات إلى عبادات	٦٢

الموضوع	الصفحة
٢ ـ تعدد وتنوع أوجه العبادة في الاسلام	٦٣
من أنواع العبودية: عبادات القلب	٦٤
من أنواع العبودية: التعبد بالأخلاق الحميدة	٦٦
من أنواع العبودية: التعبد بالذوقيات والجماليات	٦٨
من أنواع العبودية: التعبد بأعمال النفع المتعدي للغير	٦٩
من أنواع العبودية التعبد لله بإعمار الأرض	٧٢
رابعاً: تحقيق القاعدة وتنزيلها	٧٢
١ ـ أفضل العبادات	٧٥
٢ ـ طرق معرفة أحب الأعمال إلى الله	٧٨
٣ ـ من المعايير الخاطئة في التفضيل بين العبادات	٨٠
٤ ـ الإحسان أعلى مراتب أداء العبادة	٨٤
خامساً: أثر غياب القاعدة	٨٩
* **القاعدة الثالثة: الإخلاص**	٨٩
أولاً: المراد بالقاعدة	٩٠
ثانياً: الأصل الشرعي للقاعدة	٩٠
ثالثاً: من فقه القاعدة	٩٠
١ ـ كمال الإخلاص عزيز	٦٢
٢ ـ فقه الاحتساب في جميع الأعمال	٩٤
٣ ـ بركات الإخلاص	٩٥

الموضوع	الصفحة
٤ ـ التقي الخفي	٩٨
٥ ـ بركات إخفاء الأعمال	١٠٠
٦ ـ فقه إظهار الأعمال وإخفائها	١٠٢
٧ ـ قاعدة: لا يترك العمل الصالح لأجل عيب يطرأ عليه	١٠٥
رابعاً: تحقيق القاعدة وتنزيلها	١٠٦
١ ـ كيف نربي أنفسنا على الإخلاص لله تعالى	١٠٦
٢ ـ فقه الوعظ في شأن الإخلاص	١٠٩
٣ ـ قاعدة في ترك التفريع في الرياء	١١٠
خامسا: أثر غياب القاعدة	١١١
* **القاعدة الرابعة: الاتباع**	١١٣
أولاً: المراد بالقاعدة	١١٣
ثانياً: الأصل الشرعي للقاعدة	١١٤
ثالثاً: من فقه القاعدة	١١٥
١ ـ الاقتصاد في سنة خير من الاجتهاد في بدعة	١١٥
٢ ـ اعتماد المربين الأوائل لقاعدة الاتباع	١١٧
٣ ـ أسباب الميل عن قاعدة الاتباع	١٢١
٤ ـ الاتباع يشمل أيضاً مبادئ التربية النبوية	١٢٤
٥ ـ الاستفادة من العلوم الإنسانية المعاصرة في التربية	١٢٦

الموضوع	الصفحة
رابعاً: تحقيق القاعدة وتنزيلها	١٢٨
١ ـ قاعدة اتباع الشرع، معيار للأخذ والرد	١٢٨
من أهم ضوابط العرض على الشرع	١٢٩
٢ ـ من ضروريات تحقيق الاتباع؛ الفقه للنص الشرعي	١٣٠
الفتوى التربوية	١٣٥
٣ ـ من أمثلة الفقه للنصوص الشرعية	١٣٧
٤ ـ قاعدة في: ضوابط الاستفادة من كلام أهل التربية والسلوك	١٣٨
وضع كلام السلف في مكانه الشرعي	١٣٩
المرويات عن السلف بين إثبات نسبة المروي، وصحة المعنى	١٤٠
التوسط في تقييم كلام أهل التربية والسلوك	١٤٤
أسباب الرد الجائر لكلام أهل التربية والتزكية	١٤٥
٥ ـ قاعدة في: الاستفادة من كتب التربية والسَير	١٤٧
الاستفادة من المصنفات التي فيها شيء من الخطأ	١٤٩
نماذج من تقييم ابن تيمية وغيره لكتب أهل السلوك	١٥٠
خامساً: أثر غياب القاعدة	١٥١

الفصل الثاني

القواعد المحققة لمقصد التحلي بالصبغة الربانية

* تمهيد	١٥٩

الموضوع	الصفحة
* **القاعدة الخامسة: الشمولية**	١٦١
أولاً: المراد بالقاعدة	١٦١
ثانياً: الأصل الشرعي للقاعدة	١٦٢
ثالثاً: من فقه القاعدة	١٦٣
١ ـ تكامل الدين الإسلامي وشمولية التربية	١٦٣
أهمية قاعدة الشمولية في الفكر الاسلامي	١٦٣
صعوبة مفهوم الشمولية على العقول الضيقة	١٦٤
٢ ـ صبغة الله	١٦٦
٣ ـ لكلٍ سيّد من عمله	١٦٧
رابعاً: تحقيق القاعدة وتنزيلها	١٦٨
١ ـ كيفية تحقيق الشمولية في التربية	١٦٨
الحد الأدنى لتحقيق الشمولية	١٦٩
٢ ـ الممارسات والوسائل التربوية المساعدة على ترسيخ مفهوم الشمولية	١٧٠
خامساً: أثر غياب القاعدة.....	١٧١
* **القاعدة السادسة: مراعاة الأولويات**	١٧٥
أولاً: المراد بالقاعدة	١٧٥
ثانياً: الأصل الشرعي للقاعدة	١٧٦
ثالثاً: من فقه القاعدة	١٧٧

الموضوع	الصفحة
١ ـ دقة فقه الأولويات	١٧٧
حال الناس عند تزاحم التكاليف الشرعية	١٧٨
٢ ـ أسباب الانحراف عن فقه الأولويات	١٧٩
٣ ـ أمثلة لفقه السلف لقاعدة لأولويات	١٨١
رابعاً: تحقيق القاعدة وتنزيلها	١٨٣
١ ـ المعايير المعتبرة في معرفة الأولى بالتقديم	١٨٣
٢ ـ من الوسائل المعينة على فهم الأولويات	١٨٦
٣ ـ تطبيقات تربوية في موضوع الأولويات التربوية	١٨٧
التطبيق الأول: تقديم العناية بتزكية الباطن	١٨٧
التقديم للظاهر والعناية الفائقة به حالة تتكرر جيلاً بعد جيل	١٩٠
التطبيق الثاني للقاعدة: تقديم الفرائض على النوافل	١٩٣
التطبيق الثالث للقاعدة: تقديم الكليات قبل الجزئيات	١٩٦
التطبيق الرابع للقاعدة: تقديم أصول الأخلاق على فروعها	١٩٨
خامساً: أثر غياب القاعدة	٢٠٠

الفصل الثالث

القواعد الخادمة لمقصد الاستدامة في التربية

* تمهيد	٢٠٣
مكانة الاستدامة والاستمرارية على الأعمال في الفكر التربوي الإسلامي	٢٠٣

الموضوع	الصفحة
* **القاعدة السابعة: التدرج**	٢٠٧
أولاً: المراد بالقاعدة	٢٠٧
الفرق بين قاعدة التدرج وقاعدة الأولويات	٢٠٨
مقاربة بين قاعدتي التدرج والشمولية	٢٠٨
ثانياً: الأصل الشرعي للقاعدة	٢٠٩
من الأمثلة على التدرج في التكليف بالأحكام الشرعية	٢١١
إعمال السلف لقاعدة التدرج	٢١٢
ثالثاً: فقه القاعدة	٢١٣
١ ـ التدرج مفتاح التربية	٢١٣
لماذا يهمل المربون قاعدة التدرج؟!	٢١٤
٢ ـ العوامل المؤثرة على استمرار التدرج والتطور	٢١٧
ما هي أهم العوامل المؤثرة على استمرارية السير الجاد؟	٢١٨
٣ ـ أهمية المحافظة على المستوى التربوي	٢٢٠
٤ ـ بين التدرج والتنطع	٢٢١
٥ ـ الانتقال بين المقامات والمستويات التربوية بالوثب بدل الخطوات	٢٢٣
رابعاً: تحقيق القاعدة وتنزيلها	٢٢٤
١ ـ تشبيه التطور التربوي بالتدرج الحسي يقرب الفكرة إلى الأذهان	٢٢٤
٢ ـ من المقاربات في السير التربوي	٢٢٦
٣ ـ أهمية تحديد مستوى المتربي والمتلقي للوعظ	٢٢٩

الموضوع	الصفحة
الترويح المجتمعي وعلاقته بالمستوى التربوي للمجتمع	٢٣٠
التفريق بين الحال العابر وبين المستوى التربوي	٢٣٢
٤ ـ مراحل التربية يُبنى بعضها على بعض	٢٣٣
خامساً: أثر غياب القاعدة	٢٣٤
* **القاعدة الثامنة: الواقعية**	٢٣٧
أولاً: المراد بالقاعدة	٢٣٧
الفرق بين قاعدة التدرج وقاعدة الواقعية	٢٣٧
الواقعية في التربية والمعاصرة	٢٣٨
ثانياً: الأصل الشرعي للقاعدة	٢٣٩
ثالثاً: من فقه القاعدة	٢٤٠
١ ـ من فقه الواقعية مراعاة خصائص البشر وفطرتهم	٢٤١
٢ ـ من فقه الواقعية: اعتبار تفاوت قدرات الناس وقابلياتهم	٢٤٤
٣ ـ الواقعية وفقه التوازن	٢٤٧
التوازن المعاصر	٢٥٠
٤ ـ المثالية ومضادتها للواقعية	٢٥١
مظاهر المثالية	٢٥٢
بواعث المثالية في النفوس	٢٥٣
رابعاً: تحقيق القاعدة وتنزيلها	٢٥٧

الموضوع	الصفحة
١ ـ كيف نحدد الواقعية في كل بيئة تربوية	٢٥٧
طرق إدراك الواقعية	٢٥٨
الطريق الأول: التجربة والممارسة	٢٥٨
الطريق الثاني: النظر في المآلات	٢٥٩
الطريق الثالث: القراءة في العلوم الإنسانية المساعدة	٢٦٠
٢ ـ التطبيق العملي للواقعية بإعمال المبادئ التي اعتبرها الشارع	٢٦١
٣ ـ فقه مراعاة عامل الوقت أو الزمان	٢٦٣
٤ ـ قاعدة: التربية الإيجابية	٢٦٤
توجيه النبي ﷺ المواعظ إيجابياً	٢٦٩
مراعاة المقامات المسيِّرة	٢٦٩
خامساً: أثر غياب القاعدة	٢٧٠
* **القاعدة التاسعة: التحفيز**	٢٧٣
أولاً: المراد بالقاعدة	٢٤٧
ثانياً: الأصل الشرعي للقاعدة	٢٥٠
ثالثاً: من فقه القاعدة	٢٥١
١ ـ التحفيز في الشرع يأتي بالجزاء الدنيوي العاجل والأخروي المؤجل	٢٧٣
٢ـ فقه التحفيز حسب المناسبة والمصلحة	٢٧٤
٣ ـ من التحفيز المحافظة على استقرار وثبات القواعد الشرعية في النفوس	٢٧٦

الموضوع	الصفحة
٤ ـ قاعدة: لا يترك العمل الصالح لأجل عيب يطرأ عليه	٢٨١
٥ـ قاعدة: ترك التفريع في الصفات المذمومة	٢٨٢
رابعاً: تحقيق القاعدة وتنزيلها	٢٨٤
١ـ التأمل في المآلات	٢٨٤
توجيه النبي ﷺ المواعظ إيجابياً	٢٨٥
٢ـ التغافل وإقالة ذوي الهيئات عثراتهم	٢٨٨
٣ـ تشجيع العطاء بجميع مستوياته	٢٨٩
خامساً: أثر غياب القاعدة	٢٩٠
* **القاعدة العاشرة: الذاتية**	٢٩٣
أولاً: المراد بالقاعدة	٢٩٣
ثانياً: الأصل الشرعي للقاعدة	٢٩٤
ثالثاً: من فقه القاعدة	٢٩٤
١ ـ فلسفة الذاتية	٢٩٤
حقيقة الذاتية في التربية	٢٩٥
٢ ـ الذاتية صانعة القدوات	٢٩٧
٣ ـ الارتباط بصحبة تعينه وتدله على الخير لا ينافي الذاتية	٢٩٨
رابعاً: تحقيق القاعدة وتنزيلها	٢٩٨
كيف نكوِّن الذاتية في المتربين	٢٩٨

الموضوع	الصفحة
١ ـ إعطاء الفرصة للمتربي لتنمية الذاتية في نفسه	٢٩٩
ترك الوصاية التربوية	٣٠٠
٢ ـ تفهيم المتربي أساسيات تربية النفس	٣٠٠
٣ ـ مجاهدة النفس	٣٠١
٤ ـ التربية الوقائية	٣٠٢
٥ ـ التربية على مبدأ: العلم يراد به العمل	٣٠٤
٦ ـ التربية على الخلوة بالنفس	٣٠٥
خامساً: أثر غياب القاعدة	٣٠٧
* فهرس المراجع	٣١١
* فهرس الموضوعات	٣١٩

